أوراق الزمن الداعر

رواية

صلاح صلاح

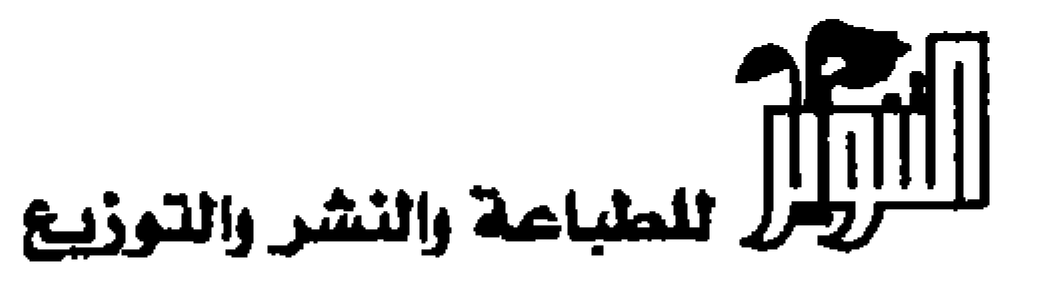


أوراق الزمن الداعر

الكتاب: أوراق الزمن الداعر
المؤلف: صلاح صلاح

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى / ٢٠١٠

الناشر:



بيروت - لبنان
هاتف: ٤٧١٣٥٧ ١ ٠٠٩٦١ فاكس: ٤٧٥٩٠٥ ١ ٠٠٩٦١
Email:dar_altanweer@hotmail.com
Email:dar_altanweer@yahoo.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة مصطفى قانصو للتجارة الطباعة بيروت / لبنان

روايـــة

أوراق الزمن الداعر

صلاح صلاح



لَكِ السَّلامُ يا شَفيعةُ.

يا ضَيفَ اللهِ المتوسّدَ شَفاعتَهُ

ما بَينَ النارنجاتِ الأثيرةِ لعصياناتِ جروحِنا.

لَكِ الثَمراتُ المنخفضةُ التي تفصلُ النجومَ عَن النجوم.

نصيف الناصري

الفصل الأول

اسمي!..... ليس مهماً أن تعرفه.. أستطيع فقط أن أسرد لك، أما إذا أردت سؤالي مرة أخرى عن الاسم وكنت لحوحاً، فإن بإمكاني إعطائك أي اسم مزيف أو غير حقيقـي... حـسناً طالما أن الأمر لـيس بتلـك الأهميـة فلنترك الاسم جانباً ولندخل في الموضوع مباشرة.

أعرف الآن أني أنهض من نوبة بكاء عارمة بعدما ابتلعت حبوبك، اذ يبدو الأمر ليس بذلك القدر من السوء وبإمكاني الحـديث بـالرغم مـن أن هناك مثلما ألمح أسئلة تود أن توجهها لي. سأسرد لـك كـل شيء. كـل شيء تقريباً. حسناً، إنها هواية لا أحبها طبعاً لكني مضطر، تحت هاجس الحبة.

كانت الغرفة التي أجلس فيها مـستطيلة، أنـت تعـرف هـذه الغـرف طبعاً. على الجدران ثمة صور تمثل المسيح في رحلتـه المقدسـة إلى مـصر أمـا اللوحات الأخـرى فكانـت تمثـل، رحلـة(ابونـا) مـن اور الكلـدانيين إلى فلسطين. اللوحات المتبقية كانت عبارة عن غائط.

في الزاوية يرقد ميزان صـغير لـوزن الـضحية أمـا في الـركن الآخـر فكانت ألعاب بريئة لأطفال لم أشاهدهم أبداً. هنـاك أيـضاً طاولـة كبـيرة، طاولة فكتورية الشكل والتصميم تستقر عليهـا كـل الخرائيـات مـن مثـل، مسجلة صوت، مجلات دعـارة، صـور لأطفـال يتلقـون العنايـة مـن كبـار

يمثلون السفاهة. ثم الكثير من الأوراق غير المفهومة. كان الغائط عميا لدرجة أني لم أستطع التنفس.

عندما دخلت العيادة استقبلتني السكرتيرة بابتسامة صفراء، لم أستطع الوصول إلى (الكونتوار) لوجود كلب عند البوابة الداخلية. قفزت السكرتيرة وأبعدت الحيوان الخرافي.

هناك إشكال آخر كان يحيط بي، ذلك أنه من المفروض أن أجلس إلى جانب عجوز كان يحك رأسه باستمرار، دفعني هذا إلى حالة هلع وخوف من أن ينتقل إلي هذا الجرب.

اختفت السكرتيرة لبعض الوقت، وكنت أشعر أن أشياء أخرى في سبيلها إلى إرعابي. جاءت العاهرة بكرسي من النوع الذي يطوى وفتحته ودعتني إلى الجلوس. عرفت أنها المرة الأخيرة التي ستدعوني فيها إلى الدخول، بعد ذلك سأذهب إلى الجحيم.

تريثت ونظرت إلى يساري حيث كان هناك محل لتدريب اليوغا. مجموعة من القحاب يمارسن تمارين رفع الساق أو ضمها..... مع صمت. كوني لم أستطع مرة أخرى الدخول. نظرات السكرتيرة تركتني ألوك الوقت واقفاً.

في النهاية أنزلقت أشبه بالمسرنم فيما قلبي ينفجر على نحو مشوه. توقفت أمام (الكونتوار) وأردت أن أتحدث بأشياء تافهة، مثل أن الجو سخيف أو أن ملابسها أكثر حشمة مما يجب.

شغلت نفسي بالنظر إلى حذائي حينما سمعت صوتاً يطلب مني البطاقة الصحية- لم أعرف من أي اتجاه ينبثق الصوت- أخرجت البطاقة بسرعة وسقطت قصاصات كانت محشوة في محفظتي. كنت أهذي وتتلبسني حالة من العماء.

جلست إلى الكرسي الذي يطوى. إلى جانبي يجلس الرجل العاهر

وهو يحك رأسه. سيطر علي هوس العدوى من القمل. بصقت على الأرض ونظرت السكرتيرة بتقزز ثم جاءت بخرقة ومسحت الأرض.

إلى جانبي الثاني كان يجلس مريض آخر، أكثر نظافة من العاهر الأول. بدأ حديثه معي بإنكليزية مضحكة فأجبته بإنكليزية أتعس. كانت الكلمات لا تخرج من فمي بسهولة. كنت مشوشاً بشكل ملعون، لكنني استطعت أن ألمح السروال الداخلي للسكرتيرة- كلما انحنت لتلتقط ملفاً- كان من ذلك النوع الذي يستخدم في حمامات السباحة- لم أشعر حينما رأيت سروالها الداخلي بأية رغبة جنسية.

سألني جاري إن كنت أعرف العربية. فقلت له نعم وأخذنا نتحدث بشكل هامس كان فيها هو الذي يوجه الأسئلة. كان عراقياً مثلي ووصل حديثاً إلى كندا. عرفت منه أنه مصاب باكتئاب حاد ووسواس قهري وشيزفرونيا وصرع. شعرت بنوع من التضامن معه،، كونه عراقيا والشيء الآخر أنه مصاب مثلي بكل تلك الأمراض اللعينة.

كانت اللوحة الموضوعة في غرفة السكرتيرة تصور أطفالاً في حديقة عامة، لوحة سخيفة جداً. قلت هذا للعراقي ثم شعرت فجأة بحالة من الإغراق في حزن عميق. بعد ذلك شعرت بفوضى الأشياء في عقلي وهي تتناثر في كل الأمكنة.

مرت ساعة كاملة وأنا أنتظر في الصالة. حاولت في هذا الزمن أن اقرأ سلوكيات السكرتيرة، من مثل لماذا كانت تتعمد الانحناء أكثر من أي وقت آخر، أو لماذا كانت ترتدي لباس البحر مع أنها تعمل في العيادة الآن.. كنت أريد أن أتبول على كل شيء، خطرت إلى ذهني فكرة ماذا سيحدث لو أني أخرجته فعلاً وتبولت. أفكار مثل هذه كانت تسيطر علي غالباً.

فتح باب ثان وخرج الدكتور من ممر طويل. ألقى نظرة علينا ثم قرأ اسمي. نهضت وأشار لي بالدخول.

وجت الممر المؤدي إلى غرفة بعيدة. الممر يشبه مهبل طويل في حالة تهيج. تحاملت على نفسي واستطعت السير في المهبل فيما الطبيب يسير خلفي. لم أعرف على وجه الدقة لماذا كان يلاحقني بهذه الحميمية. توقفت وقلت:

- تستطيع أن تسبقني.

همهم بأشياء لم أفهمها. سرت وأنا أشعر أني لم أزل صبياجميلا.

- حسناً فلنتحدث.

قال وجلس أمامي مثل بوذا. شعرت في تلك اللحظة برغبة جامحة للاستمناء. كنت أريد أن أتقيأ عندما دخلت السكرتيرة وانحنت لتوشوش في أذن الطبيب، ملمح لباسها البحري لم يزل بارزاً من محزم البنطلون. أردت مضاجعتها، لكني تراجعت في آخر لحظة. هكذا أنا دائماً.

استطعت من خلال الباب الذي تركه الدكتور موارباً أن ألمح زميلي العراقي، يتقيأ ثم ينهار. لغو وجلبة في الصالة ثم أصابع طويلة وخيول تصهل بلا صوت. مرت دقائق وجاء رجال الإسعاف. حملوا الرجل بسرعة ثم اختفوا في الضباب. كل شيء يجري في سخافة عارمة.

أعود بنظري إلى الغرفة عبر المهبل اللزج والروائح الحامضة. أغرق في الكرسي الذي يشبه كرسي الاعتراف. أنظر إلى لوحة إبراهيم وهو يتجول في مهاد أرض الرافدين. أشعر بالدهشة من اكتشافاته الدينية، وصل إلى زاخو ومن هناك عاد القهقرى إلى بلاد الشام..

أخذ الطبيب ينظر إلى ملفي الشخصي الفارغ إلا من تقرير كتبته على عجل في الصالة الخارجية يصف حالتي. ينظر الطبيب إلى وجهي بشكل مرعب. كان يقرأ وينظر إلى عيني مباشرة. لم أكن أعرف كم استغرق من الوقت. لكن خوفا مفاجئا بدأ يسيطر على اعضائي كلها. اللعنة. لم أعد أمتلك القدرة الكافية على الكلام. قال الدكتور:

- حسناً فلنتحدث في شيء معين.

كنت أريد أن أتحدث، أن أسرد لكنني لم أستطع. الشهقات متتالية والغصص تتدفق في تعجيل غريب.

نهض الدكتور وجاءني بحبة صغيرة وحقنة وريدية. استطعت بصعوبة ابتلاع الحبة. مرت نصف ساعة شعرت فيها أني أستطيع الآن التوقف عن البكاء وأن العالم غدا أكثر سلاماً وطمأنينة.

ناولتني السكرتيرة قدحاً آخر من الماء. دفعت ظهري إلى الكرسي باسترخاء. لم يتحدث الطبيب بأي كلام. لباسها كان أزرق. يسجل الطبيب ملاحظات عاجلة. يقف ويقدم لي عنواناً لمستشفى علي الذهاب إليه بسرعة. نهضت وسرت في الممر الدبق. في الصالة ابتسمت لي السكرتيرة. لم ألاحظ سروالها الداخلي الموشى بالورود. ابتسمت لها ثم ابتسمت للمرضى الجالسين بوضعيات غريبة. أنهيت متعلقاتي وهبطت إلى الشارع في ذهول. قررت أن أدخل أول مقهى من أجل احتساء قدح من القهوة البرازيلية وتناول الشوكولاته.

صوت الموسيقى في المقهى هادىء جداً وأغنية رشيقة لمايكل بابلو تتسرب إليك وتمتزج مع رائحة القهوة. بالقرب مني تجلس امرأة أربعينية. حينما لامست عيني البروز اللحمي لخاصرتها، لاحظتني وابتسمت. أومأت برأسي مثل قط. بعد عدة دقائق لمحتني أنظر إلى ساقها، كانت ترتعش وتتلألأ بياضاً، بدهشة. تذكرت كاظمية بائعة السمك في علاوي الحلة. الأشياء السيئة دائماً تقفز إلى الذاكرة. الموسيقى الرائعة الآن والخافتة والتي تذكرك بأيام مرت في الزمن الماضي لكن باشتطاطات غريبة أعادت لي التفكير في.......

عاطفة. كانت هي أيضاً بيضاء بلون حليبي وجسدها يتلألأ تحت الشمس. هي المرأة الوحيدة التي تلهمني الشبق. ليست المشكلة في

المضاجعة إنما في الرائحة. كل امرأة لها رائحة مميزة. عاطفة من ذلك النوع الذي يثير طعم مذاقها رائحة العطور التي تباع في الكاظمية. كانت مقدسة في كل شيء. أخذت صور من أزمنة توراتية تتدفق. عاطفة أثناء ارتقاء السلم وأنا فتى داهمته الرجولة حديثاً. عاطفة تمسح الأرض بانحناءات شيطانية.

عاطفة في بيت الأسرة تدخل المرحاض، حيث أنتظرها دائماً مثل مشوه لاشم رائحة تبولها الفردوسي. عاطفة تصعد حينما ياتي زوجها إلى الغرفة في الطابق الاعلى حيث أنتظر دقائق ثم أنظر من ثقب الباب. كان الحيوان الرجولي يعربد، يا للسماء، وهي مثل الزبدة تتلوى عند درجة حرارة ستين مئوية، مع مروحة تئن.

الفصل الثاني

أخذت رشفات متتالية من قهوتي. كلب المرأة يلعق ساقها المتبلور واللماع. ابتسمت لي مرة أخرى حينما لاحظت أني كنت أنظر إلى كلبها. قالت:

- إنها أنثى وتدعى شادو.
- اسم جميل،

قلت بابتسامة كبيرة.

- إنها صغيرة لكنها ذكية جداً،

قالت.

- لقد أنقذتني أكثر من مرة حينما تعرضت للمشاكل.
- نعم. هذا واضح.
- ما الذي تقصده بواضح؟
- أعني أنها تبدو ذكية فعلاً.
- إني أحبها جداً. هناك أشياء كثيرة مشتركة بيننا. هل تلاحظ.
- نعم.. جميل أن يشعر المرء أن هناك أشياء تربطه بحيوان ذكي مثل هذا.
- لا. هي ليست حيواناً. إنها شادو.

- المعذرة. يبدو أني لا أجيد التعبير بشكل واضح.
- لا عليك. أنا أفهم ما تريد قوله. أشعر أنك تستلطفها مثلي.
- ماذا؟.... تبدوان متكاملين تماماً.
- هذا صحيح. تبدو ذكياً ولماحاً. أنا سعيدة أن أتجاذب الحديث معك. بإمكانك أن تشاركني الطاولة.

انحنت قليلاً وداعبت شادو. بدا زغب نهدها عارماً ومتفجراً.

نهضت وجلست إلى طاولتها. طلبت مني أن أمسك شادو ريثما تأتيني بالقهوة.

أخذت الكلبة تلحس يدي وساقي. ثم بدأت بدفع مؤخرتها نحو حذائي. ذهلت وأنا أنظر إلى مؤخرتها، ثم شعرت بتنمل بطيء يسري في خصيتي. عادت المرأة وهي تحمل أقداح القهوة.

- اسمي كاغد.
- اسمي جودي. اسمك لطيف وهو اسم شعبي على ما أظن.
- لا الكثير من الناس لا يستخدمون هذا الاسم.
- هل تحبه.
- لم أفكر في هذا الموضوع. إنه مجرد اسم.
- ماذا يعني اسمك؟
- ورقة. مجرد ورقة.
- اسمح لي.. الاسم يعكس شخصية حامله.
- إلى حد ما. ربما هو من أوحى لي التفكير في كتابة كتاب مقدس. ابتسمت مثل ضبع.
- واو، أنت مثير. هل بالإمكان فعلاً أن تكتب هذا الشيء؟

- أحاول.
- هل توقفت أم أنك مستمر.
- في الحقيقة لا زلت أحاول.
- يجب أن تخرج من المحاولة إلى الكتابة الفعلية.
- هذا ما أريده أيضاً. أفكر في مواضيع كثيرة. أريد أن أكتب شيئاً مثيراً وحقيقياً.

أخذت أتجرع القهوة بسرعة. كانت تنظر إلى وجهي مثل شائه. ثمة شعور بالارتباك يسيطر علي. لم أعرف لم غزاني هذا الشعور، ربما لأنها المرة الأولى التي أتحدث فيها عن كتابي الجديد.

- جودي.. أنت جميلة فعلاً.

ابتسمت ابتسامة عريضة وأخذت تداعب شادو. كان تأثير الحبة التي جرعني إياها الطبيب قد بدأ بالعمل وكنت أشعر أني أشبه بذبابة.

- هل تعني أن شعري جميل؟
- كل شيء لديك سماوي.
- واو أنت تجيد الإفصاح عن شعورك بشكل جيد. هل أنت مشغول هذا اليوم.
- ليس لدي شيء محدد. أنا حر تماماً.
- أريد أن أدعوك إلى الغداء. هناك مطعم هندي يعد وجبات رائعة.
- هندي. قلت بشغف.
- نعم. هل تحب الطعام الهندي؟
- أقدسه. إنه الحقيقة الكونية الوحيدة في هذا العالم.
- تعني الهندوس.

- لا أعرف.. بالنسبة لي، كلهم هنود، طعامهم يشير إلى حضارتهم الراقية. فكرت بموضوع الطعام طويلاً وأردت أن أضيف فصلاً في كتابي المقدس عن الطعام الهندي.

- الطعام؟؟ أخذت تضحك بصوت مموسق.

- أجل، الطعام. كلما كان متنوعاً وحاداً فإنه يشير إلى الشخصية والدين. براهما يمكن أن يفسر لك أشياء كثيرة عن هذا الموضوع. قلت في كتابي المقدس : الطعام مثل الجنس كلما التهمته بعنف كلما شعرت بخصوصيته.

- مذهل. أريد أن تحدثني المزيد عن كتابك المقدس.

أخرجت سيجارة وأشعلتها ثم ناولتني واحدة أخذت امتصها بشغف.

- تحدثت في كتابي عن الجنس أيضاً. انتبهت وهي تبعد سيجارتها عن فمها والدخان عن وجهها.

- أنا موقنة بأنك قلت أشياء رائعة عن هذا الموضوع. تبدو شخصا متميزا.

امتصصت السيجارة مرة أخرى بقوة.

- لا تتصوري كم تعاني النساء هناك من شراهة الرجال وقسوتهم وأنظمتهم الاجتماعية.والدينية. هناك عقدة في حياة ودين وعقل العربي اسمها المرأة. كل شيء موجه ضدها. تصوري إذا اعتدى عليها شخص مجهول لا تعرفه واغتصبها، رغم إرادتها، تُقتل هي وليس الجاني.

- هل هم مجانين إلى هذه الدرجة.

- وجدت أن الشيء الوحيد القادر على إنصاف النساء هو كتاب مقدس جديد.

- لكن إذا لم يكن هذا الكتاب من الله فسوف يقتلوك أنت أيضاً.
- ليس مهما.. هل تعرفين، لقد اكتشفت أن الآلهة المسيطرة على الكون لم تكن آلهة ذكورية، إنما أنثوية.

شعرت وأنا أنظر في عين جودي أنها هربت ذهنياً إلى مكان ما وتركت سيجارتها معلقة بين أصابعها المصبوغة باللون الأسود.

- فكرة الذكورية أو الأنثوية لست مقتنعة بها. أضف إلى هذا أنا من عبدة الشيطان.
- المشكلة التي أعاني منها هي، هل فعلاً أن الأديان من الآلهة؟. في بعض الأحيان أخشى أن يكون كل هذا زيفاً وأننا مجرد حقل تجارب لمخلوقات كونية بعيدة.
- ربما.. أخذت تنظر إلى ساعتها اليدوية ثم أخرجت علبة مكياج صغيرة وأخذت تطلي شفتها باللون الأسود.
- هل لديك موعد؟

ضحكت. لا.. أرجوك أكمل فربما أتبع ديانتك..

- بهذه السهولة.. وماذا بخصوص الشيطان.
- لا تكترث.. أنا وعائلتي منفتحون على كل الأفكار الجديدة

بالرغم من أن عمي رجل دين يهودي.

بعد دقائق من الصمت، دعتني جودي إلى الخروج والتوجه إلى مطعم. سرنا في الشارع ثم سألت بشكل مفاجئ عن الجنس والحرية.

- إنها مسالة معقدة. لكني استطعت تجاوزها. على المرأة أن تأخذ حريتها كاملة. المرأة هي الأصل وليس الرجل. وجود الرجل هو لإمتاع المرأة وليس العكس. الشهوة شيء مقدس جودي
- الشيطان يقول ذات الشيء.

- لا أعتقد أن الشيطان له نفس أفكاري.

سرنا دقائق صامتين ثم وصلنا المطعم وبعد أن جلسنا قلت :

- العالم في الجانب الآخر يرزح تحت سلطة الرجل الذي احتكر الله له. هناك تعامل النساء أشبه بالجريرة والشر. أنا شاهدت الكثير من النساء وهن يمتن يومياً تحت سلطة الرجل الشنيعة، إنهن يعشن تحت سلطة قوى متعددة. العالم هناك بحاجة فعلاً لنبي جديد ووحي حديث بعد أن أغرق الرجال النساء في وحل الجبروت والموت. أنا لا أفهم لماذا يقتلون النساء لمجرد أن تكون قد ضاجعت رجل. إنها كائن له رغباته وأحاسيسه ونزواته وهفواته. مثل الرجل. هناك العالم يعيش تحت إرث رجولي شنيع. هل تعرفين أن عدد القحاب هناك أكثر من أي مكان آخر. هل تعلمين كم سلطة تتسلط على المرأة هناك. يا للعنة إنه جحيم مخيف. علاقات معقدة وكبت ونزوات مقتولة وجبروت هائل وجوع جنسي واضطهاد وموت وقتل. المرأة هناك هي الضحية الوحيدة لهذا الإرث الجهنمي.

- أنت متحمس كثيراً للمرأة. هل تعلم أن الشيطان أكثر رأفة بالمرأة.

- يقولون هناك، إن المرأة هي أداة الشيطان. إنها نزعة فوقية وانتقامية. إنها إنسان وكائن مثل الرجل. ماذا لو أعطينا المرأة كامل حريتها. كيف سيكون العالم. ثم أن الشيطان ربما يكون فكرة وهمية.

- عزيزي، الشيطان ليس وهماً. إنه يقتسم العالم.. هل تؤمن بالوحي؟. كل نبي له وحي خاص

- ليس هناك وحي في الحقيقة. هناك إشراق داخلي. كل إنسان جرب في وقت ما الإشراق الداخلي. البعض يكون إشراقهم الداخلي مستمراً والبعض الآخر متقطع والبعض بدون إشراق تماماً. أنا أفكر بديانة جديدة لا تعتمد على الإشراق الداخلي إنما على الفكر والسلام الداخلي ومعاملة كل مخلوقات الكون بإنسانية عالية جداً.

أنهينا وجبتنا الهندية وشربنا الشاي بالعسل. استرخينا في مقعدينا وأخذنا ندخن بسكون. كنت أنظر إلى شق تنورتها الذي يكشف عن فخذ أبيض لامع وفضفاض، فخذ يعوي بوحشية. ثم أشعر أني يجب أن أمارس معها الجنس حتى ولو كان جنساً ذهنياً.

اقترحت جودي أن نتمشى قليلاً في شارع يونغ، ثم قالت إن لديها بطاقات دخول لمسرحية.

- ليس لدي أية ارتباطات، قلت.

- سنحضر العرض الذي سيبدأ بعد ساعتين،قالت.

سرنا جنوباً باتجاه وسط المدينة. كنا أشبه بأخيلة إلهية خارجة من تسابيح القبالة.. قلت

- إنه شيء جميل بل رائع أن تتغدى وأن تحضر مسرحية. أقبل شيطانك يا جودي.

ضحكت ضحكة مكتومة. توقفنا برهة وأشعلنا سجائرنا من جديد. كان الجو رائعاً و هواء بارد يأتي من جهة بحيرة تورنتو. الهنود والسريلانكيون يملأون الشارع الطويل ويضيفون عليه صبغة غريبة. طووايس حجرية تتأرجح على بوابات المطاعم. صينيون يكنسون الشوارع ويزيلون أوراقاً وإعلانات من أعمدة الكهرباء. شارع ينفتح على مديات آسيا وغابات القرود الهندية في معابد راما كرشنا.

أقتربنا من البحيرة ثم انحدرنا باتجاه الساحل والأشرعة المسدلة للقوارب البيضاء. كان هناك سكون كبير لا يحطمه إلا صراخ النوارس البيضاء وهي تتصارع وتتقاتل على وجبات الخبز التي يرميها العجائز في البحيرة. تنظر جودي في وجهي وكانها تريد أن تستقريء الأفكار التي تدور في ذهني، لكنها تفشل. كنت أخبىء الأفكار عميقاً في جب يشبه جب يوسف.

- هل تحب الشيطان؟ قالت جودي بلهفة.

- آه. كان سؤالا مفاجئا. شعرت بتردد وأنا أفكر في ذهني بالجواب المناسب.
- هل تحبه.
- لا أكرهه.
- جرب أن تحبه.

قالت بتحد ولهجة إصرار تنبعث من فمها الذي يشبه فم اتام بلعام وهي تلحس (المصاصة).

نظرت إلى لسانها الذي اصطبغ بلون المصاصة والذي كان يخرج ويدخل في تماهي غريب.

- كيف أجرب. قلت وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة.
- هناك طريق سري. لكن لن تخسر شيئاً في كل الأحوال.
- والطقوس.؟ تساءلت.
- جميلة جداً. عبادة الشيطان جزء من الطبيعة.

أخرجت جودي تفاحة من حقيبة الظهر الصغيرة وبدأت بالقضم. كانت شادو تنظر بعمق إلى البحر فيها النوارس البحرية تحلق عالياً وهي تغادر أشرعة مطوية لقوارب بيضاء متلألأة في الشمس.

- الموضوع شائك حقاً. لدي مشكلة حقيقية مع الأديان كافة.
- لهذا السبب اعبد الشيطان.

قالت وهي تخرج قشرا صغيرا علق بين أسنانها. الشيطان. هو الوحيد الذي يرى العالم أكثر جمالاً. ثم أنه غير متطلب ولا يشعرك بالعبودية إنما بالحب

- لكنه سيء.
- ليس دائماً. كل شيء فيه جانب مظلم وجانب نوراني. بالمناسبة أنا

أعرف تاريخكم الذي يحوي الكثير من الكتب عن المضاجعات.

- تاريخنا كله مضاجعات واغتصابات.
- تاريخ مشوق.
- أعز امنية للعربي هي المضاجعة.. المشكلة ليست مع التاريخ القديم. يطالب رجال الدين اليوم بالتبتل سواء للمرأة أو الرجل، متناسين تاريخنا الجنسي كله حيث كانت النساء تمارس الجنس مع من تحب. والرجال يتمتعون مع العشرات من النساء والمحظيات والجواري والولدان. تصوري، لو لم تكن للعربي جنة مليئة بالنساء والحوريات والأبكار والخمر والولدان والذهب لما قاتل.
- شيء غريب فعلاً.
- لذا أنا أريد أن أكتب شيئاً جديداً.
- فعلاً أنتم بحاجة إلى شيء جديد.

زفرت زفرات طويلة ثم أخرجت علبة السجائر وناولتها واحدة. أخذت السيجارة وأفرغت بعض التبغ ووضعت بدلاً منه مارجوانا. أشعلتها ثم ناولتني لآخذ نفساً. قالت إن هذا سيجعلني أرى العالم أكثر جمالاً ورقه وبهاء. سحبت نفساً قصيراً ودفعت به إلى داخلي. أحسست أن شيئاً غريباً ولذيذاً يتمدد داخلي. تذكرت جلساتنا في الجمعية الباراسيكلوجية في بغداد حيث كنا نناقش تجربة الكتابة عند حافة الصفر كان رئيس الجمعية الدكتور الحارث عبد الحميد، يشرح لنا تجاربه الخاصة مع مادة معينة كان يتناولها ليصف بعد ذلك الإلهامات الصورية التي كانت تتدفق في ذهنه. كانت لدي أنا أيضاً تجارب خاصة في الوصول إلى حافة النهاية أو النقطة صفر والمتأتية من شرب دواء التوسيرام، حيث كان الإلهام يتدفق في عنفوان غريب ومذهل. عنفوان هائل للذاكرة التي كانت تقفز من مكان إلى آخر في خفة ورشاقة مذهلة.

أخذت النوارس تطير في أشكال مقلوبة وهي تحلق فوق البحيرة ووجه جودي يتأرجح مثل حبل طويل بلا نهاية. أخذت أشاهد عناكب صغيرة تعلو وجهي و تقرأ تراتيل موغلة في القدم. كانت العناكب تسير في جموع غفيرة و فصائل متعددة وهي تلتهم بق الزايلو كاريس الذي يسلك سلوكاً غريباً عندما يسد سدادة التناسل لأنثاه من أجل منع الذكور من تلقيحها. كنت أشبه بدبابير الروبيكولا وأنا أجامع عاطفة ذهنياً في مضاجعات مبعثرة في امتدادات هائلة للوقت. ترفع عاطفة حجابها فأهجم وأفتق لباس الكينونة.

سرنا أنا وجودي بعد ذلك باتجاه المحطة. من هناك أخذنا الباص إلى هاملتون. أخذت أشعر بانتعاش غريب عقب تدخيني السيجارة المعبأة بالمارجوانا. كنت حين أسير ترتفع ساقي بشكل مضحك وسريع. ضحكنا في الباص ضحكات طويلة ومتصلة ثم مددت يدي مثل أعرابي إلى بؤرتها. صعقت وحدقت في وجهي مثل أبله. لم أعد أرى شيئاً. نسيت الطريق وسائق الباص والناس و كل عقلي تحول نحو بؤرتها فقط.

بعد الصدمة ضحكت جودي بصوت متحشرج. أردت امتطاءها في الباص. أخذت ترفع جسدها وتتلوى.. أحسست برطوبة خفيفة تكتسح أصابعي. تأملت زرادشت، النرفانا، حروب مشوهة. طفولة شائهة. عري عارم. انسكلوبيديا عن تحول الإنسان إلى كائن بحري. نصيف الناصري يركض خلف قطط تائهة.

بعد ارتعاشات متتالية وشديدة استطاعت عبور الاوراجزم بسلام ورمت بجسدها مسترخية إلى المقعد. وصلنا هاملتون واتفقنا أن لا نذهب إلى المسرح بل نتوجه مباشرة إلى شقتها في دندس. شعرت بالجوع وببعض الحشرجة وكأنها أصابني برد. اقترحت أن نذهب إلى (تيم هورتنز) لتناول قدح من الشاي المغلي مع النعناع. لم تعترض. انحدرنا ودخلنا المقهى. أخذت قدح الشاي وجلسنا بمواجهة إحدى النوافذ.

كان الثلج ينزل بهدوء توراتي. ثلج يشبه ندف القطن المنجد حديثاً. شعرت براحة عميقة وأنا أرتشف الشاي الذي ينبثق من البخار. أخذت أنظر إلى وجه جودي الذي فارقني الآن حيث ذهبت إلى الحمام لتغيير لباسها، كانت تشعر أنها تبولت فيه..

قبل عام داهمتني أحلام غريبة. كان الله فيها يقف على خشبة مسرح هائل وهو يوجه لي اتهاما بأنني يهودي. بقيت فترة طويلة أعاني من رعب هذا الحلم. ثم أخذت فيما بعد أحلل العمليات المخية التي دفعت بهذه الرؤية إلى التكون.

*****

كانت هاملتون تعيش فوبيا لونية. مررنا ونحن في طريقنا إلى موقف الباص الذاهب إلى دندس، على مجموعة من الذين يتخذون الأرصفة مكاناً للنوم. تركتني جودي وأسرعت للتحدث مع أحدهم. عادت بسرعة وهي تحمل لفافة مارجوانا. أثناء المسير شعرت بانفجار روحي وأنا أتابع هبوط الثلج. كنت أبدأ بواحدة ثم أراقبها حتى ارتطامها بوجهي وأضحك.

وصلنا موقف الباص. جلسنا وأخذنا ندخن بشراهة. العالم كان يعيش خدراً لذيذاً. كنت أريد أن ألحس وجه جودي وحذائها ثم أدفن وجهي بين ثنايا إفرازاتها. أخذت أتخيل نوافذ العالم وهي تنفتح على كون بلا نهاية من الثلج. تنظر جودي في عيني وتلتمع الحلقات المعلقة في أذنيها وفمها. جاء الباص وصعدنا. أترنح وبصعوبة أستطيع الجلوس.

أتأمل الطريق والناس المتواجدين في الباص. أصل إلى نقطة التلاشي. النقطة التي كنت أصلها دائماً. في كثير من الأحيان أفكر في الكتب المقدسة. هل هي كتب الآلهة فعلاً؟ لماذا لا تحدثنا تلك الكتب عن الفايكنج والإنجلو سكسون والألمان والفرنسيين والهنود الحمر. لماذا هذا التعذيب

الوحشي للزمن والخرافة والعذاب والموت وقشعريرة الجلود وتقصف الشعر وصرير الأسنان.

كنت أبكي بقوة سماوية على مصير البشرية. عن الإنسانية المخادعة. عن العذاب الهستيري لمرضى الأمراض العقلية والمجانين والعوران والبرصان. كنت أقول في سري. أيها المعذبون هلموا أمنحكم الحياة. من يؤمن بها أتيت سيسعد ويزيد لديه السيرتونين والقناعة والحب والرجولة العارمة والفتوة المتفتحة. طواويس في الزمن الخرائي وتعبيرات تنقصها فرشاة رسام ضائع في طرقات العالم البحرية وموانئ الشر اللاهب ومعابد الآلهة الوثنية لروما. يا للسماء. كنت أشك في كل شيء. أشك في القدر والضياع والموت والبعث والحياة والزنى والقحاب والنوم على الأرصفة واستجداء صمونة وجرعة صغيرة من عرق بعشيقة.

إنها كذبة هائلة هذه الحياة. كذبة مدسوسة من الكهنة والرهبان في الأزمنة الخطأ والقلوب الخطأ والضياع الخطأ. كنت أسمع النمل والنحل والقطط والكلاب، كنت أسمع أصوات المجرات وهي تتمدد وأصوات الكواكب والنجوم بمحركاتها الجهنمية. أسمع الموسيقى المتخفية خلف حركة السحب وكان هذا السمع متقطعاً ومحصوراً في أيام لا أعرفها لكنها مؤكدة. كنت أسمع كل شيء حتى دبيب النمل والعاصفة والريح حينما تحدثني عن الحب والرحمة والقوة والتغطرس والجبروت.

جربت في أيام ماضية أن أستمع إلى النهر. كنت أجوب ضفاف دجلة مثل راهب ترك خلفه الدنيا فكنت أنزل إلى الضفاف المعرشة بأشجار الغار والابنوس والطرفة والقصب والبردي. لم يكن النهر بخيلاً ولا ضنيناً. كان يبوح لي عن رحلته الطويلة وعن قصص الأقوام التي عاشت على ضفافه و يدخلني في ذاكرته حيث أرى ملايين الصور عن الحياة و البؤس والحرمان والنساء والصبيان والمردة والجن وخرافات لم تزل مخزونة في ذاكرته.. أين أنت أيتها الآلهة البابلية؟ هكذا كنت أقول وأنا استمع إلى الموسيقى الكونية

المتوالدة من الزمن وكان الزمن ذاته، نغمات مجهولة لكنها مؤثرة وقوية وخافتة ومضمومة ومتخفية ومحتجبة ومتوارية. الزمن تلك الخرافة التي أبدعتها الآلهة أو الكائنات الأخرى المجهولة التي وضعتنا في مختبرها الكبير من أجل غاية مجهولة.

لكن الزمن يسيروملامحه في وجوهنا ونحن نكبر ونصير شباباً ورجالاً ثم شيوخاً. كنا مثل شجرة الاثل ومثل زنبق بحري حينما تجرفه العاصفة بعيداً عن أمكنة البكاء والدمع. وجوهنا التي تشيخ بلا رحمة وبلا مساءلة قانونية تذوي في معصرة الزمن الرديء، لكنني لا أحزن. لم أكن أعير شيب الرأس والصدر والعانة أهمية. الأهمية التي ترعبني هي شيخوخة النساء. الزمن المتوالد على وجوههن وهن يتحولن من طور إلى طور ومن مرحلة إلى أخرى فيما طائر الزمن يغرد شاهقاً في أبدية تبدو بلا نهاية أو بداية.

ما هو السر الغريب وراء هذه البكائيات الحزينة والمضحكة والمتأملة. إنها شيخوخة الآلهة. ما كنت أصدق أنها متوالية الخلق والولادة والموت. الموت الذي يرعبني دائماً كما أرعب الذين من قبلي. حتى الآلهة كان لها موتها الخاص، موتها الدموي وهي تصارع هذه الغائية المرعبة. ربما كان الدين قد تولد من هذا الشعور بالعجز، ربما تولد من الفقدان الأبدي لحنين الأب والأم ومتوالية الموت والتراب والرميم. ظلمة القبر المرعبة والمخيفة، الظلام، النور. العفن وتأكل الجسد وتحوله إلى أفاع وحشرات ودود.. إنه يرعبني. يشتتني. عندما لا أكون أنا ولا أنت ولا هو ولا هي ولا نحن ولا هم، تذوب النفس والوعي يضمحل مثل نقطة في جهاز تلفاز، نضيع في أبدية الكون وصوت خائف. صوت مكتوم. ابتلاءات ومحن وحروب بلا نهاية.

أشعر مع بقايا شميم المارجوانا التي اكتسحت جسدي. أني النبوءة الجديدة لدانيال النبي وعزرا الكاهن والعزير وبقايا المعابد الخرافية الجاثية

على ضفاف الفرات. في كثير من الأحيان كنت أتمنى أن تنتقل إلى جسدي كل أوجاع العالم. حين أسير في شارع الرشيد أو الحيدر خانة أو شارع النهر وأشاهد المرضى والمعوقين والجوعى والعاهرات والعميان والبرصان والمفلوجين وضحايا الحروب والثكالى والأموات، أتمنى لو تنتقل لي كل أمراضهم. في باص ينتقل بي من باب المعظم إلى الباب الشرقي.

صعدت فتاة وجلست أمامي. كانت جميلة، مذهلة، أسطورية، فاتقة للحم ومحطمة للقلوب، لكنها بذراع واحدة. تمنيت أن أقدم لها ذراعي. كل المرضى الذين أشاهدهم كنت أتمنى أن أكون أنا بدلاً عنهم. أنا أغنيات النهار والليل ودجلة والفرات. أسيح على ضفاف الفرات، أسير الهوينى وأنظر إلى السماء. أريد أن أفتدي شعبي المسكين الذي لا يستطيع أن يعيش مثل الآخرين. شعبي الذي طمعت به كل كلاب العالم. شعبي الذي ابتلي بالأعاجم من كل مكان. كنت أنهار في حمحمة الصيف، في درجات الحرارة القاسية للوطن لكن الجميلة والرائعة. أنهار إلى الأرض وأقدس محمد الذي حمانا من كل هذا الخراء وجعل لنا دينا ننتصر فيه وبه على المناويك والفرس والزرادشتيين و البراهمة والـ... أهبط إلى الأرض،أشعر أني المسيح الجديد. المسيح الذي يمسح شعبه في العراق ويطلب أن تنتقل كل آلامهم إليه من أجل أن يعيشوا حياتهم بسعادة.

هذا الفداء، هذه الرغبة المتولدة من العاصفة والمطر والغناء وأسوار بابل التي أكرّز فيها أدعو الناس إلى كتابي الجديد، كانت تستعر، لكن الناس لا تهمّ إلي. لا تقترب من أشيائي التي أريها للعابرين وأبناء السبيل. آه أيها الشعب الغارق في لذة الالم. آه أيتها الأرض المبعدة عن جنائن المتعة والراحة. لماذا لاتتبعوني؟ أنا الذي يكتب اليكم بيمينه كتبا جديدة. وكنتم تقولون. لانبي جديد، لكن كل شيء تغير في هذا الزمان. كنت أقول، هاانا احمل لكم رغبة السماء الجديدة. رغبة الألم وفتح فارس من جديد. تعالوا الي، هلموا أيها المساكين، أيها العرب الغارقون في وحول الخيانات والعهر واللامعنى. هلموا اسقيكم من بحار الورد والياسمين شرابا رائعاً

واسكنكم في قصور اللؤلؤ والمرجان والذهب. تعالوا الي لأن ناموسا جديدا قد اطل وانتم تهربون.

يستمر الباص في سيره وانطلاقه. لايتوقف في ألمحطات، أنه سريع وفوضوي.. أنظر إلى عين جودي. ياالهي. أحس أني أغرق في بحر شديد الزرقة ومتلاطم.أشعر بكآبة حادة وجنون فوضوي.

يتوقف الباص، تلكزني جودي و ننزل. شادو تهز ذيلها ونحن نقف في المصعد. للمرة الأولى شممت رائحة جودي الخارقة. رائحة يهودية خالصة. ابتسمت دون أن تتحدث وابتسمت أنا دون سبب. خرجنا من المصعد ثم سرنا في ممر طويل بعد ذلك توقفنا أمام شقة بباب ابيض. كنت أشعر أني أريد أن اتقيأ بفعل رائحة غريبة كانت تنتشر في الممر. مسكت بطني وفمي فيما كانت جودي تبحث عن المفتاح في حقيبة الظهر. شادو أخذت تضرب باب الشقة برآسها. أردت في تلك اللحظة أن اضرب شادو واركلها. فيما أفكر في هذا وفي القيء الذي قفز إلى راسي، رفعت شادو ساقها وتبولت على عتبة الباب المقابلة لشقة جودي. فتحت الباب وأنزلقنا إلى الداخل مثل افاع طويلة ورفيعة.

رائحة الشقة ملوثة برائحة شادو. علب البيرةالفارغة في كل مكان. رميت بنفسي على الأريكة الوحيدة والممزقة. دخلت جودي الحمام وانشغلت أنا بشادو التي أخذت تدفع بمؤخرتها إلى حذائي. نظرت بألم نحو الكلبة ثم دفعتها جانباً. عادت مرة أخرى وأخذت تتلوى أمامي. لم أفهم على نحو واضح لم كانت تقوم بهذه الحركات في غياب جودي التي أخذت أسمع صوتها وهي تغني. قالت بعد أن توقفت عن الغناء إن بإمكاني أن أشرب القهوة من الجهاز في المطبخ.

نهضت ولحقتني شادو وهي تتقافز أمامي ثم تجلس على مؤخرتها وتسجل نفسها سحلاً. لم أعرف كيف أتصرف مع هذه الكلبة. صببت قدح قهوة صغيرا وكنت أشعر أن دواراً يحيط بي من كل الجهات. تأخرت

جودي في الحمام، ربما كانت تتبرز أو شيء من هذا القبيل. أكره أن أرى امرأة تذهب أمامي إلى المرحاض. انحنيت والتقطت إحدى المجلات التي كانت مرمية على الأرض. جاءت شادو مرة أخرى وأخذت تدفع مؤخرتها إلى حذائي، رفستها بقوة ثم ضربتها بالمجلة، صدر صوت بفعل ارتطام المجلة على الأرض، صاحت جودي إن كان هناك شيء فقلت لها إني أوقعت هذه اللعنة على الأرض.

فتحت بوابة الحمام التي تخيلتها مثل بوابة قلعة حصينة. ثم سمعت خطو جودي وهي تشحط بنعالها في الممر. أطفأت سجارتي وتسللت بخفوتٍ. في الغرفة الوحيدة في الشقة وجدت جودي عارية تماماً وهي تضع مسحوقاً بنياً على وجنتيها. مئزر الحمام مرميّ على الأرض وعلى جدران الغرفة لوحة ورقية لرسام من متحف تورنتو للفنون.

جلست على طرف السرير وأخذت أتأمل جودي. أول ما لفت نظري هو شعر العانة الهائج. كلما أرى عضو المرأة المقدس، أصاب بعواء وهستيريا واضطراب حيث اتحول إلى حيوان شرس يريد التهام الضحية بأنيابه وتمزيقها.

ذهبت في الماضي إلى أحد أطباء النفس وبعد جلسات طويلة واستماع اكتفى بأن منحني بعض الأقراص وقال إن فيك بقايا حيوانية. في بعض الأحيان حينما أضاجع عاطفة في أحلامي، أحس بجوع غريب، جوع مشوه وغير طبيعي نحو قتلها، أن أنشب أظافري فيها وأمزقها. لم أكن أفكر في تلك الأحلام بأن أضع الميل في المكحلة. ما يدمرني حقاً هو هذا الجوع الشائه الذي يمنعني من إتمام المضاجعة وانشغالي بلحس الضحية وعضها في كل مكان. فيما أنظر إلى تكوينات جودي الجنسية، أقترب من ذكريات العري المخبول في طفولتي عندما تلصصت من نافذة الحمام، في ليلة شتائية وعاصفة تنزع ملابسها قطعة قطعة. رفعت الدشداشة أولاً وتفجر الجسد مثل ثور هائج. شاهدت النور يعم المكان وكأن ملاكاً هبط. أصبت بدوار

وترنحت ثم سقطت على الأرض. صوت الارتطام جعل عاطفة تفتح النافذة. كنت أشاهد رأسها لكنها لم تراني. مكثت بلا حركة ولا تنفس. كان ذاك يحطمني، بعدما أغلقت النافذة، بكيت وبدأت أخمش الحائط بأظافري، ثم أهرب إلى المتاهة..

تمددت جودي إزائي. حدقت مثل المخبول في غابتها والأوراق والحشائش والطيور والأسود والذئاب والجرذان والطواويس والأيائل. فمي يشهق وعيناي حمراوان واللعاب يسيل. كنت أريد أن أتشممه. أقتله، أحطمه، أنهبه وصوت العواء المخيف ينطلق من فمي. تتحرك هي ببطء وأشعر أني مصاب بالذئبية والسعار والهيجان. أنحني واللعاب يسيح وأنهمر عليه مثل مشوه ومخبول ومثل ذئب أصرخ بعنف وألم وأرفع وجهي إلى السماء صارخاً بكل ما أوتيت من قوة النجوم والسحر والأمراض والجراثيم والإفرازات والدم والخراء واللعاب والأمراض. كنت أسمع صوت الأنفاس وهو يرتفع ويحرك بطنها الصغير ارتفاعاً وهبوطاً وظمأ وإشراقاً ولهيباً ونحيباً.

فجأة، أطلق لصراخي العنان وأنهار إلى الأرض وأخمش بأصابعي البلاط وترتعب جودي وتنحشر في إحدى الزوايا والتحشرج والغصص تخنق صوتي، أقترب منها زاحفاً، على ركبتي، وسعار الالتهام يدمر أصابعي وأسناني وفيما أنا أعوي وأتوسل، راحيل وبطرس وذو الكفل وعزريا والخضر والحسين وحزيقال وعبد القادر الكيلاني ونصيف الناصري والحروب والمجاعات والإعدامات الجماعية وغاز السارين والجمرة الخبيثة وجبل ماوت وبحيرة الأسماك، تهرب جودي وألاحقها وترميني بالأحذية والمنافض والأوراق والسجاد والصحون. لكني أستمر بالعوي واللعاب يبلل وجهي والدم يقطر من عيني. وعندما حشرتها في زاوية المطبخ، فتحت باب الشقة فجأة وهجمت علي الشرطة ورجال الأمن ومدير العمارة وفرقة مطاردة الكلاب التائهة.

الفصل الثالث

صوت في البرية، يصدر من أماكن متتالية ومتتابعة ومتباعدة. صوت يشبه صوت عواء طويل وبنبرة متحشرجة ومخنوقة، يتسلل إلى أذني وأنا ممدد على النقالة المرتفعة عن الأرض. كانوا يدفعوني بقوة. بقوة متداخلة مع السكر والمريجوانا واللغة الإنكليزية والأسى واللوعة المخنوقة في داخلي. قالوا لي سنذهب إلى غرفة العمليات. سنضع الأسلاك على رأسك ونمرر تياراً ذهنياً من الكهرباء المصنوعة بمكائن خرافية. مشدوداً كنت إلى النقالة وعارياً إلا من ثوب مشقوق من الخلف ولباس أبيض.

كل عقلي كان هناك، بعيداً ومتجذراً في صور الماضي الافل والمتبخر. صورة عاطفة تهزني. ترعشني. الوحيدة التي تذكرت وجهها في هذا البحر المتلاشي والملح الاجاج وقناني العطر المسروق من اخبية الزمن المتسلق على رقبتي. صورة عاطفة كانت أشبه بسحلية ملتصقة بوجهي. لا السحلية تهرب ولا أعصابي تتحمل الهيستيريا. الصور كلها من الماضي. صور بيضاء وسوداء ورمادية.

على النقالة السائرة في ممرات المستشفى، كنت أشاهد آخر إخراج مشوش لزمني المتدافع بخفوت. رجال بملابس داخلية يتقافزون أمام القمر ووجه راحيل يبزغ فجأة من خلال غمامة شفيفة من الألم والبخار والموت. توسلت الرب أن يمنحني القوة والجرأة. بكيت في سري وأنا

أشاهد راحيل بصورة أناناسات وجوز هندي يتساقط من قمم النخيل الآسيوي المنثور في السواحل المدماة.

كنت أراقب راحيل وهي تهبط من سيارة المسكوفيج البيضاء ذات المقدمة القبيحة والمصنوعة من النيكل ثم تتجه إلى بوابة المنزل الداخلية. عيناها رائعتان وجسدها مصنوع من الكريمة. كانت تسير بتمهل وهي تحمل بعض الأغراض. ثم تقترب من البوابة الداخلية وتدور الأكرة بتمهل وتتوقف لحظة وكأنها تفكر بشيء ما. بعد لحظات تعاود الحركة السينمائية وتدلف إلى المنزل مثل ملاك طاهر ينزلق من السماوات السبعة ليدخل في أتون البيت العتيق- بيت الرب-.

كانت رائحة البخور تعبق وكنت أراقب دخولها الكبير فيما المنزل يتراقص وكأن أغنية كبيرة تتناقل عبر الأثير المزدوج للروح والشوق إلى الانفلات المضني للجسد. وضعت أغراضها بهدوء على طاولة صغيرة عند الباب الداخلي ثم نزعت سترتها الصوفية المثبت عليها صورة لينين. شعرها الأحمر الصارخ كانت تنعكس عليه آخر ومضات الشمس المائلة للمغيب.

من نافذة على الجانب كانت الأشعة الملونة للشمس تنداح بشكل مقاطع طولية على أرضية الغرفة ثم تتسلق حافة الحائط وتنزوي في ركن من أركان الصالة. هاهي بجبروتها المدهش والمعطر بروائح الغابات والصحارى والجبال، حبيبة اتنفسها مع الدخان المنطلق في البيت حيث جدتي تشعل البخور تقديساً للموتى ولروح أبي. الشمس تستطيل في الغرفة وهي تنظر عبر النافذة الطولية إلى الحديقة حيث الأشجار الصغيرة والاثل المموج بالريح والهواء. تتمدد على السرير دون أن تخلع ملابسها.

الرموز ألمحمدية تحيط بالمكان من جهاته الأربع وعلى الحيطان البيضاء التي بدت شاحبة للغاية. الأرضيات كانت هي الأخرى تنام في روعة الروائح والعطور المنبعثة من جسدها. شاهدت العناكب وهي تزحف في خطوط طولانية ومستعرضة وتنداح باتجاه الاثل والجسد الممدد على السرير.

قفزت وذهبت إلى الصالة حيث وضعت سترتها الصوفية الطويلة. رائحة العطر كانت نفاذة وهي تتسلق أنفي التي يتشممها بعشق متوحش. أمسكتها بين يدي واعتصرتها ودفنت رأسي عميقاً في تلابيب القماش الناعم والمخطط مثل ابنوسات ملائكية تقرأ تراتيلها النورانية عبر الأثير المموج.

زحف صوت جدتي من داخل المطبخ فرميت السترة واندلقت مثل ماء على الأشياء البوهيمية التابعة لها. عدت مرة أخرى إلى الباب الموارب. كانت تنزع قميصاً أبيض وينبرى الجسد المنمش الباهر مكثفاً في الضوء الخافت وملتمعاً من نور داخلي. انتبهت إلى وجودي العدمي فأومأت لي أن أدخل. ارتبكت. قدمت قدماً ثم ركضت سريعاً لأقفز إلى السرير وأقبل فمها وخدها المنمش حيث حبة بغداد حفرت عميقاً في خدها الثاني إهليلجاً كونياً يشبه القمر الفضي. غرقت في الشعر الأحمر الناري. العطر ورائحة الجسد المرير يغرقني إلى الأبد في أبدية موسقة. حلم مجهول يتراكض في البراري والغابات الشجرية والاثل وأشجار الطرفة النابتة على ضفاف البحيرات السحرية. قالت، لماذا وقفت تنتظر ولم تدخل؟

العين مقابل العين والرمش مقابل الرمش والحاجبان متلامسان وأرنبة الأنفين متلاصقة والفم يرتوي من رائحة الأحشاء الداخلية المخفية خلف عظام وعضلات ولحم خرافي. لم أعرف بماذا أجيبها. قرصت أذنيها الملونتان وأقتربت منها في نزوة متوحشة لالتهامها. أبعدتني بعجالة ثم أخذت تضحك ضحكات أسطورية تشبه الأخيلة الغارقة والخارجة من الأحلام. أية أحلام سفسطائية كانت تتنور في تلك الأنحاء العميقة من الذاكرة الشائهة والمنبعجة مثل كيس من النايلون يطير فوق مزابل الأرجاء. ذاكرة مرة ومتأججة تتولد من خلال الضباب الكثيف الخارج من الأسطورة التائهة ذاتها. أقترب من فمها. أمد عنقي نحو عنقها. تمسك رأسي في تهويمته المتلاشية وتنظر في عيني بتلك النظرات المتعطشة والمتأملة للجوع المتكتل في فمي.

عيني تنظر في عينيها بثبات وتطلب، روحي ترفرف مثل شيء بلا أجنحة ولكنه طائر في الهواء. أندفع أكثر محاولاً الوصول إلى رقبتها وتشمم ما خلف أذنيها فتضحك وتعتصرني بين يديها، كتلة من اللحم الطري المنضد على بوابة الذوبان الهستيري. تمنحني الفرصة لأصل عنقها السرمدي، العنق الأبنوسي المضمخ بعطر مجهول. أتحسس العرق الناضح على هيئة مسيل أبيض وهو ينحدر من ما تحت لحمة الأذن فأتشممه بصخب واشتهاء غريبين. تضحك راحيل بخفوت وتضمني إلى صدرها.

أشعر فجأة بنعاس غريب وفوضوي. الشمس تقترب من المغيب. تحملني إلى جانبها وتفسح لي مكاناً أوسع على السرير. لم يكن جسدها صغيراً. كان هائل الحجم والاتساع. جسد مضمخ بهيولية مترامية الأطراف، عصي عن القياس. أقعد أمام النافذة فيما جدتي تعد الطعام. أحلم بزوايا الكون الشاسع والحديقة الناحلة. الاثل المتمدد حتى الجدار وشجر الطرفة الذي يشرب من مياه الأنهار الخفية. أوكار الزنابير كانت تتشكل في زوايا الباحة الخارجية فيما الدوي الهائل لها يضيع في أحلامي. كنت أغني أغنيات بلهاء بحروف ناقصة. لكن اللحن كان يتسرب عميقاً وجذلاً. سماء من رعونة الأشياء ودفء يتورد في الصالة.

ألتصق بالنافذة. أحاول رسم- ببخار الزفير- أشكال بلا لون. ضباب شفيف وخدر بانتظار عودتك الهائلة يا راحيل. تلك العودة التي تقلب الآلهة وتحولها إلى طين لازب بلا حياة. أنتظرك مثل قديس فاتته فكان يركع أمام نعليك المقدسين. نار ربي تحرق الوخز الأخير لأبر ضائعة في أحلام السعاة واللحامين وهم يجولون الأنحاء ينادون على المشهد الأخير لانتظاري. أرسم من البخار المتكون والمنطلق من فمي، أحاجي ودوائر وأشجار وعثوق سومرية.

تسحبينني إلى السرير وتلتقي الأعين والأكف والأذرع وأمتص شغافك. كل قرابيني أضعها أمامك. أنت الربة المثلى لتوهجي الناري. تمسكين أصابعي فيما اشهق زفيرك وأذوب في كل ترنيمة تنطلق منك. أتشبث بالنافذة. تقول جدتي إن أوان عودتها لم يحن بعد. أنزل. لكنني لم

أستطع أن أحلم خارج مدارك الكوني. لم أستطع أن أنزع الجمرة المتلظية في داخلي وأنا أنتظر عودتك بفارغ الصبر والبكاء الدموي. تمطر السماء شهوة الاقتراب من جسدك، فتندفعين متلقية أضحيتي وتبتسمين. أشتهي عينك مثلما تشتهي القرنفلة وخزة الدبور التائه في الحقول الفلاة. عالم من ابتساماتك يحيطني من كل الجهات وآيات قرآنية ترتل في فم جدتي وهي تقرئني التعاويذ. تمطر السماء كلاباً وقططاً وسمانات وجرذاناً وأيائل ومحاراً ونجوم عشرية الأضلاع. لكن الرغبة في تقبيلك تبقى متجذرة تحت تاسوع اليوم الثالث لانبعاثي من الأموات. أموت في وهج عينك. أذوب مثل النحاس في بوتقة الحديد الزهري الكائن فوق مغارات الزمن التعس. حتى تغيب الشمس، أبقى في الانتظار ثم أهرب بعد ذلك إلى الأحلام، منزويا إلى النافذة ومعلقا مثل سعادين حياتي.

تجلس جدتي على الأريكة وهي تنظر لي مثل آلهة قديمة. لا تعرف جدتي كيف يمكن أن تمسح دموعي الآيلة إلى الانحطاط. دموعي الهمجية وهي تتقافز إلى كل الأرجاء. طفل سخيف للغاية وفوضوي تائه في أبعاد الكون. تنزلين من سيارة الموسكوفيج مرة أخرى ثم تنزلقين إلى داخل المنزل. لكني لن أفارق النافذة. حتى حينما تدعوني إلى الفراش والنوم في ليالي القمر الشائهة. كنت اتشبث بحالة البعد المكون في داخلي. تلك الهجرات الأيونية لشعوب نهلستية.

العدمية كانت واضحة على معالم وجهي. عدمية مفرطة بالعذاب والتشوه الخلقي وحتى مكوناتي الاندروجينية كانت تضمحل في ذلك الخواء الروحي. تمتد يدك العذراء لتقرصني وتجذبني. لم أكن أريد النزول. لكن يدك تجذبني إلى المتاهات الموغلة في الاضطراب والغابات المليئة بالأشواك. في النهاية أستسلم وأرتمي على عظامك. طفل منزوع الحنان، والضياع في رغباتي المقتولة بفعل غيابك اليومي.

في الغرفة كنت تضعين العطر ذاته الذي أحبه. كنت تضمخين وجهك وما خلف أذنك الشفافة. ثم تجلسين على السرير مثل أميرة ثلجية

تنتظر النزوع الأخير للشمس. في عاصفتك كنت توحين لي وأنت تعتصرين عظامي، بالغبطة والسؤدد والحمام الزاجل والورود المتفتحة في نهارات روحك. توحين لي بالموسيقى المتولدة من شهيقك وزفيرك الذي أسمعه يتصاعد ويهبط في دائرة مغلقة. توحين لي بجنائن الفردوس الغض حيث ترقص الملائكة على موسيقى يهودية وأرغونات كنسية. كل شيء يتحول إلى موسيقى متأنذرة ومتفاعلة وممزوجة ومضطربة. في اليوم التالي، ألتصق بالنافذة أيضاً. وتقول جدتي إنه يجب أن تنام الآن.. لم تكن جدتي تفهم لم أتشبث بهذا الشباك وكأنه شباك الكاظم (أبو الجوادين).. حينما تصلين في اليوم التالي وبعد انقضاء نوبتك في المستشفى. توقفين سيارتك الموسكوفيج حيث قلبي يرتعش وأحس بالغابات تفتح بواباتها المتشابكة والحدائق تزيح الرمال عن وردها الكمثرى. الأزهار تتضخم وتكبر وتتلوى. صوت من السماء يُقدم ويقول ها هو ذا الملاك قادم ليرضعك، من الروح القدس.

أهرب من النافذة وأهجم عليك،، مثل متوحش خارج من أروقة الحضارة. أقبل يدك ووجهك ورقبتك. أقبل عطرك الخاص- الكلامور- الذي يمنحني حياتي كلها. أنت الهباء وأنا العاصفة والمطر ينهمر في الخارج في تدويمات نائحة. ماذا يقول الرب أيتها الغرانيق؟ بماذا يفكر الإله الغارق في بحار من الشراشف البيضاء المترعة برائحة الصابون؟. تسحبينني من السماء بكلتا يديك. صخب وفوضى وهواجس. أنظر عميقاً في عينك، أمد نظري إلى الآفاق البعيدة. وحشة مخيفة هو البعد عنك. تسحبينني إلى الشاطئ مثل قارب أخرق أكلته المياه المالحة. أضم رأسي إلى جسدك وأغفو متناسياً كل الآلام وصراخ الغربان في حدائق الله.

بعدما تسحبينني من النافذة كنت ترمينني على السرير الملهم. سريرك الكتاني ذو الشراشف الملكية المطرزة بالسوسنات والأقحوانات العتيقة المتجذرة. ألهو قليلاً وأنت تنظرين إلى اللعبة الصغيرة. تعتصرينني وأشعر بعظامك تلتوي على جسدي، تحيطه وتتضخم الغدد الدرقية والصماء لروحي التائه في بحارك.

من أي شيء صنع الرب عينك ورائحتك الملغزة أيتها الحمامة النازلة. هو ذا الرب يقدس جسدك ولعابك وعرقك ورائحتك الحلوة. رائحتك المقدسة التي أشمها في معابد الآلهة السومرية والبابلية. في كنيس روحك كنت أوقد الشموع متوسلاً أن أغفو ولو للحظات على مسيل تنفسك الملهم والمحطم لكتلة الأشياء.

تسحبينني من النافذة مثل قرد صغير وأقفز بدوري متشبثاً بك مثل علقة صغيرة، مثل قملة ضئيلة محطماً كل قوانين الطرد المركزي وقوانين اللزوجة والميوعة واللوغارتمات. التصق بجسدك فيما دموعي تحطمني وترسلني إلى النهاية.

كنت تقولين لي بصوتك النعناع والكمثرى الناضجة. لم البكاء ها أنا أمامك. وكنت لا تعرفين معنى الغربة المدمرة التي كنت أعيشها دونك. متوحشا كنت أعيش وبعدك آكل الفطائس وما ترك الذئب على السفود. كنت النمرة وكنت الشبل التائه في غابات بكر لم تعرف الدماء..

ألتصق بك مثل ربة وثنية وأنا أبكي غرباتي الكثيرات وهي تطحنني بحجر صواني أسود متقن الصنعة. تأخذينني بعد أن أتشمم عطر رقبتك إلى الغرفة حيث تضعينني على السرير أشبه بلعبة كبيرة وكنت أذوب إلى الأبد في زحمة الروائح والعطور. أصلي لك أيتها الربة الخارجة من الأحلام، أصلي لك كما صلى عزرا ابن سرايا في الهيكل المقدس. أنام على حائط مبكاك. الحائط الذي ترتفعين فوقه على هيئة ملاك بملايين الأجنحة. الرعية لا يرونك والجلادون لا يرونك والفريسيون واللاويون لا يرونك. لكن عيني تلمحك، تراقبك. تتوسلك أنت الربة والآلهة والأمومة المبثوثة في الجوار، حقلاً فردوسياً.

أضغط رأسي إلى صدرك ثم أهرب في المتاهات الممطرة. أسمع موسيقى دمك وهي تجول في الأوردة والشرايين. أسمع قلبك الخافق والوسنان وهو يتكتك ويضرب مثل طفل. عظامك أشبه بسيقان الكروم

وبطنك جعة مسحورة. مثل ستائر سليمان كان جسدك وهو يضمني ويعتصرني إلى ما لا نهاية. كنت أشاهد الله فيك، كنت ألمح في عينيك عذابات بني الإنسان وهي تتمرد على الفرح المسود والمكلل بغار الوجع. في زهاء روحك المتكورة كانت إضمامتك لي أشبه بحقل الزيتون والنخيل الهائم على ضفاف الفرات. ها هو صوت حبيبتي، كنت أقول، يعلو في الكراج. ثم يدخلني إلى الحمام ليلة الخميس، في هياج كوني وتغدقين على مياه الغمر العميق..

*****

خرجت إلى العالم أول مرة في بدايات الشتاء حيث الأفق الأزرق والممتد إلى ما لا نهاية. كان ذلك أول مشهد سماوي أشاهده. في البداية أمسكت أكرة الباب الخارجي وأدرتها ثم انفتح الباب تحت خربشاتي وعبثي البدائي. كان الباب عبارة عن قطعة من الحديد المصبوغ بلون مضاد للصدأ، عاليا مثل أسوار مدن بعيدة عن الذاكرة. النهار لم يزل فجراً. نشوة ولذة عارمة اكتشفتها في تلك الأوقات وأنا أدفع أولى الخطوات إلى العالم الخارجي.

الرياح كانت تكنس الشوارع غير المعبدة والتي لم تزل طيناً ووحولاً.. من نهاية الشارع كانت تتقدم قطعان البقر والأغنام وهي تلهث ثم، سرعان ما تتلاحق خطواتها لتصل منزلنا وهي تثير البعوض والروائح القاتلة. في تلك اللحظات شعرت أن العالم يمتد إلى ما لا نهاية. عندما عادت راحيل من العمل، حكيت لها بتأتأة الطفولة، أساطير العوالم الغريبة التي اكتشفتها في أول خروج علني إلى العالم. كانت راحيل تنصت باهتمام شديد لكنها لم تكن تنظر في عيني الغائرة إلى الأبد في تجاويف جسدها. شكّل خروجي إلى العالم صدمة لها. انتفضت وذهبت إلى جدتي وكنت أسمع رجيع الكلام.

في اليوم التالي تركت النافذة وانحدرت خارجاً فيما جدتي تغسل الملابس في الباحة الخارجية. أمام البوابة كانت راعية الأبقار تنظر إلى قطيعها وهو يلتهم نفايات البيوت نصف المبنية. بيوت من الطابوق المصفر والجص والرمال التي تشبه شعر راحيل. بحذر شديد نظرت إلى راعية الأغنام. كنت متوتراً. جلست ملتصقاً إلى حائط منزلنا.. حدقت الراعية في وجهي الأبيض المشرب بحمرة. وبقيت أنظر إلى الأبقار بما يشبه الدهشة والانفعال. اقتربت مني الراعية بسير وخطوات بطيئة لكنها ثابتة. لم أحرك ساكناً وأنا أنظر في عينيها اللوزيتين. في البدء شعرت بالخوف، لكن الراعية ابتسمت وطلبت مني ما هو متوفر في المنزل من الخبز اليابس.

صرخت بصوت جهوري وجاءت جدتي هلعة. كررت الراعية طلبها، بعد دقائق جاءتها جدتي بكمية محترمة من بقايا الخبز. قالت:

- أنتم هنا من أمد قصير، لم أشاهدكم من قبل.

- صحيح.

قلت وأنا أضع كفي فوق عيني محاولاً منع أشعة الشمس.

- أنتم طيبون، قالت.

- أنت كذلك، قلت.

- سوف يعطيكم الله بركته جزاء مافعلتم معي.

شعرت بانبهار خفي من كلمة الله. حولت مكاني وأخذت أنظر في وجه الراعية بألق أكبر وحميمية أوسع.

- الله، قلت، من هو.

قالت باستغراب.

- ألا تعرف الله.

ضحكت بقوة واستطعت أن أشاهد أسنانها الصفراء.

- هل تعرفين أني شاهدت الله، قلت.
- اقتربت مني بسرعة وقالت باستنكار،
- أنت.
- نعم أنا.

بصلابة أكثر أجبت.

- أنت تكذب.
- لا أكذب.

قلت بتصميم أكثر.

- كيف

وجلست قربي.

- كلما أحاول النوم أشاهده وهو يقف أمامي.
- لا أحد يستطيع مشاهدة الله، قالت، إنه هناك في السماء، خلف سبع سماوات يجلس على العرش الذي تحمله ملائكة، كل ملاك بكبر الدنيا.

نهضت واسرعت نحو إحدى الأبقار ثم غابت وسط القطيع. دخلت المنزل وإحساس بالاندهاش كان يسيطر على عقلي. لم أتحدث إلى جدتي التي نادتني لتناول الطعام وهرعت متسلقاً الأريكة ومستقراً إلى النافذة. لم أحاول حينما جاءت جدتي وجلست على الأريكة تتأملني في مغيب الشمس الباهت، أن أجري حواراً معها. كنت أنتظر راحيل لتفسر لي.

- قالت جدتي إن راحيل لن تأتي هذه الليلة، إنها مناوبة، أنزل لننام.

لم أجب وقررت أن أنام ملاصقاً النافذة. جلبت وسادة وبطانية والتحفت مسترخياً وهائماً بتتابع الحوار في داخلي. اضطرت جدتي أن تنام وأمام إصراري على الأريكة. وبعد دقائق كنت أسمع شخيرها يتناثر مثل

بخار في أرجاء المنزل. حلمت في تلك الليلة أحلاماً متعددة وبمستويات مختلفة لم أفهم منها إلا أشياء متراخية. في البدء كان هناك جبل مرتفع أقف على حافته الهائلة ناظراً إلى الوادي، ثم اسقط إلى الدرك الاسفل دون أن اصل إلى القعر. بعد هذا الحلم شاهدت مجموعة من المخلوقات بعيون موحدة وأصابع طويلة وكأنها تريد أن تختطفني، حينها كان يظهر رجل يحمل بين يديه الشمس الايلة إلى المغيب.، لم يكن لهذا الرجل رأس ويقف خلف غلالة مضببة أو عاصفة ترابية. يقترب الرجل مني باجنحته الهائلة ويحملني إلى حافة الجبل ومرة أخرى اسقط إلى الهاوية ويتكرر المشهد مئات المرات دون أن تبدو هناك نهاية. تكررت هذه الكوابيس كثيراً وكنت استيقظ منها في كل مرة منهكا. كانت جدتي تسألني أن أسرد لها الحلم وفي كل مرة كانت تبكي وتضمني أما راحيل فكانت تنظر في وجهي فيما فيض طافح من المواساة يتخفى وراء عينها.

في اليوم التالي أخرج إلى الشارع الموحل أيضاً. أنتظر راعية الأبقار في هوس وترقب. عيني تكون مشدودة إلى نهاية الشارع. فكرة الله شيء جنوني أريد أن اسألها عنه ولا أعرف لِمَ لمْ أسأل راحيل أو أن أتحدث مع جدتي بخصوصها.

هناك شيء خفي أخذ يربطني براعية الأبقار، كنت أتصورها تطير مثل ساحرة فوق قطيعها الملوث بالبراز والقراد وفضلات الحيوانات. الانتظار كان مشكلة كبيرة في ظل تحرق أعصابي لرواية أحلامي إلى راعية الأبقار. لم تظهرالراعية في ذلك الصباح. كانت بدلاً عنها، مجموعة من الأولاد يلعبون. وقفت إزاءهم دون أن أتحدث.

في البدء تجنبوا الاقتراب مني لكن بعد دقائق كان لعبنا متواصلاً. صنعت لهم من الرمل أجساداً سماوية من تلك التي أشاهدها في الأحلام. خططت على الرمل مغاور وطرقاً وثعابين ترمي بفحيحها أناسا مصنوعين على هيئة عصافير. ثم رسمت على الأرض أشكالاً بدائية عن مغاور

وطرقات سرية لإيصال المعونة والسلاح إلى فئران حبيسة في سجون مخفية خلف أسوار من الرمل المصفح بالحصى.

كان الانبهار بما أصنع كبيراً إلا أن أحد الأولاد اتخذ مني موقفاً عدائياً وفي اللحظة التي أردت فيها أن أروي لهم حكايات الأحلام، انفجر بوجهي متوعداً ثم وجه لي لكمة نزفت على أثرها دماً مترعاً. هرعت جدتي وحملتني بين يديها وأدخلتني إلى المنزل بعد أن توعدت الطفل الكبير بالشكوى إلى أهله.

كان الدم يتفجر في زوايا وجهي دون أن أستطيع أن أوقفه ومع الماء البارد والشاش توقف النزف وغدوت أكثر شحوباً من أي وقت مضى. محضتني المدفأة في وسط الصالة ومع البطانيات دفئاً لذيذاً وهائلاً. كنت أسمع جدتي وهي تدوي بتوجيهاتها لي وضرورة عدم اللعب مع الأطفال الآخرين لأنهم من طينة سيئة. طينة قذرة خارجين من رحم أفاعي مسمومة وساحرات.

لم أهتم لما تقول ومع الدفء العارم وبمجرد التحسن الطفيف الذي شعرت به، قفزت مرة أخرى إلى النافذة حيث العالم أكثر ثباتاً وحيث الشمس تلوح على قمم اليوكالبتوس ثم تتراقص في ترنيمات متناغمة. لم أشعر بعدوانية العالم وهمجيته إلا في الصباح التالي وأنا أحس أنه كان من الأجدر بي أن أحطم ذلك الفتى إلى الأبد. فكرت في أشياء عديدة وملهمة من مثل إحراق بيتهم. أو أن أمتلك سحراً هائلاً وطائر رخ كبير يحط على منزلهم ويلتهمهم فرداً فرداً أو كلهم دفعة واحدة ضمناً الأب والأم القذرة التي كانت تنداح في الشوارع تبيع الخبز.

قالت جدتي في ذلك الصباح، إنها سوف لن تشتري الخبز منهم طالما ضربك ابنهم. وفي يوم آخر جاءت الأم وهي تتوسل جدتي أن تشتري خبزها. كانت بائسة بشكل مروع. شعرها معقوف إلى الخلف ودشداشتها سوداء ملوثة بلطخات العجين. كانت تبكي بحرقة وهي تجر ابنها من أذنه

وتركعه أمام جدتي. لم يكن- الكلب- يركع وكانت أمه تدفعه بيدها الأخرى مرغمة إياه على الركوع. فجأة سمعت صرخة كبيرة وهائلة تنطلق من فمه ثم هرب. صفقت جدتي الباب. لكن صوت الأم بقي يتوسل وهو يدعو جدتي إلى فتح الباب. فتحت جدتي الباب مرة ثانية ودار حديث كنت أسمع منه نتفا شاردة. لثمت الخبازة كف جدتي. ثم غابت الأصوات المفجوعة.

في يوم بعد هذا الحادث. وقفت إزاء الشارع الهائل والملتوي مثل أفعى. كانت السماء تمتد إلى ما لا نهاية مخيفة. الأولاد كانوا يلعبون وابن الخبازة معهم وهو ينظر بين الفينة والأخرى إلى وجهي وجسدي النظيف الخارج من غلالة بيضاء. كنت أشعر أن جدتي قد انتصرت لي في النهاية وأني استطعت تمريغ أنفه بالخراء. اقتربت من الأولاد فهرب ابن الخبازة بعيداً. كان ينظر لي وهو يبتعد بتلك النظرات المشفوعة بالرعب والانسحاق أمام قوتي المدمرة والطاغية. لم أستطع أن ألعب مع الأولاد. ثمة شيء تحطم وليس هناك من سبيل إلى إعادته.

أصبح انتظار راعية البقر يشبه حلماً متداخلاً. في يوم آخر ظهرت راعية الأبقار ولمحتها من النافذة تقترب من بوابة المنزل، هرعت لأفتح الباب من أجل أن أمنحها بقايا الخبز المتيبس. كانت تبتسم و سحر خفي يلوح في عينيها المشرقتين. جلست بعد أن أخذت الخبز بالقرب من الباب، في صمت موحي. كنت أشعر أنها تريد أن تحدثني عن أشياء عديدة وكان هذا واضحاً في عينيها التي أخذت ألاحظ أنها أشد انبهاراً من المرة السابقة. قالت:

- هل تريد أن تأتي معي؟..

- إلى اين، قلت.

- سوف اريك المزارع والقنافذ والسماء والحقول المليئة بالسنابل والشوفان. هناك سوف تستطيع أن تلعب إلى ما لا نهاية، حتى المساء وحتى الليل.

سحرتني الفكرة المذهلة والبراقة التي التمعت بانبهار أخاذ في ذهني المرتبك والفوضوي. استأذنت جدتي التي تحدثت مع راعية البقر ثم حملتني كيساً فيه بعض الأطعمة. وضعتني الراعية على حمارها وسارت أمامي بقامتها الطويلة وشعرها الذي تفوح منه رائحة الحيوانات. انتهينا من الشارع ومن آخر البيوت التي لم يكتمل بناؤها فيما أصحابها يعيشون داخلها. سرنا بعض الوقت وأصبح الشارع بعيداً والبيوت غير مرئية. وصلنا إلى حقل واسع مملوء بعرانيص الذرة الخضراء وفي المساحة المجاورة يمتد حقل آخر للشوفان والبريسم.

كل شيء كان صامتاً. نزلت من على ظهر الحمار. سرت بضع خطوات مسحورة باتجاه الحقول. كان الهواء مذهلاً ومنعشاً وأحسست بأن حياة جديدة تتكون. كانت هي، تقف إلى الخلف وكأنها تراقب خطواتي. ركضت بخطى متباعدة، بخطوات كانت تطول وتتمدد، مثل عصافير لا أعرف اسماءها تقتحم تيارات الهواء المشتت في الريح والرياح في العاصفة والعاصفة في حشائش الحقل المتموج. أخذت أركض في الحقل. لم أسمع صوتها وهي تناديني، كنت انفلت بلا جذور في اللامكان.

حينما أصبحت نائياً، نقطة بلا حدود ذائبة، توقفت وارتميت على العشب. أخذت سيقان الشوفان تكبر وأنا أتأمل طولها السماوي، ارتفاعها الشاهق وهي تتمايل بفعل الرياح ذات اليمين والشمال. أغنية تائهة مثلي في زمن ليس فيه دقائق ولا ساعات. أتشمم الأرض بعطرها المخدر. رائحة التربة الخارجة من رئة الأرض المتنفسة في اغفاءات مجلجلة. أصغي إلى الموسيقى المنبعثة من التراسل بين سيقان الشوفان والعرانيص الملتوية والمنحنية باتجاه الريح. موسيقى متباعدة ومضغوطة في مسميات مجهولة. ليس للأحلام سلطة هنا، فقط التناغم وآلات وترية تمحو العاصفة وتجلب السحب الناكثة على الأرض، رذاذاً من الماء الخرافي.

أحسست بروحي تطفو فوق رؤوس العرانيص الخضراء. روح

خفيفة بلا تشابك لمسمياتها. أخذت أحدق في التراب، أتموسق مع صوت الجنادب والهدير المنبعث من الأرض. رفعت وجهي فإذا بكائنات بيضاء تمد اذرعها. ارتعبت وأخذ فكي يرتجف وعرقي يتصبب. كنت أسمع الراعية وهي تنادي باسمي لكنها لم تكن تراني. طوق من العزلة كان يحيطني وضوء بلوري مشع يلف المكان. لم أستطع تبين الوجوه في الضباب لكن الأصابع كانت تعبث في. أقتربت الراعية ومن بين العرق المتفصد تشممت أنفاسها ووجهها. لم أكن أستطيع الحركة، ثمة دهشة ترين على جسدي المسجى.

رفعت رأسي عن الأرض. تأملت العالم المضطرب على إيقاع موسيقى غير مسموعة.

- مابك، هل أنت بخير.

كانت تقول لاهثة. لم أجد جواباً. أشرت إلى الغيوم. وضعت ذراعها تحت رقبتي وضغط رأسي صدرها. استطعت في استفاقة مفاجئة أن أتحسس الحلمات النابتة مثل شوكة. دفعتني إلى الوراء بحركة مرتعشة دون أن تتكلم. عاد رأسي يستقر على التراب. مرت دقائق وكأن شيئاً مدوياً قد حصل. ملمس الحلمات الدافق كون في ذهني ارتباطاً غريباً بها. مدت كفها مرة أخرى وأنهضتني. كان العرق قد تيبس على صدغي لكن أثر الارتعاش لم يزل يهز ساقي.

وقفت بجانب الحمار وأخرجت هي قنينة ماء وغسلت وجهي. لم أتكلم حيث كان التلفظ صعباً. صورة الأذرع الممتدة لم تزل تدخلني في متاهات متوالية وسورات عميقة الأثر اختلطت بوخزات الحلمات الحديدية التي تلمستها بأصابعي في غفلة الزمن. رفعتني ووضعتني على الحمار ثم سرنا ببطء..

- لم فعلت هذا؟

قالت دون أن تنظر في عيني. لم أفهم سؤالها، إذ كنت لم أزل أشعر بالدوار.

- لم تقل لي لماذا فعلت هذا؟
- ماالذي فعلته، قلت باستغراب.
- لماذا مسست صدري، ألا تعلم أن الله سيعاقبك.
- ولماذا يعاقبني، قلت باستهجان.
- أنت لم تزل صغيراً بعد.
- لكني كبير، قلت بسرعة.
- لا أنت لم تزل صغيراً وحينما تكبر وتتزوج تستطيع أن تفعل هذا الشيء.

سرنا بتمهل. أخذت أنظر إلى نهدها وهو يدفع الدشداشة إلى الخارج. كانا يرتجف بتمهل صعوداً وهبوطاً، نزولاً وارتقاءاً مثل عرجون. قلت لها إنني ارتجف. أنزلتني عن الحمار وطلبت مني أن أتبول. ترددت في البداية، كنت أنظر إلى طولها المهيب الذي يشبه سارية راية خفاقة في سماء بلا حدود. أنزلت بنطلوني وصرت أرسم دوائر لولبية على التراب. كانت تنظر إلى عضوي وهو يرش البول. بول أصفر فاقع.

كنت اختلس النظر إليها فيما بولي يغرق المكان والحفر الصغيرة ومساكن النمل المختفي في عمق الأرض.

- هل انتهيت، قالت بنفاد صبر.
- ليس بعد، اجبت.

تقدمت نحوي و أمسكت بنطلوني والتصق هو بقفا يديها. شعرت بشيء مدوي يعصف بي. كان منتصباً إلى الحافات العليا للفكر وهو ينوء خارج المكان المخصص له. التصقت بصدرها وانحشرت بين فخذيها.

كانت رائحة الروث والمطال تفوح منها، لكني فقدت الإحساس بالرائحة واللون والطعم.. قلت لها:

- أنت دافئة.

ابتسمت.

- لست دافئة، بل ساخنة.

ازدادت ابتسامتها.

- لماذا أنت ساخنة هكذا.

نظرت في وجهي وندت عنها كلمات لم أفهمها.

- هل أستطيع أن أبقى هكذا.

إجابة بالنفي. كان جلدها ينكمش من البرد لكنه بقي ساخناً وملتهباً وملتاعاً. انحشرت أكثر بين الفخذين، صرت اتشمم البخار الخارج من فمها والزفير النازف من أنفها. تحسست الكتلتين المنبهرتين والمرعبتين في صدرها. اعترضت وسحبت نفسها. زال الدفء فجأة وكأنها رمتني إلى عالم مخيف دفعة واحدة.

زررت بنطالي وشعرت بتحسن طفيف. قلت إن عليها أن تشد رباط حذائي، انحنت ومن خلال شق دشداشتها بدا النهدين عارمين. استغرق شد الرباط زمناً غير معروف كنت أضيع فيه بين التلاوين المختلفة للحلمتين الداكنتين. أردت أن أمد أصابعي بعيداً وأدفعها بين التلتين. ترددت وأحسست برعب قاتل يمسك أصابعي.

نهضت وقالت:

- كل شيء تمام.

سرنا ببطء على الأرض الطينية. رذاذ خفيف يصدم أرنبة أنفي. قالت:

- يجب أن نسرع، سوف تمطر قريباً.

ذاكرتي مضطربة ومشوشة. لم أكن أريد الوصول إلى البيت. قلت لها، هل بالإمكان أن أذهب معها إلى بيتهم. توقفت.

- لا، قالت.

حالة من اليأس شعرت بها في تلك اللحظة.

- أريد أن اتزوجك، قلت.

ضحكت ثم ندت عنها آه ضعيفة.

- أنت لم تزل صغيراً.

- لكني أريد فعلاً أن أتزوجك، قلت.

لم تجب، سرنا بهدوء.

- أنا أحب شخصاً آخر.

- ما اسمه، قلت.

- حمادة، قالت.

صعد الدم إلى وجهي وتوقفت.

- لكني أحبك.

بدأت تشرح لي لماذا هي تحب شخصاً آخر. ثم التفتت لتقول لي بشكل مفاجئ.

- يجب أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا. هل تقسم.

- أقسم، أجبت بسرعة ودون انتظار. أحلف بالعباس أبو رأس الحار.

بالعباس أبو رأس الحار، أقسمت. بدت أكثر راحة واطمئناناً. شرعت تحدثني عن الشخص الاخر وعن غزوات وهمية لحبيبها إلى مكان خارج الوعي، قرب بيتهم الطيني الموجود في مكان ما في هذا العالم. تذكر

نهديها بين الاستماع إلى حديثها كان يسفع وجهي إلى الأبد فأغدو مأخوذاً بسحر ما. وصلنا المنزل وذكرتني بالقسم.

- سوف أحفظ أسرارك إلى الأبد قلت بيأس.

دخلت البيت وانزويت إلى النافذة. السماء تبكي آخر اللوعات والأشرعة الغارقة في لجة البحار. لم تسألني جدتي بعد عودتي من البرية عن أي شيء. كانت ملابسي معفرة بتراب الأرض الرطب وملوثة بالإنسانية المنكوبة فوق عالم من الأثداء المتراقصة بفعل شحنة كهربائية.

*****

فجر بارد ملوث بأعصاب منهكة. تفتيش في البيوت. راحيل قلقة تحرق كتبا في تنور المنزل مع صور عبد الكريم قاسم ولينين وستالين. وجهها أصفر. بق يدور محاولاً التهاس الدم الناضح على أجساد عارية. طنين في أذني وأنا أستمع إلى آخر أنباء العالم الكوكبي النافر. العالم تبدل مرات متعددة فجأة وشبح خوف يجول في المنزل. كنت أقرأ ملامحك يا راحيل وأنت تشربين الشاي المر والأسود وتقضمين الكعك ثم تغمسيه في وهن الشاي. لا كلام في المنزل، حتى جدتي كانت تقاوم إغراء الكلام بنفس طويل وآهات منطلقة بلا هدف. كل ليلة كانت راحيل تتأكد من إغلاق النوافذ بإحكام وتجلس تشاهد التلفاز بحرقة ورعب. عيناها ذابلتان. وجهها مشغول ومتقصف مع نشرات الأخبار.

أقترب منها بتؤدة. بهطول مطري وأتساءل عن الشيء الغريب الذي اخترق حياتنا فجأة. قالت إنه الانقلاب. لم أفهم على نحو واضح ما تقول لكن العام 1963 كان عاماً يكتسب طقوساً غريبة. شيء ما تغير فجأة وعاصفة من الأرق والتبول اللاإرادي الذي صاحبني وكتلة من الأحلام الغريبة. أخذت راحيل تلح أن أترك الجلوس إلى النافذة.

- لماذا، كنت استفسر بعصبية.
- قالت، يجب عليك أن لا تكرر الجلوس إلى النافذة خشية من رصاصة طائشة.

ودون أن أستطيع التمادي في الأسئلة، تضع كفها الرقيق والمعذب على شفتي وكأن العالم قد انتهى فجأة مثلما بدأ. في الليالي الباردة لشباط كنا نسمع دوي الطلقات المرعبة وهي تمزق غلالة الليل.سكون هش وعند كل صوت نافر ومستفز كنا ننحشر في مطبخ البيت الواقع في الجهة الخلفية للمنزل.

في الليالي المرة والملوثة باضطراب الهواجس كانت حتى الذئاب تضيف على الرعب المتقلص فضائحية أخرى من الانزواء. لا صوت كان يقطع الاسترسال المدوي للذئاب وهي تنهش في لحم شائه أو جثة متورمة طافية في مياه البرك الآسنة.

مضى أكثر من شهر دون أن أستطيع الخروج من المنزل. حتى جدتي كانت لا تجرؤ على الخروج إلى العالم وزيارة الجيران المتيبسين في عالم من الهشاشة والطلقات الفائرة. راحيل كانت تذرع غرف المنزل بعد أن تأتي من عملها في المستشفى. تتحدث في الصمت المتحلق حول المدفأة عن عالم ذئبي يعربد في الخارج. جثث غير معروفة تنقل إلى المستشفى ثم تدفن دون اسماء أو مستمسكات في أية بقعة خالية من الأرض. كانت تتحدث عن التأين المزدوج في عملهم. الإصابات الهستيرية والعباءات الممزقة بفعل العواصف والاغتيالات القادمة من محيط الأرض الشيطاني نحو أرض سوداء بلا أمل.

لم أستطع أن أعرف على وجه التحديد كم بقينا على هذا الحال. اشتقت كثيراً إلى عالم الخارج حيث العبث. أخذت أتسلل مرة أخرى إلى النافذة غارقاً في هلوسات حلمية. في فترة البيات الشباطي العائم على التقولات والاستفهام والموت المنتشر في الشوارع. كنت أحلم بأحلامي

وهي تتدفق متدافعة مثل الزبد البحري. لم أعد أحلم بتبدلات الفصول. حتى اليوكالبتوس في حديقتنا كان يتجمد في انجهاد الأشياء العائمة والمطر الغزيز الذي غرقنا فيه وأخذ يتسلل من النوافذ إلى داخل المنزل. أخذت جدتي كمية كبيرة من الخرق وأخذت تسد الثقوب والفتحات. لم تكن راحيل قد عادت من المستشفى بعد. جدتي قالت إن الليلة نوبتها.

أطفأت الفانوس لأن الكهرباء قطعت بفعل المطر ثم انحدرت إلى الفراش الممدود في الصالة. كنت لا أريد مغادرة النافذة فافترشت هي الحشية على الأرض لتبقى قريبة مني. لم أستطع ليلتها أن أنام. كنت أكره الظلمة إلى حد اللعنة حيث يتبدل العالم ويغدو عبارة عن ظلال رمادية ووحوش تفترس الأرانب وزرافات بأعناق مدقوقة وصراصير تعبث في الأرجاء والزوايا. حتى الفئران كانت تسرح في العالم الرمادي الداكن والخالي من الضوء.

أنظر إلى جدتي التي تعيش وحشتها الأسطورية بعد وفاة أبي. أمد كفي، أتلمس الجروح التي تظهر على جسدي، وفيما أنا غارق في متاهات الأسفار والأحلام المتيقظة أسمع هسيساً فارتعب، الصوت كان غريباً ويكتسي مسحة غير مألوفة.رفعت رأسي بهدوء ولمحت شخصاً يتسلق حائطنا ثم يقفز إلى الحديقة الداخلية. اليوكالبتوس يهتز وثمة عاصفة من الأشياء كانت تهب لتمنح الوجه المتسلل غمامة وقناعا من الخوف.

ارتعشت أصابعي ثم جسمي وقفزت إلى جدتي التي نهضت هلعة. تسلقت جدتي الأريكة ونظرت إلى الخارج وفي لحظات ارتقت السلم صعوداً إلى السطح. كنت أتعلق بها مخبولاً. اضطراب كبير وفم جدتي يزبد ويهدر. وصلنا السطح ومن هناك رفعت حجراً ورمته باتجاه اللص الذي خر على الأرض بسرعة. نزلنا السلالم وتعثرت أنا بثوبها فحملتني بيديها المتعرقة.

صوت الأنين كان يأتي من الخارج، تحديداً من الحديقة الزمردية

لبيتنا. فتحت جدتي بوابة المنزل الداخلية ثم صرخت بحدة وهي تستعد للانقضاض.

- هذا أنت ياحمادة؟!!

الفصل الرابع

جارتنا زوجة (عباس أبو العرك) تجلس القرفصاء في بيتنا، أسفل الدرج وهي تنوح. أنا أقف أعلى السلم أنظر اليها فيما الدموع تؤطر وجنتها. دخلت مجموعة من النسوة متشحات بالسواد وهن يخمشن خدودهن. واحدة مزقت دشداشتها بصيحة مدوية ثم أدخلت راعية البقر إلى غرفة جانبية. شعرت بإلفة غريبة مع الراعية.

أثناء دخولها الغرفة انفلت أحد نعليها لكنها لم تعد لاسترجاعه. حاولت أن أفلت من يد جدتي وأفتح الباب لكن صرخات النسوة أرعبتني فتراجعت إلى الوراء مهزوماً. ما الذي يدور؟ لم أكن أفهم. كلهن كن يفتحن أفواههن برغم رعشة البرد والدخان المتلاطم مثل بحيرة فوق الرؤوس المسودة. بيادق من الشطرنج وأفيال جموحة وركب متساوية زحفاً وعلى الأصابع.

يا للهول. الأرض والاثل واليوكالبتوس وحشائش البرسيم والعرانيص حيث وجهك يغدو أكبر من قرص ملتهب لشمس داعرة، يندحر أمام الصراخ والعويل. أم راعية الأبقار المشوهة والنحيلة بعمامتها الهائلة تضع خدها على كفها وتولول والأخريات يشعلن لها سجائر المزبن. تكبر هالة السواد وينبثق الليل بملامسه الدقيقة. ليل زاحف من الرعشة والتنهيدات والوخزات والمشاعل والفوانيس والمياه الراكدة على وجه

الأرض. أصابعي المسودة بطين الأرض تبث لواعجها على مسارات الأنهار والشطآن المتلجلجة..

آفول مضطرب، مرتعش. متجذر عميقاً في الافق وكأنه جيش في طريقه إلى الهزيمة. حاولت أن أسأل جدتي لكنها كانت مشغولة بتوزيع السجائر (المزبن) على النسوة. قفزت إلى الصالة ومن هناك إلى النافذة. كانت بوابة المنزل مفتوحة وفي الخارج يقف رجال يدخنون كل على انفراد. كل عيون النساء كانت تتجه إلى الغرفة، أصابع الرجال كانت تتصلب وتتماسك وتلتصق فيما البعض منهم كان لا يستطيع الجلوس فكان نهباً للقلق والارتباك والفوضى. بين فينة وأخرى يرفع أحد الرجال يده بكل مقدار التوتر السماوي وينظر إلى ساعته ثم يفركها بيده و ينظر إلى المنزل والبوابة التي تشبه بوابات المعابد السومرية، لكن ايبانا غائبة عن الوعي في الغرفة المجهزة بملاقط معدنية موضوعة في سائل معقم. تهبط راحيل من عرينها المدلج، العرين الملائكي وهي تخطو بصمت مجهول وبلا صوت زاحفة إلى الغرفة حيث ايبانا المخبولة ممدة على سرير بشراشف صينية ومخدات ملونة.

عاهرات المعبد لم يزلن يدخن بشراهة الطيور الوحشية الخارجة من بئر التاريخ الدموي للأشياء وهن يحدقن في هبوط راحيل المتأني والمهموم. الظلمة مهيمنة إلى الأبد. عمامات و(عصابات) عاهرات المعبد السوداء والرمادية تتداخل مع أفواههن حيث البخار الصاعد ملتوياً مع السجائر.

وميض من برق عين راحيل يبدد الظلمة وهي تمسك بشمعة البرافين وتضعها على الخوان. مذهلة كانت في كياستها وبرودها الطبي فيما العاهرات يولولن وأم ايبانا تسفح الظلمة بشهوة الخبر النحس والخبر الملهم والخبر الصارخ في عيون الأخريات. اختفيت إلى جانب الخوان ومددت رأسي في غفلة مخيفة لأرى ايبانا. على السرير المغطى بشراشف اللاشي ترقد ايبانا في هبوط عارم للدورة الدموية. عوامل الكيمياء

الفيزيائية تصرعها مثل ثور مجنح يريد الهروب. كل الأسئلة مقتولة والكائن الخرافي يرقد متناغماً مع ضوء الفوانيس والشموع وآخر دفقات المطر النازل من السماء. لا رحمة متجذرة في التربة التي تمتصه. سيأكل الثعلب آخر بقايا النسر وتهرب الغربان نحو فلوات الزمن.

الرياح تدور خارج المنزل، مثل ذئب مفترس وجائع إلى السفاد والطعام. نسر يحلق في الأعالي الملتوية حيث آخر الخيوط الدموية. وجه اينانا كان مترباً، طباشيراً ومسحة الموت، تلك النظرة الميتة والمتجذرة في العروق والشرايين والأوردة، تهرب إلى الأبد. إلى الآلهة التي لا تستطيع أن ترى وجوه النساء الدامية وهن يرتلن تعاويذهن قرب أبواب المعابد.

لا يا راحيل لا تحملي الشمعة المضاءة بالظلمة والألم، كنت أقول. أسمعك يا اينانا وأنت ترددين صلواتك لذلك الشيء المجنون. صلواتك الخافتة والمتعبة واللاهثة مثل ضفدع يقفز في برية ميتة وبلا حياة إلا حياتك أنت. أمك كانت الكائن الوحيد، الكائن المفترض أنه يسمع آخر الكلمات منك، كلماتك المشحونة بجلال الله والملائكة والقديسين والعباس وكل الذين تؤمنين بهم وبقدرتهم على إدراكك في ساعة المحنة هذه. هل تذكرين الأحلام وتماثيل الطين، تلك كانت أول التمارين وأشدها فتكاً التي تعلمتها منك. كنت تضعين التمثال وتقولين لي بتهويمة عالية. هذا هو العباس وهذا هو الحسين وهذه هي.....

لم أكن أفهم ألغاز هذه السلسلة الطويلة التي كنت تذكرينها أمامي. كنت أنظر إليك في شبق وأنا أرى نهديك الجديدين وهما يبتزاني بقوة حيوانية تصهرني إلى الأبد. في تلك اللحظات والأيام والساعات والثواني وكل أجزاء الوقت، اكتشفت في نهديك شيئاً جديداً وإحساس معين أخذ بالتأسس، لم أفهم هذا الإحساس، لكنه كان شعوراً ما، أشد غرابة وغموضاً من تماثيلك.

انزويت أكثر ملتصقاً بالخوان ودخلت راحيل إليك وأغلقت باب

الغرفة وأظلم العالم فجأة. عاهرات المعبد الدموي كن يرتجفن مثل العظايا. أم اينانا أخذت تولول وتضرب رآسها بكلتا يديها. كل شيء كان مجللاً بالسواد الفضفاض ووحدي كنت ضائعاً في المسافات.

مرت نصف ساعة وخرجت راحيل من الغرفة. ساد وجوم كبير وصمت مذهل ونطقت راحيل أول الكلمات بخفوت (منكوبة)، ليست ببكر. صرخت أم اينانا عالياً جداً حتى شعرت بالقشعريرة وهربت آخر العصافير الغافية على شجرة اليوكالبتوس. أخذت عاهرات المعبد بالصراخ واللطم والخمش وتناثرت السجائر في كل مكان. نهضت أم اينانا ولحقتها العاهرات وأخذن يدرن حول دائرة سماوية بمركز واحد وهن يلطمن ويمزقن الثياب الملوثة بالعرق.

أصوات الصراخ كانت مرتفعة للغاية ومدوية وشعرت بالرعب والضياع واللامعنى يسيطران على جسدي. أردت أن أدخل إلى اينانا لكنني لم أستطع بفعل تدافع الأجساد الهستيري. كانت هناك غابة من التوحش والتدافع. حيوانات غريبة ومتطاولة ومتمددة تغطي الأماكن كلها. شعرت بالاختناق والإحساس بالقيء،

و فجأة اقتحم الرجال دائرة النساء المتراقصة وهم يصرخون. أحد الرجال وكان أبو اينانا، يصرخ بفمه الكبير متسائلاً أين العاهرة. أشارت إحدى النساء إلى الغرفة فاقتحمها بقوة جسده. كان مثل ثور همجي وهو يرفس أي شيء في طريقة. عينان مروعتان ووجه يشبه قناع الشياطين وفم مفتوح للعاصفة والرياح الهابة من الوديان السوداء والسحرية. سمعت في هذه الجلبة صراخ اينانا المتوسل، الخاضع، المسحوق، المدمر، المسود، الملتهب، المتضرع. ثم فوجئت بها وهي تهرب مذعورة من الغرفة باتجاه الطارمة الداخلية للبيت. كانت ملابسها ممزقة وشعرها منشوراً. ركض الرجل خارجاً من الغرفة مخبولاً، ثم لاحق اينانا إلى الباحة الداخلية. أخذت يده تنهمر بالضرب على الجسد المائع ثم انتبه إلى وجود برميل نفط

صغير، وفي لحظة واحدة قفز ساكباً النفط على جسد اينانا التي انفجرت نار عظيمة في جسدها. سقطت على الأرض و تملكني الرعب. كانت اينانا تصرخ مستغيثة ووجهها إلى السماء ثم ارتمت إلى الأرض وهي تحاول إطفاء حريقها متمرغة على الأرض الإسمنتية، لكن الرجل سكب مزيداً من النفط.

وجهي تيبس، عيناي التصقتا بالنار المتصاعدة بجنون. عاهرات المعبد يخمشن وجوههن ويضربن على رؤوسهن بقوة خيالية، أم اينانا كانت تتحول إلى شيء ما يشبه سراباً متفجراً بالنكهة القاتلة لأصابع صبار وهي تذوب في ماء مالح. عواءات الذئاب الناهشة للجسد تتفجر في الوجوه. صرخات اينانا تستعر مثل ثورة النيران في جسدها. الأب يسكب المزيد والمزيد من النفط. أحسست بالقيء يقفز إلى فمي ومعدتي تنقلب رأساً على عقب، انحنيت وتقيأت. وجه الرجل كان متيبساً وعيناه جامدتان وهما تحدقان في الجسد المشتعل. أخذت اينانا تفقد قوتها. بدأت أصابعها تتيبس وينسلخ الجلد ولحظات ثم انقطعت الحركة وغدت اينانا جثة متفحمة. لكن النيران لم تزل تشتعل. سكب الرجل آخر ما تبقى من النفط على الجسد ثم انسحب إلى الخارج بهدوء وسكينة مميتة وقاتلة.

أخذت عاهرات المعبد يسكبن المياه على جسد اينانا في إعلان مبهر أن الحياة قد فارقتها. بدأ سائل أصفر ينزّ من الجسد والاختلاط مع المياه. حاولت أن أتبين وجهها. لكن لم يكن هناك وجه ولا أنف ولا ملامح، فقط كتلة سوداء متكومة في زاوية الباحة. كنت مذهولاً ومصدوماً بالكيفية التي تنتهي بها الحياة. لم أفهم على نحو واضح وجلي ماذا يعني أنها قد انتهت. لم أجرؤ على ملامسة الجثة الغافية وهي متقلصة ومتكورة حول ذاتها. أنظر من زاوية الطارمة وجسدي يرتعش ثم هربت إلى داخل المنزل..

في الخارج تفرق الرجال. لم يعد من أحد يسمع صوت الثعالب وهي تتقافز في البرية المقتولة والأنهر الجافة والغيوم المنحولة. العالم كله بما فيه

الشارع كان يتحول إلى لوحة مائية مضرجة ببقع الدم، الخرافة. الحريق. السائل الأصفر، العيون الملقاة على قارعة الخلجان البحرية والمساحات الهائلة من عرانيص الذرة المزروعة بقوة الآلهة الغائبة. تتقدم راحيل وتفحص الجثة بأصابعها. تسأل إن كان هناك ثمة شرشف لتغطية الجثة.

أحلامي كانت متقطعة والرعب يشلني عن الكلام المبثوث مثل الهمس. لا أحد يتحرك في حفلة السيرك الدموي هذا ولا حتى ميكي ماوس الذي كنت أسرد مغامراته على أذان اينانا. وضعت راحيل بطانية على جثة اينانا معلنة انتهاء الزمن، العقرب، المحطم، الموت الذي أزف مع البراقع الملونة بالسخام وقطع أشجار اليوكالبتوس، الموت غير المفهوم والملغز. كنت أشعر أنها قد استراحت الآن.

اقتربت من الجثة المتقلصة في غفلة من عيون الآخرين أزحت الغطاء قليلاً ثم أخذت أنظر إلى وجهها المتماوج الخالي من الملامح والمسلوخ. ثمة ذباب كان يطن مقترباً ومحاولاً الوصول إلى مكان العين. كنت أريد أن أستقريء الأشياء الخفية. أن أكتشف الموت، بمعناه الفيزيائي والكيميائي، حينما حاولت مد أصابعي لتلمس الجسد دوت صرخة من الخلف ونهضت هلعاً. بعد ساعات من وقت مقتول، انسحبت عاهرات المعبد، كل واحدة إلى زمن شائه وغير مفهوم. انسحبن مثل غرانيق وغربان في حقول مقفرة.

أشجار اليوكالبتوس كانت ترتعش مدوية. ثمة عاصفة مرت فحطمت التنائي المزدوج للفعل المقتول. أنهر عارية من الضفاف وأنهر مبعثرة على صفحة وجه الأرض.. دخلت المنزل وقفزت إلى النافذة. فجأة ضاعت الأحلام مثلما ضاعت اينانا في حريقها الدموي. صفحة السماء كانت قاتلة، مبعثرة مثل الخواء الذي كنت أشعر به. حاولت أن انام قليلاً لكن الكوابيس كانت تطاردني. كل الأحلام كانت عبارة عن حرائق لغابات لم أشاهدها أبداً في حياتي المتصحرة. من سوف يركض خلف قطعان الأبقار العائمة في سحر السماء ويسكب المزيد من الحليب على

الأرض المتيبسة والعطشى. كنت أتساءل لِمَ لمْ يستطع ميكي ماوس أن ينقذها من القتل.

للمرة الأولى شعرت بكره غريب له. كره كان يتصاعد مثل المرض إلى فمي المر وعقلي فقررت أن لا أراه بعد اليوم. في اختلاط الأحلام وصور اينانا، أخذت أبحث عن الحسين وأهل البيت، أولئك الذين كانت اينانا تعشقهم بكل ما لديها من قوة وتحدثني عن بطولاتهم الخارقة. لم تكن تفهم من هو ميكي ماوس الذي كنت أسرد لها مغامراته. كانت تتصوره شخصاً مثل آل البيت، قديسا ملهما، ولم أكن أمتلك المعرفة اللازمة لأشرح لها أن ميكي ماوس لم يكن قديساً ولا من آل البيت، إنما كان شيئاً جديداً ومغايراً، لكنها لم تفهم. لا تستطيع أن تتصور أن ثمة بطولة غير بطولة آل البيت. كانت تعشق الحسين وتقول لي إن الله لم يخلق الدنيا إلا من أجل الحسين. في بعض الأحيان كنت أمازحها فأقول لها إن ميكي ماوس أشجع من الحسين وأذهب لأشرح لها أنه يستطيع أن يرفع جسرا كبيرا بيد واحدة وأنه يستطيع أيضاً أن يحمل كل أبقارها بيد واحدة.

كانت ترتعب من هذه الأحاديث وتسكت لكنها سرعان ما تقول لي إن الحسين يستطيع هو الآخر أن يفعل أكثر من هذا. يستطيع الحسين أن يقتل المئات بضربة سيف واحدة. ويستطيع أيضاً أن يطير أبعد من ميكي ماوس– صاحبي– وأن يصل إلى النجوم. أحياناً كنت أشعر بالانهزام أمامها خاصة عندما تحلق مخيلتها بعيداً عن الحسين وآل البيت.

لكني كنت أشعر صادقاً أن ميكي ماوس ربما أشجع. لم أعرف لماذا كان يراودني هذا الإحساس الجهنمي، بحثت في مخيلتي طويلاً وفي عقلي وفي أحلامي الخرائية والمضطربة لكن لم أجد أشجع من ميكي ماوس يمكن له أن يغير العالم نحو الأحسن. لكنها كانت تقول إن هناك شيء سري تريد أن تفصح لي عنه وهو أن هناك المهدي المنتظر. سوف يظهر هذا البطل ويعيد الحكم إلى آل البيت الذين اضطهدوا وعذبوا.

أثارتني شخصية المهدي كثيراً، ووجدت أنها يمكن فعلاً أن تكون شيئاً مشابهاً لميكي ماوس وهو يساعد أصدقاءه والفقراء. كنت كثيراً ما أنتظر ميكي ماوس وأحلم به. أحلم بعنفوانه وذكائه وقوته وجبروته. لكن المهدي المنتظر سرب إلى نفسي قلقاً. شعرت بأني مهزوم أمام مهديها هذا.

نوع من الخبال كان يكتسي وجهها وهي تسهب في وصف قائم آل محمد، الطفل الصغير الذي اختفى في مغارة مجهولة في مدينة سامراء وأنه سوف يظهر ليمنح آل البيت روحا جديدة وينتصر مرة أخرى. عالم من التماثلات كانت تشكله أمامي. وشغلني أن المهدي أيضاً صغير السن وربما ضئيل الجسم. حاولت في مرات مختلفة أن أشرح لها أن ميكي ماوس هو المهدي المنتظر لكنها لم تفهم بل ازدادت عصبية وانفعالاً وتذمراً مني.

كنت مصدوماً وأرتعش محدقاً في النافذة نحو لا شيء غير الأسئلة الغفل. ماذا يعني أن تكوني مثقوبة وليس لك غشاء بكارة. أخذت جدتي تشعل البخور في المنزل وانزوت راحيل في غرفتها. بعد ساعات من انطفاء الحريق في جسد اينانا جاء رجال ورفعوا حريقها ووضعوه على بطانية كاكية اللون ثم رموها مثل شيء زائد في مؤخرة عربة مكشوفة.

تركت النافذة وهرعت إلى الطارمة الداخلية حيث كان الحريق. آثار سحل راعية الأبقار كانت واضحة على الأرض. دماء مسودة وسوائل صفراء وصديد يبقّع المكان. أخذت جدتي تسكب الماء على البقعة الكبيرة حيث الدم المتخثر، بعد ذلك جاءت راحيل وأخذت تفرك الأرض بعد أن وضعت التراب على البقع الدموية.

كل شيء كان يجري بصمت، لم تكن جدتي تتحدث ولا راحيل. بدا أن عالماً قد رحل الآن وعالماً جديداً بدأ بالتشكل. لم أعرف العالم الجديد لكن روحي أو شيء ما في داخلي غادر الأمكنة القريبة واتجه إلى أماكن لا أعرفها ولم يسبق لي أن زرتها. هل هذا كان حلماً أو كابوساً مرعباً؟ لا أدري ولا أملك الإجابة الفورية. كنت أغرق في سماوات مترعة بالتخيلات.

سماوات متعددة وليست واحدة، كل سماء فيها عبارة عن صفحة مليئة بالخوف والانبهار والتشظي واللوعة.

مر اليوم الأول بعد حريق اينانا، وبدأت الكوابيس تطاردني، كل يوم في طرقات المدينة المتلصصة. كنت أرى وجهها، لكن هذا الوجه كان مشفوعاً بالدم ولم يكن وجهها الحقيقي. في كثير من الليالي كنت استيقظ مرعوباً أتصبب عرقاً وكانت راحيل تبكي وجدتي تقرأ لي تعاويذها السحرية. كنت أشعر بالموت وفي غالب الأحيان كان الموت على شكل طائر غريب يحط فوق رأسي أو يضمني إليه ثم يقلع من الأرض بوحشية وأصوات مرعبة. الزمن لم يكن كفيلاً بمحو الذاكرة وإضاعتها في الأبدية. معادلات الوقت كانت تمضي هي الأخرى في سير غريب وكأنها تريد أن تنزع الأشجار عن تربتها أو تمحق العصافير من سماء مزينة باللوعة والبهجة والشواء والاندفان عميقاً في باطن الأرض. ليست هناك شهوة متولدة من أثر القتل والاجتياح. لا شهوة أو ضمير يمكن أن يقاتل الجرابيع. كنت استيقظ فجأة معلناً صحوتي بصراخ مرعب وكانت جدتي وراحيل يبكين.

راحيل كانت تؤنب جدتي لسماحها لي بمشاهدة الحرق وكانت جدتي تجيب متلجلجة وبتردد كبير أن لامفر أمامها. إنه لا يمكن أن أتركك وحدك وسط الهلع الهستيري والرصاص والبنادق المحشوة بالموت. لا أستطيع أن أتركك أنت أيضاً تموتين فيما أنا موجودة هنا. فكانت راحيل تستمع ثم تبكي لبكائي ورعبي وموتي الكامن في الأحلام. لم تبق جدتي رجل دين معروفا أو غير معروف لم تأخذني إليه. كلهم كانوا يستمعون لها بانتباه ومن ثم يحرقون بخوراً ويشخبطون أوراقاً صفراء كنت أعلقها على صدري.

سحر يتجول في الأمكنة وحرق البخور اليومي ينبعث من الطارمة الداخلية للبيت عشية كل يوم حينما تؤول الشمس إلى المغيب. كل عشية

كانت تحتضنني جدتي مثل قطة صغيرة شائهة ومتعبة ثم تنزل الدموع. كنت أسمع ولولتها والانثيال الحر لمجرى الامطار على وجهها وهي تمسح رأسي بكفها الكبيرة المشققة..معظم الأقارب جاؤوا من الأمكنة البعيدة ليقرأوا تراتيل الوداع الفضفاض لروحي.

كنت في تلك الإغماءات المتحللة أشاهد الأيائل واينانا والأبقار المحلقة بأجنحة نورانية في شمس باردة ومثلجة. سماء عدمية طويلة، سماء من الألمنيوم وهي تنبعج عند مشارق الأرض ومغاربها. قطعان أبقار تحلق بالأجنحة فيما اينانا تغزوها الرياح الفلكية ومواقع النجوم المذنبة..

راحيل أيضاً شعرت بالاستسلام بعد أن دارت بي على عشرات الاطباء. الذين كانوا لا يعرفون الحلم ولا يعرفون المعنى المشوش للذاكرة المحطمة.. من نافذتي كنت أقول لنفسي، حتماً إنها الآن مع آل البيت، حيث السماء بلون الشوفان والملابس الملونة ببريق الابتعاد عن كل خرائيات الوقت والزمن واللسعات المريرة. لكن هل أنت هناك فعلاً؟، كما كنت تحدثينني عن الجنة. كنت تشاهدين الحسين دائماً، هكذا كنت توشوشين. يأتون في الأحلام، في الصخب، في الجنون، وفي رغائك، وهلوستك.. أتوحد مع نافذتي. لم أكن أريد التحدث إلى أحد، حتى أنت يا راحيل. كنت أريد السير في المنزل فقط، مثل تائه أبدي في لجة المطر العصي على الهبوط. لم أعد أخرج من المنزل.

نسيت العالم المترب والهائج في قيظ الصحارى والقفار والابنوس والملائكة والثعالب والأرانب والكافور. لم أعد أشاهد في سواد الظلمة الحالكة غير الكوابيس والاختناق وعدم القدرة على التنفس والهواء الخارج من رئتي والبول الفار من سراويلي والصراصير الزاحفة في الأفق المسود.. في كثير من أحلامي كنت دائماً هارب إليك. فاراً من القمل الذي كان يسير في فروة رأسك، لكنني كنت أعرف أنك نوعاً من النبوءة المتساقطة من السماء. أو هكذا كنت تقولين عن نفسك. أحياناً كنت تصفين لي تجلياتك

المبهمة، تجلياتك الكبيرة وأنت ترين الحسين قادماً على حصان أبيض وكنت تشتهينه، لا بل تتمنينه أن يأخذ جسدك عبارة عن قطعة قماش في الارتحال والتطواف الداخلي لروحه. كنت تحلمين بهم دائماً. خيول مسرجة وأمهات نائحات وملكات متوجات بعروش الطيلسان واقمشة براقة مصنوعة من الحرير الصيني. كثيراً ما كان الحسين وآل البيت يحدثونك عن قصصهم التائهة في المطر والزرنيخ والعواصف. كثيراً ما كنت حسبما تقولين تنامين في معسكراتهم وكنت أعجوبة العاصفة في المشهد الخيالي.

كل فرسان آل البيت كانوا يريدونك جارية عندهم وكنت تعشقين الملامح الحادة المرسومة في الصور الإيرانية لآل البيت. هذا الحسين وذاك عقيل بن أبي طالب والشمر الذي أراد اختطافك ليمنحك جارية إلى الخليفة. وكنت لا تؤمنين إلا بخليفة واحد هو أمير المؤمنين. هناك، في حظيرة الأبقار، جاءك حمادة مجللاً بالسواد وقال لك إنه مبعوث الخليفة ثم انتزع أثمن ما في حياتك، عصفورك. وإلى الأبد. يا الله، وفي اليوم التالي عندما استعدت وعيك، وقفت وبين فخذيك الدماء المتيبسة، مرعوبة، مشوشة وعندما علمت الأم والأب بما حدث لم تنفع، قداديس بكائياتك. جروح عورتك. كل شيء فعلته وأنت تتوسلين الأب، وهكذا جرجروك إلى راحيل من أجل اكتشاف الفضيحة.

كان ذلك مدوياً، مهيناً، لاسعاً، حامضاً، علقماً. ها هم الآن في أحلامك والصدمة أخرستك. سحلك الأب مثل كلب. آثار ضربه المبرح على جسدك. كان يريد أن يعرف اسم هذا الفتى وكنت تقولين إنه منهم. و ينهال عليك بأنشوطة الحبال والحزام والعصي حتى أنك لم تعودي تدركين الزمن ولا معانيه. كنت لا تعرفين لم لم يصدق الأب روايتك وأنت تقسمين. ثم حضر الأخوة و الأقرباء وأصبحت مثل معزة وسط حلقة كبيرة من العصي والضرب والمتاهة الكونية وأنت تترنحين وتفقدين الوعي كل لحظة. كل الدماء التي نزفتها وتحطم وجهك وأضلاعك لم

تشفع لك. كانوا يريدون الحقيقة والحقيقة هي ما تقولين في أحلامك التي كانت تهاجمك مثل ذئاب متوحشة، ذئاب معتادة على تقطيع اللحم البشري برعب ووحشية قل نظيرهما.

بعد ذلك غطوا رأسك وجاءوا بك إلى راحيل. راحيل الطيبة والخائفة من عيون الرجال الملتهبة. كانت أصابعهم على الزناد وكانوا يعرفون انك قد فقدت عذريتك لكنهم أرادوا التأكد حسب. لذلك فإن راحيل لم تستطع أن تفعل شيئاً لك رغم توسلاتك، رغم الأنين، اللوعة، التيهان، التمرد، الخرس، المرارة وتقبيل الأصابع والأكف. راحيل كانت تدرك أن لا مجال للتلاعب، أو حتى الهروب بسيارة الموسكوفيج.حيث الرجال يحيطون المنزل من الأرجاء الأربعة.

كنت تعرفين انتقام الرجال. انتقام الذئب من الضحية المغرق بالهوس الجنساني. كنت حيواناً ضئيلاً وصغيراً وتائهاً. كنت مثل سنونوة صغيرة خرجت الآن فقط من عشها الامومي لتكتشف سخافة العالم وخرائياته. العالم الملئ بالتقيحات والجراثيم والصراصير. الفأرة المسكينة المذعورة والشاحبة، كانت ترتعش غارقة إلى الأبد في دوامة البعد الحيواني للذات المتوحشة.. راحيل تمددك على السرير ثم ترفع ثوبك بتؤدة. أنت ترتعشين وتتقلصين، مثل دودة. عيناك تتيهان في سقف الغرفة الملبد بالعناكب. عيناك تبكيان و دموع مالحة تنبثق منك وتغرق الشراشف الصينية والوسادة.

أنا كنت اختلس النظر، مثل فأرة، مثل سنونوة. ألمح دموعك القاسية التي كنت تخرجينها على ضوء الفانوس والذبالة المرتعشة والشموع. ألمح خلاصة السماء وهي تذوي أمامك وكنت أتساءل لماذا لا يساعدك المهدي الذي كنت تحدثينني عنه بكل فخر وقوة وثقة. كنت ترددين اسمه أمامي بشغف وأمام راحيل بضراعة قاتلة وتوسل محموم وعين شفافة. تمد راحيل كفها وتباعد ما بين الساقين المرتعشين. كل الأصوات كانت تذوب مثل

قطرة حبر في وعاء عقلك. ضوء الفانوس المرتعش كان يعبث بخصلات شعر راحيل وشعرك. أغنية عائمة في الهواء كانت تعبر الوجوه.

في اللحظة التي أعلنت راحيل نهايتك كنت تتأملين الوجوه المتخيلة في رأسك. كنت قد استسلمت للمصير العبثي الذي حركك مثل كرة أطفال إلى كل الاتجاهات. تفكرين في المصير. في الأيام القليلة التي سبقت عاصفة أيامك العاشورية. عاشور لم يكن إلا هباء وكان لا بد من ضحية إنسانية من لحم ودم لافتداء الإله. أنت بكل عزاءاتك ووحشة دروبك، كنت الفداء، القربان، على المذبح حيث يهوه يريد أن يتشمم رائحة التقدمات بشهوة معربدة. كنت تخافين الموت وتتساءلين هل هو جنوني إلى هذا الحد؟. هل هو مرعب وأنت تنزلقين في كوته أو سراديبه المطلقة والأبدية. لم تقولي لي في رحلاتنا الموسمية إلى المزارع والحقول وتحت ضوء الشمس الباهت والعرانيص المتراقصة جذلاً. ما هو الموت؟، ما هي الحياة؟.

كان الموت بالنسبة لي جداراً عملاقاً وهائلاً يخفي وراءه عوالم خرافية وحيوانات أسطورية وأغاني مجهولة وانبعاثات حارة ودبقة للإفرازات والالتهابات المزمنة. العالم الآخر بالنسبة لي هومجهول لم أحصل طيلة التفكير فيه على الاستنارة الروحية التي كنت تدعينها وأنك تشاهدين آل البيت وهم يغسلون أقدامك وخرافاتك ومواويلك وأشعار الدارمي الحزينة المتنقلة على فمك مثل موسيقى فاغنرية. كان هذا العالم الذي تغرقين فيه هو الآخرة التي بقيت مجهولة بالنسبة لي رغم أنك كنت تقولين إن الآخرة شيء رائع وملهم وخيالي، عالم من الذهب والجراد المحلزن المعلق في السقوف مثل مصابيح لوكس كبيرة. العالم الجنوني الذي جعلتني أعيشه في الأحلام واليقظة وكنت أسأل راحيل عنه فكانت تبتسم بوجهي وتجد صعوبة في شرحه لي.

كانت تقول وأنا اختبئ في طيات ثوبها وارتجاج اللحم الصدري

وعرق الإبط والتبعثر في الفراش مثل عقد من اللؤلؤ. أن هناك عالماً آخر غير هذا العالم سنرحل إليه. لم أفهم هذا العالم رغم أن راحيل أسهبت في وصفه. كان الله في ذلك العالم أما هنا فنحن متروكون للصدفة والشيطان. هناك عالم ليس فيه إرادة شيطانية، عالم متوحد في ذات الله حيث يفرز الله عطوراً وموسيقى وألواناً تشبه الطيف الشمسي وهو يمخر عباب رذاذ المطر.

في ذلك العالم لا نشيخ رغم أني لا أفهم الشيخوخة. لم اكتف وقتها بهذا الوصف وسألت جارنا عباس أبو العرق عن ذلك العالم حينما أخذتني جدتي إليهم في يوم نيوتروني. قال عباس في وصف الآخرة إنها مليئة بالصبيان وأنهار العرق واللحم المشوي والمعلاق.. لكن هذا لم يشف غليلي. غليلي الذي كان متلاطماً في بحر من القدرة على اكتشاف الانبهار والتماهي والتلاحك والتملص والانسحاق الكلي. كليتي كانت من النوع الوثني والحلمي وأنا أبحث في الأرجاء والحقول عن الثمرة المحرمة عسى أن أتحول إلى ملاك من تلك الملائكة الذين كنت تصفينهم في تهويماتك العبثية.

هل تتذكرين حينما سردت لي حكاية خضر الياس. تلك الحكاية المبنية على واقع افتراضي واختزالي. أنا لم أنس التفاصيل. ذاكرتي لا تموت بموت الدم في العروق ولا الجريان المتقطع لعضلة القلب. هل توسلك الجنوني هو فقط أن لا تموتي. هنا اكتشفت كذباتك الكبيرة، إذا لو أن العالم الآخر، عالم مملوء بالسعادة والابتسام ورب رحيم لما توسلت الحياة. لما قبلت أصابع راحيل ولثمت أقدامها في إضمامة هستيرية. كنت أشاهدك من حافة الباب مرتعباً، ممسوساً. وحينما خرجت راحيل لتعلن النبأ ارتميت على الأرض وأخذت تضربين راسك. لم أفهم على نحو دقيق لم كان بكاؤك، أمن أجل غشاء بكارتك الضائع أم من أجل الموت ذاته. الموت الذي كنت إزاءه عارية تماماً. هذا العري، هذا الانحطاط الإنساني، هذه الرغبة الحيوانية في الفرار كانت تتجذر فيك.

في تلك اللحظة تحولت إلى مخلوق مختلف. كنت ارصد الهوس، ارصد تحولك إلى ذئبة وضحية صياد ماهر، الشباك في كل مكان. الفخاخ في كل الارجاء وحينها افتض الأب الحيوان مثل نسر شرس وجائع المكان، تحولت عيناك إلى جمرتين ملتهبتين، جمرتين يتقافز منهما الرعب، الانتقام، الرغبات الحيوانية، البصاق، الخرس، الايماءات اليدوية، الأصابع المرفوعة إلى الله. ثم التحول إلى كتلة سوداء في ركن الطارمة الخارجية إلى الأبد مع نزيز من الصديد .

الفصل الخامس

من خلال سبلتين متأرجحتين، أنظر اليهم. كانوا يقفون أمام البوابة في انحناء مدوّ. يقفون مشوهي الوجوه لااثر للحياة في عيونهم. كلهم عبارة عن هباء و ضوء الصالة يرمي على وجوههم اثرا يشبه اثر الكابوس. كنت أنظر إلى العيون والافواه وكانت هذه تذوب مثل بقعة من البلاستك في نار مستعرة. لست أعرف حتى هذه اللحظة كيف كان الزمن يمر علينا. لكن راحيل كانت تجلس في توحد غريب. توحد قاتل وهي تضع رأسها بين يديها فيما جدتي تدور مثل فأرة حول قطعة من الجبن. لم يكن الزمن ينوء بالوجع إنما كنت أنا وراحيل وجدتي نمسك بهذا الزمن ثم ننشره على الوجوه المتعبة التي كانت تراقبنا دون أن تتمكن من الحديث معنا.

كنا أشبه بالتائهين في غابة متوحشة، ننتقل من غرفة إلى أخرى، نحمل أغراضنا ونكومها في الغرفة الصغيرة، والتي خرجت منها اينانا إلى الأبدية في صراخ مهشم. الغرفة الصغيرة امتلأت بالأغراض. بحشايا الفراش والملابس المبعثرة والأباريق النحاسية. نساء الشارع كن ينظرن بعيونهن الفارغة، العيون التي كرهتها إلى الأبد في تلك اللحظات التي كانت ترتسم فيها المخيلة وتنبعج مثل كرة من البلاستك. كل العيون كانت تقرأ تراتيل خفية ولم أكن أفهم من كل هذه التراتيل غير أغان شائهة، ناضبة ومتسللة من مذياع خفي خلف حيطان مبنية إلى النصف. عواء الكلاب

والثعالب وغربان الفضاء وأشجار اليوكالبتوس، كلها تتحدث عن أغنية تتكرر باستمرار حتى أحسست أني على وشك التقيوء.

كل أضلاعي كانت تبترد دون أن أكون قادراً على الحلم. شجرة اليوكالبتوس تنحني، لكن شجرة الرمان تقف بثبات عند مدخل الدار، عصية على الفهم، متجذرة في الأرض. حيوات عائمة سوف أتركها إلى الأبد في خضم أيام لا تتكرر إلا مرة واحدة في المخيلة الذائبة. سوف أقرأ مزموري الأول والسور الأولى وأباريق القهوة المنصوبة في العراء تسكب السائل الأسود في جوف مثقوب إلى السماء. لم أستطع في ذلك الوقت إلا الاختناق، مثل مجرور، أو بالوعة تراكمت فوقها الصراصير والمردان والدبق الخارج من الفم واللعاب السائل والسائح على الأرض.

كل الأموات كانوا يتقدمون أمامي في خيلاء وحين كنت أستنطق غيم السماء العشوائي، كان الموتى يقفزون من العربة وينتشرون في الأرض وكأنها حانت ساعة قيامتهم. لكن لم تكن هناك قيامة ولا انبعاث. إنها أحلام وكوابيس ورؤى وأشياء أخرى معقدة التركيب تسيح على الأرض دون أن أكون قادراً على لملمة التبعثر.

في ذلك اليوم الهذياني، كانت نساء الشارع يولولن ولم أكن أفهم السبب، احداهن كانت تنظر في عيني وتقبلني فيما الاخريات ينظرن إلى هذا التمثال بنظرات محمومة ومتكلمة. كل عيونهن كانت تتحدث وتسترسل في رواية احداث مشوشة. الزمن يتغير وكنت ألاحظه في دورانه الغريب وغير المفهوم وكانت الأشجار تشترك معي في بوهيمية الدبق والارتعاش والقشعريرة. البرد قاتل في الخارج. لكني أخرج إلى الزمن وحدي. أشعر أني سوف أحمل الصليب وأمضي به إلى النهاية. لكن ما هو شكل النهاية؟.

نساء الشارع يحطن جدتي وراحيل تعيش انتكاستها الأخيرة قبل انفجار المثانة المترعة بالبول. كنت اتأمل آخر الأشياء في ذلك الزمن الما ورائي، كل أحلامي عبارة عن فوضى مجهولة المصدر والنهاية. أردت أن

أتحدث مع راحيل حول هذا الوجوم المستعر والمتفجر مثل صلصال مفخور. لكنها لم تكلمني. فقط منحتني نظرة بعينيها العميقتين. آخر الحكايا. آخر اللمسات، آخر التجمد في وحشة الشتاء بلا مدفئة وبلا حنين يمكن له أن يجرف الريح والزبد والبحار وضفاف الأنهر والقصب والطحالب والضفادع ويرقات الحشرات والحيوانات والدعموص. كل الأنوار كانت تطفأ حيث لم يعد هناك من رغبة مؤكدة في النوم والابتهال إلى الرب.

كنت اتساءل فيما عيني تراقب اليوكالبتوس السامق، عن التكوينات السرية لهذه الحركة الدائرية للأشياء. الحركة التي تدفع ببقايا الحشرات إلى الخروج في منتصف العاصفة دون اهتمام من أجل رفع حطام نملة وأخذها حيث بيت النمل لاقامة نواح هائل. في بعض الأحيان كنت أشعر أني قادر فعلاً على سماع أصوات النمل، أصوات الحشرات، الدبيب الدبق للسحالي المعلقة على الجدران. وحدها راحيل لم تكن تؤمن بالموت. كانت ترفض أن تضرب هذه السحالي أو تميتها. كانت تكرهها وتشعر بالتقزز منها. لكن هذا لم يشكل دافعاً قوياً لقتلها.

مرة واحدة شاهدت القتل المرعب والقاسي لإحدى هذه السحالي المسماة (بابو بريص) كانت عبارة عن حفلة للموت وموسيقى للتقطيع واحتفال للسحل والرعب المتجول. في ذلك اليوم جاء أحد الأولاد وهو يعلق سحلية بخيط طويل. ثم وضع السحلية على طابوقة وانهال بطابوقة أخرى عليها، بكل قوته وجبروته. كان يريد أن ينتقم وتفجرت فيه الهيستيريا الطفولية. دماء السحلية تقافزت إلى كل مكان ومنها دشداشتي البيضاء الجديدة التي دمرني تلوثها بالدم المقدس للسحلية. وقتها تقيأت وانهالت على الأحلام من كل مكان دون أن تترك لي حرية الهروب..

من بحيرات صغيرة مملوءة بمياه الأمطار والغييات المترعة بالمياه. كانت ترحل أحلامي إلى زوايا الأرض المسطحة. أسمع هسيس ونحيب

جدتي، لكن راحيل لم تكن تبكي. عينا جدتي مترعتان مثل غيمة ما قبل الطوفان، تلملم أعواد الشجيرات لتبني عشاً لآخر العصافير الواصلة من رحلة أسطورية. كنت أنظر في عيني جدتي وعيون النساء اللواتي يحطن بها.

أين زهرة الليلك واين سيقان النارنج يا جدتي. لم تكن تجيبني وراحيل الأخرى لم تحر جواباً. كان الجميع يبكي بلحن موسق. لحن غنائي تتبدل فيه الاطوار الموسيقية بين الحين والاخر و بعجلة غريبة. خرجت النساء من بيتنا في وقت متأخر. راحيل تتحرك في المنزل قلقة ومرتبكة.

جدتي لم تتحرك حيث كانت تجلس تراقب الأشياء بعينين مثقلتين بالدمع. ماذا يحصل بحق الجحيم؟ لماذا تدور العصافير في رواق البيت الضاج بالأغراض والكراكيب الممزقة ومزق القماش وصناديق الكرتون. ألحان سماوية تعزف باسترقاق مدو ولحني الخاص يغرق في متاهة ذات أمواج عاتية. صرت أخاف، أتمرد، أتوسل عين جدتي وراحيل. منذ متى لم أذق طعم الرغبة الخابية في صدرها؟، لم أكن أعرف. في النهاية وبعد إضراري على الإجابة. قالت جدتي:

- سوف نرحل غداً. نترك البيت.

لم أفهم على نحو واضح ما هو الرحيل. ما هو التشبث بالأشياء اللقيطة في هذا العالم.

- إلى أين؟

قلت لجدتي التي كانت تنظر في عيني واثر دمعة وحيدة تستغرق أعوام طويلة لتنحدر إلى خدها المضرج والمخطط من إيلام السنين.

- حتى الآن لا أدري. كانت تقول، لكن أرض الله واسعة.

الله هذا الشيء الملغز والمتستر خلف بوابات العالم والسماوات هو الكفيل بانبات الزهرة وسكب المياه والعاصفة والتمرد والانحلال. ذوبان شهي في مشهد ممطر ونحن نجر اذيالنا الخائبة إلى اللامكان. شعرت

بالضياع والبرد، لم اقدر على مفارقة شجرة اليوكالبتوس ولا العصافير الرمادية وهي تنفض عنها مياه الامطار الكثيفة.

في صباح اليوم التالي وحينها استيقظت، هرعت إلى غرفة راحيل. لكنها لم تكن موجود ولا سيارة الموسكوفيج. كان المتوفر في ذلك الصباح اللامع والمبهرج بالأغراض المنتشرة على الأرضية، هو جدتي فقط. عينها المطفأة والملتاعة كانت تتحدث بصمت كتوم. بعد أن تناولنا فطورنا، لبست جدتي عباءتها السوداء وقفلنا باب المنزل وضعنا في متاهة الطريق.

الصباح في ذلك اليوم كان غائماً، ضبابياً، عابراً للأخطاء. الزمن يتلكأ وهو يسير في انحناءة قاتلة. استغرق مسيرنا في الوحول، دهوراً، ساعات طويلة. لم نصل إلى موقف السيارات إلا بشق الأنفس.

في الطريق علقت قدمي بالطين. انحدرت عباءة جدتي إلى بركة مياه. و حينها كنا نصل إلى بركة كبيرة كانت جدتي تحملني على صدرها الرقراق، بالدفء الغامر، بالوحشة القتيلة، باليأس الكافر، كنت أشم أنفاسها المرهقة واللاهثة والملتاعة. صعدنا الباص وكان عبارة عن صندوق خشبي مليء بالخراف والدجاج والبشر الذين انحشروا مثل أشياء باهتة وزائدة. كل شيء كان يختلط في حفلة غير مدوزنة. الأنفاس، الثغاء، الحوقلة، البسملة، دخان سجائر اللف،الأصابع الممدوة عميقاً في الأنوف. ديدان الانكلستوما، مخاط هيولي، عيون مرمدة وأطفال بدشاديش ممزقة. آباء ملتفعون بعباءات صوفية مهلهلة ودشاديش حائلة اللون. الزمن كان يختلط، الرغبة بالتقيوء، بالاضمحلال الفعال لعيون ذائبة إلى الأبد في الجو الماطر. كنت أنظر إلى هذا الكم البشري والحيواني وأغرق في تتبع اثر الشمس التائهة. البرد كان منيوكاً كبيراً، يتسلل من منطقة الحزام ليغزو بقشعريرة قاتلة وفضائحية، بطني واسفل ظهري ونهايات اطرافي. البلل غمرني وتقليص نفسي لم ينفعني ففعلتها في البنطلون.

توقف الباص ونزلنا في الكاظمية. منارات الإمام كانت طويلة والقبة

المصنوعة من الذهب تتماوج في غلالة الضباب. الأرض كانت عبارة عن وحول فظيعة انحشرت أقدامنا فيها إلى الركب. سرنا في هذا المزيج الإنساني الموحش بين عربات الدفع التي تجرها خيول منهكة ومريضة. وبين صرخات أصحاب عربات الشلغم واللبلبي.

في الفوضى، كان علينا أن نكون أكثر انتباهاً ونحن نسير بين البشر والخيول والأصوات الناعقة والصارخة والسابة والكافرة. من كل الأرجاء كانت تأتينا الأصوات، كلها كانت مزمجرة غير مفهومة. كانت تحمحم مثل حمحمة خيول الجر المتيبسة عظامها من الجوع. جدتي تسير أمامي ويدي مشتبكة بيديها لكني لم أكن أشاهدها. كان التدافع كبيراً ومزرياً. بالكاد استطعت اللحاق بها ودفع البشر الذين كانوا يشكلون حاجزاً بيني وبينها.

من خلال هذا المشهد الملوث بالوحول والمطر والكالات والأحذية الممزقة والنعل المثبتة بأسلاك الخارصين. كنت أحلم بالزمن وهو يريني تلك المشاهد غير القابلة للنسيان. بعد أنصاف ساعات حيوانية، وصلنا إلى الإمام. كان الضريح هائلاً. لم أستطع أن أشاهد نهاية له. على بوابة الحضرة الخشبية كانت النساء تقبل عتبة الباب فيما أخريات يلطخن الجدار بالحنّاء. تعثرت أمام البوابة حينما انحنت امرأة أمامي وسجدت على الأرض ثم أخذت تقبل الشارع والرصيف ثم أسكفة باب الإمام.

باب الحوائج كان كبيراً للغاية وحينما أردت أن أصل إلى نهايته شعرت بدوار كبير. دوار شاسع بلا نهاية، كانت السماء ذات زرقة عميقة فوق الإمام. زرقة تمنح المرء روحاً خالصة وكأنما تمطر على البشر المحتشد نواقيس مدوزنة وموسيقى هائلة الترنيمات. كل الموسيقى كانت تتجمع في السماء ثم تنهمر عميقاً إلى الرؤوس المرفوعة للسماء في تمازج غريب ومتشنج ومتصلب، كل البشرينحنون إزاء بوابات الإمام.

أفواه ملطخة بالسخام. أفواه معوجة نحو اليمين أواليسار، عوران وعميان وبرص وخرس ومفلوجين وطرشان وأولاد بغير عيون وأفواه بلا

أسنان، وعيون يغفو عليها الذباب القادم من كل أرجاء الأرض، في السماء كما على الأرض نحيب نساء تركهن أزواجهن وأطفال بلا آباء وآباء بلا أطفال. وكشوانية يحملون أحذية الزمن المتلوي والمخصي مثل أفعى وملالي يحملون بين أصابعهم شرائح القماش الأخضر ونذور للزمن المائع وغير القادم من أي اتجاه. كان احتفالاً كبيراً وشائهاً.

أنزلقنا إلى الداخل حيث الصحن يتمدد. سرنا ببطء بين الحشود التي افترشت الأرض وبقايا الطعام في كل الأرجاء والأوساخ تتناثر وكأنها عاصفة قد دمرت كل شيء. بصعوبة أخذنا نسير في صحن الإمام. استطاعت جدتي أن تجد لنا إيواناً نجلس فيه. من هناك كان باستطاعتي أن أشاهد المرأى بكل أبعاده. كان هناك عري غريب ومتوهج، عري شائه في الضباب الشفاف والبلوري وهو يسحق الأجساد الناحلة والمتوسلة في ضراعة غريبة. عرجان ومهبولين وأنصاف أفاعي يزحفون نحو الإمام في شهوانية التوسل للضراعة من أجل شفاء المفلوجين والمرضى.

بعد أن وضعت جدتي بطانيتها الوحيدة لفت نعليها وحذائي الملوث بالطين، ثم اتجهنا إلى الداخل. كان الضريح مهيباً وقاسياً في عمارته. الإحساس الداخلي المتولد لدي وأنا أدخل الحرم كان مضطرباً. إنها المرة الأولى التي أنزلق فيها باتجاه المقدس.

وصلنا البوابة الداخلية التي كانت عبارة عن باب تشبه بوابات القلاع القديمة لكنها مغلفة بالذهب والفضة وفوق هذا يتمدد لوح من الزجاج السميك. كانت البوابة ملطخة بالبصاق وآثار القبل وتوسلات الأصابع والأكف والأذرع والجباه. شعرت برعب خفي، بتموج للذاكرة، بانحناء المؤخرة وتضعضعها، بخوف متبدل وواضح. أصابعي كانت ترتعش، بعد ذلك انحنيت وقبلت الأرض بين يدي الإمام. كان العالم مشوشاً. أحسست باضطراب لكن بعد أن قبلت الأرض شعرت بانتماء غريب إلى المكان..

قالت جدتي، تقدم وتضرع للإمام. اقتربنا من الضريح والصندوق الذهبي الذي يحيطه وشعرت بالأفكار تضطرب وتتناثر ثم تنبثق فجأة من القلب والعقل، حكايا ورؤى وأحلام متباعدة ومتخالفة. لم أعرف في البدء كيف أتضرع. كانت هذه مغامرة أولى في الانفلات والتماهي مع المكان. من خلال فتحات القفص الذهبي رحت أحدق إلى الداخل. كنت أشعر أني أنتمي إلى صاحب المقام. اقتراب روحي وسيلان لمشاعر مختلفة ومتهافتة. كنت أريد أن اكتشف ما بداخل هذا القفص ورغم أن جدتي قالت لي إن الإمام يرقد داخله. لكني كنت أريد أن أشاهد الجسد. أشاهد كمية المشاعر المضطربة والآيلة إلى التفجر والانحناء أمام العاصفة الغريبة التي أحاطتني من كل مكان.

كان العوران والعميان والمرضى والمشلولين والمقعدين يدورون في فلك المكان. في فلك الإمام. كنت أتساءل إن كان الإمام سيسمع ما أريد أن أقوله له بسرية تامة. أخذت الأفواج والكتل البشرية تدفعنا باتجاه دوران حول نقطة مركزية هي الضريح. جدتي التي استطعت أن أشاهدها بصعوبة من خلال تشابك الأيدي والأصابع المتوسلة والأكف التي تتشبث بالقفص، كانت تبكي بحرقة مع الدوران الفيزيقي حول الضريح.

يقترب منا أحد الملالي ويقول لجدتي هل تريدين (مراد). فتنظر جدتي في وجهه وتأخذ شريطاً أخضراً وتعقده إلى فتحات القفص. كنت أقف بجانبها متشبثاً بالشبك حيث الجموع تحاول أن تزيحني باتجاه الدوران. قوة غريبة وقاسية وملهمة شعرت بها وأنا أنظر إلى الرأس حيث كانت توجد عمامة وفوق العمامة قنديل من الزجاج يضيء المكان بخفوت ناعم وكأنما لا يريد للإمام أن يستيقظ. عينا جدتي لا تزالان تدفعان الدمع إلى الخارج. أنظر لها بوجه شاحب، بنظرة تشبه نظرة القط إلى كومة من اللحم الشهي. عيناها غائمتان ومتجانستان مع المكان، لكن الإمام لا ينزل أباريق المتعة الفضية من السماء، أردت أن أقول لها أن تكف عن النواح بالطبقات المنخفضة..

ملهاة كبيرة وأفق غير واضح المعالم يتبدى عارضا نفسه على الآخرين. لكن المرضى والمعوقين وأصحاب الفالج يترنحون بموسيقى غير مرئية. أردت أن أقول لجدتي التي شعرت بتعاطف غريب معها، لماذا البكاء؟ لماذا ينثني المكان في ترتيبات غريبة ليمحضك الدمع والمياه المسيلة على الخد.. جدتي تنظر مثلي إلى داخل القفص، إلى الأشياء المجهولة وإلى الأماكن السرية وإلى التأكد من أن الإمام قد سمع النشيج وأغلفة الدموع معبأة برغبة الضراعة.

درنا بعد أن نهضت جدتي دورات طويلة، مرة نبتعد عن الضريح ومرة أخرى نقترب منه. ثم أنهينا تراجيديا البكاء بالجلوس إلى أحد الجدران نتشمم العطر الذي يسيله أحد المعاقين من مرشة فضية اللون. كنا بين اللحظة والأخرى نسمع الصرخات المدوية لأحد الخرسان وهو يتلوى على الأرض فجأة ثم يصيح الناس (صلي على محمد وآل محمد). بهستيرية عالية. كان جسد الأخرس يدور حول مركز ثابت ثم يتطاير من الفم البصاق والزبد الأصفر وتنهض النساء ليتباركن به ثم تنثر على الرؤوس فجأة قطع الحلوى و(الجكليت) والملبس.

الإحساس الذي يسيطر عليك هو أنك أمام مشهد سماوي، مشهد غريب لا تستطيع أن تفهم ألغازه ولا أن تحل مغاليقه. ليس للإمام طريقة معينة في حل المشاكل. أحياناً كنت تسمع صرخات مكتومة وأحياناً أخرى تهب عاصفة من البرد والدموع والنشيج.. كان الإمام في كل الأماكن، في الريح، في العاصفة، في القناديل الملونة والمعلقة. في الهواء. تشد جدتي يدي وننهض بتثاقل. نعبر الأجساد الممدة على الأرض، إلى الباحة الخارجية ومن هناك إلى الإيوان حيث وضعنا أغراضنا. نجلس سويعات وأقول:

- أما آن أوان العودة إلى البيت؟.

تحدق جدتي في عيني وكأنها تريد أن تعرف علام أسأل هذا السؤال، فأقول لها إني أبرد هنا فتضع البطانية على كتفي. كنت فعلاً أشعر بالبرد

وكنت أريد أن أعود إلى المنزل. تقول جدتي بعد أن ألححت عليها بالسؤال.

- لن نعود إلى البيت.

ثم تدير وجهها إلى الجانب الآخر وترتفع الغصص إلى حلقومها.

- لماذا لا نعود ياجدتي؟، أقول.

وبعد أن تصمت للحظات أحسبها دهراً تقول بمرارة واضحة:

- لن نستطيع العودة، راحيل ستبيع البيت.

لم أفهم ما الذي تعنيه ببيع البيت لكني فهمت أننا لن نستطيع العودة إلى الأبد. أخذت جدتي تبكي ولم أكن أقدر على مواساتها. كنت أقف ناظراً لها بذلك السهوم والاستسلام المريرين. عينها الذابلة تحدق، مرة إلى الأرض ومرة إلى السماء. كانت تضع حنكها على كفها وترتحل في فلوات مرة ومساحات مجهولة. أصوات البشر الذين يسيرون باتجاه الإمام كانت قوية والحمام الرمادي يلون زرقة السماء.

لم أستطع التحدث بالمزيد مع جدتي، رغم أني شعرت بخوف جلي يحيط رأسي وأصابعي وكتفي. كان البرد قاسياً مريراً أشعر به وهو يخترق الجوع الذي بدأ يتسلل إلى البطن والعقل. وجه جدتي كان مثل الصفيح يتكسر في البرد الماثل أمامنا مثل غول. برد يتسلل إلى العظام والأعصاب والوجوه والروح. الروح أين هي الروح؟ ذلك الشبح الصقيل من معدن مترجرج ومتدحرج ومتأول ومتناغم مع الانجهاد. كلما كانت الشمس تنزاح باتجاه الغرب كان البرد يلوح بعصاه المطلية بالزمهرير والقسوة.

قلت لجدتي إني جائع. حملنا بطانيتنا وسرنا بين البشر. اشترت لي جدتي (لفة) كباب وعدنا إلى مكاننا. كنت التهم (اللفة) بسرعة قاسية وجوع ملهم يحيط ببطني وعقلي. شعرت بارتياح عارم بعد أن انتهيت من الأكل. بعض الفقراء كانوا يستجدون أي شيء يمكن أن تقدمه الأيادي المعوزة أصلاً. لم نستطع أن نمنح الأيادي الممدوة أي شيء. طلبت من

جدتي أن تمنح الآخرين بعض قطع النقد. رفضت بشدة، قالت إننا الآن فقراء، بل أكثر فقراً من الفقراء لكننا لا نستطيع أن نمد أيدينا.

- هل سنبقى هنا طويلاً؟. سألت.

أجابت بتمهل وكأنها تفكر بالإجابة. لا تدري. أغمضت عيني. قالت جدتي:

- إنه من الأفضل أن تنام.

لكن الأحلام لم تمنحني الدفء ولا البطانية. كلما أغمضت عيني أشاهد قبة الإمام والإمام نفسه يحمل رمحاً وسيفاً ويطارد المجهول. لكن هذا المجهول لم يكن غير نفسي المرتعشة. كنت أرتجف في الأحلام مثل مأفون، مثل خرتيت بقوائم طويلة تهتز كلما جاءت العاصفة. قلت لجدتي أن البرد لاسع، لا أستطيع النوم. لم نكن نملك بطانية أخرى.

شاهدت الانهيار على وجه جدتي. الغضون الكبيرة والصغيرة على وجهها تتقلص. نهضنا وقالت إنه من الأفضل أن ندخل الضريح مرة أخرى، هناك أفضل. سرنا مرة أخرى بين الجموع الملتفة بالبطاطين والعباءات الصوفية. الفضلات كانت منتشرة في كل مكان والأزبال تحيط بكل كومة من البشر. في داخل الضريح كان الدفء متوفراً. حاولت النوم لكن عقلي كان يرتحل بعيداً إلى راحيل حيث الأغاني الحزينة ورائحة جسدها وحيث الشعر ينهمر على وجهي بتناغم موسيقي. شعرت بعشق غريب ومتفجر إلى إعادة لمس أصابعها وتقبيلها أو حتى ضمها إلى صدري. أو أن تضمني هي إلى عوالم خيالية غير محسوسة. حينما كنت أنام في حضن راحيل كان العالم يتحول إلى قطعة موسيقية بأنغام متمواجة ورقراقة.

أنظر في عين جدتي. أنظر إلى أصابعها الملغزة وهي تحاول إحكام تدثيري. لكن إحساسي براحيل كان أكبر. لم نبق في الضريح طويلاً، إذ جاء أحد الملالي وطردنا إلى خارج الحضرة. عدنا مرة أخرى إلى مكاننا السابق

(الإيوان، الرازونة). بدأ الليل ببرودة جافة. حاولت جدتي تدثيري بشكل أفضل. صورة راحيل كانت تبدو مشوشة. لم أستطع رؤية وجهها بشكل واضح لكن ملمس جسدها والطهر الكبير الذي يحيطه كان يرمي على غلالة من الإحساس بالراحة. شعرت أنه يجب أن أعود إلى المنزل. كنت بحاجة فعلية للنوم بجانب راحيل. قلت هذا لجدتي. لكنها لم تعلق، كانت صامتة وهي تنظر إلى قبة الإمام المذهبة. أو تبتلع بعض الحسرات. قلت لجدتي إنه بإمكانها أن تتدثر بالبطانية لأني أريد التمشي.

وضعت البطانية على كتفها وأخذت أبتعد دائراً في المكان مثل طائر. كنت أنظر إلى الوجوه، إلى التكتلات العائلية وأشاهد غفوها وحينما انهمر مطر قليل التفت هذه العوائل على ذاتها بشدة. تذكرت الديدان الحلزونية التي كنت أراقبها وأنا أسير مع راعية الأبقار- اينانا-. في كثير من الأحيان كنت أحمل إحدى الديدان التي كانت تلتف على العصا وأحاول إغراقها في الماء، كانت الدودة ترتجف وتنضم إلى ذاتها من أجل مكافحة الغمر المائي.

لم تجد تلك العوائل مكاناً لها في الأواوين فاستقرت في الصحن الخارجي. الوجوه المثلجة والمبللة تبحث عن الإمام. الشعور بالقرب منه كان يمنحها انبلاجاً روحياً وتماساً مزدوجاً لفكرة المقدس فكانت لا تعير المطر أو البرد أهمية. بعض الرجال كانوا يجلسون مقرفصين ومتدثرين بالعباءات الصوفية. عيونهم ترقب شيئاً مجهولاً وأفواههم ينبعث منها البخار. كانوا يستمرون بالجلوس بهذه الطريقة ساعات، من أجل تحقق الحلم والمراد المؤجل إلى ما لا نهاية.

لم يكن هناك زمن بالمعنى المتعارف عليه. الزمن متوقف ويتخذ توقيتات متداخلة مع الرغبة الدفينة والأمل الخالص بالغفران، يا للروعة، إنهم ينتظرون القادم إن صح التعبير لكن هذا القادم ليس في عجلة. الإمام أمامه ملايين القضايا التي تنتظر التحقيق. كل الموجودين في الصحن كما قالت جدتي هم ضيوف الإمام. أما الإمام ذاته فكان يطوف على الجميع وهو في ترحال دائم وعين لا تستطيع النوم أبداً..

لم أستطع تخيل الفكرة المجنونة وهي تبحث عن إجابة عاجلة. كيف يستطيع الإمام أن يرى الجميع؟ كيف يمكن للإمام ألا ينام مثلنا نحن البشر أو يشعر بالجوع والبرد؟. أين هي عوالم هذا الإمام؟. الكثير، الكثير من الأفكار كانت تتراءى في ذهني الناحل وأنا أتدثر بالبطانية مع جدتي بعد أن عدت إليها بليلاً. غفوت في حضن جدتي وأنا متكور مثل قرد صغير وبعمق مفاجئ. عمق ليس له قرار ولا بداية أو نهاية. كانت الأفكار متصلة في حلقة مثل حباة المسبحة السوداء لجدتي وهي ترتحل في المقدس والغيبي للزمن الماثل أمامنا. أما ذهني، فيا للعنة، وضعت عليه المغاليق الشيطانية وغرقت في أحلام لم أشاهد مثلها من قبل.

كل أحلامي كانت عبارة عن ضياع موسيقي ومنشدين يصرخون في قاعات خالية من البشر الذين كانوا معلقين من رؤوسهم فيما الإمام يسوطهم. كنت أشاهد في أحلامي رغبات مكبوتة وهي تنطلق متخذة لبوس غريب ورجال ونساء وعاهرات وحليب وأثداء وبطون كبيرة مرنة مذاقها حسي فقط. في البدء خلقت الأم أرواح الحيوانات ومن ثم خلقت الذئب. بعد ذلك سلخت من الذئب ضلعاً وكسته باللحم فكان الرجل. حيوانات بدائية وأصابع متورمة وملكوت كوني في وسطه الأم، الربة، خالقة المجرات والمخلوقات الكونية المجهولة الشكل والطباع والرغبات والثآليل على الوجوه.

كنت غالباً ما أشاهد في أحلامي مواضع الطعنات والحرق والأثداء، كلها مجتمعة وكان حمادة، الحرامي الذي غزا بيتنا في ليلة همجية سابقة يمد يده مرة أخرى محاولاً سرقتنا، حتى في الأحلام يا حمادة. يا للبؤس. لم أكن أعرف كيف تدور صنعة الحلم، تلك التي يتقنها البعض فيما أنا لم أزل طفلاً ضائعاً في هذه المتاهة بلا أثواب وبلا دشاديش. فقط أحمل فانوساً وزيتاً لا يضيء المراقد المقدسة للآلهة. كان الزيت لا شرقي ولا غربي. زيت مصنوع من العته والتأمل وأوراق الياس السحرية واليوكالبتوس يشمخ نحو السماء وراحيل الابنوسة وشعرها الأحمر يستصرخ الوجع الدامي.

لم أعرف وجه راحيل في تلك الأحلام، ربما كان وجهها مغلفاً بالثمار المقدسة وربما كان مرمياً مثل آنية في معبد مجهول. كنت أصرخ، أن يا راحيل اظهري. لكن راحيل لا تبزغ ولا تظهر. فقط جسدها الأحمر والشعر المتموج النازل إلى الخصر من كتلة صخرية عوضاً عن الرأس. ليست الأحلام هي التي ترعبني،إنما الشوق المتولد من اللاشيء. أنتظر عودة راحيل مع أول إشراقة لنمو الحقول، حيث اليرقات الحيوانية وحيث الديدان الطويلة التي تخرق الأجساد وتستقر في المنطقة السفلى للامعاء. إنه ليس حلماً بالمعنى المتعارف عليه، إنما وهم كبير ووهم خارق للعادة وهو يجول في الأماكن المجهولة ليلتقط الحب من الحقول والذراري من المشاجب والطلقات من الشواجير.

إهراءات ضخمة، إهراءات متنوعة تشتمل على الحبوب والرصاص والكيروسين وعيون اينانا وهي تبتعث في قوم جهلة لتنير الدرب للومضات الدفينة. لم أكن أحلم بغير عصور شائخة بارزة العظام بسبب الجوع والارتحالات المتوالية. الزمن والخوف والاحتراق والمضاجعات والسرقات والأيادي والأصابع، كلها تستمطر الغيمات الوثنية في مشهد ناحل اللون. عيون مغلقة وأفواه ناعبة وأسنان محطمة وملابس رثة تسلق الجسد الناحل.

راحيل أكبر من أن يضمها حلم. هكذا كنت أقول وأنا أصحو فجأة لأشاهد جدتي لم تزل تتوسد كفها في أنين مدو وهي تنظر إلى لا مكان الوحشة الهشة. مرت علينا ثلاثة أيام طويلة مريرة. لم أستطع أن أحصل من جدتي على أية قطعة من النقود لأشتري لي بعض الحلوى. كانت جدتي تنظر إلى وجهي مثل تائه أبدي أو بحار أضاع اصطرلاب الزمن والأماكن. كل يوم كان يمضي كانت تزداد اضمحلالاً، تقصفاً. طيلة الثلاثة أيام الفائتة لم تتناول جدتي شيئاً يذكر من الطعام. كنت أهرب حينما تغفو إغفاءاتها القصيرة والداكنة لأقوم بجولة مع البرصان والعرجان والمشوهين ولأحصل على بعض كسر الخبز اليابس أو بعض التمر.

بعد اليوم الرابع قالت جدتي إنه من الأفضل أن نرحل عن هذا المكان، سيقتلنا الجوع هنا. لم تذكر جدتي راحيل طيلة الأيام السابقة لكنني حينما أتلفظ باسم راحيل كانت تئن وتتوجع وتتغير سحنتها. راحيل ستبيع البيت. قالت دون أن تضيف الكثير، لن نستطيع العودة إلى المنزل. شعرت بتشوش كبير، هائل. خوف يتسرب بحدة إلى روحي. نظرت إلى الإمام بقوة. كنت أريد أن أنام في حضن راحيل. جدتي كانت الأكثر حناناً بالنسبة لي لكن ثمة شيء كبير يشدني إلى راحيل.

في بعض الأحيان كنت أشعر أني جزء من راحيل. جزء من تكوينها الفيزيقي والنفسي والبيولوجي. أنفاسها كانت تمنحني أفقاً جذاباً وملوناً، حتى رائحتها كانت تسحرني. كنت أشعر بالخدر اللذيذ والراحة العميقة حينما أتشمم رائحة كتفها وابطيها. كنت أمتص العرق النازل من تحت أذنيها حينما تصل المنزل بعد يوم عمل مضني وكبير. في بعض الأحيان كانت تدفعني لتمنعني من تشمم رائحتها لكني كنت أبتكر طرقاً مجهولة بالنسبة لها لأتشمم العطر المتعرق والسائح على الرقبة وفي أحيان كثيرة كنت ألف وجهي بشعرها وأغرق في تهويمة كبيرة ليس لها نهاية أبداً. جدتي كانت هي الأخرى تضمني إلى صدرها، تعتصرني وتتنفس رائحتي. كانت تقول إن رائحتي تشبه رائحة أبي. لكن لم أكن أشعر بالراحة ولا الاسترخاء في حضنها. كان حضنها وإضمامتها لي تكتسب طعماً حامضياً وخشناً. ربما كان هذا بتأثير الملابس السوداء التي ترتديها وربما كان هذا بفعل (فوطتها) الخشنة المصنوعة من خيوط البريسم.

في كل الأحوال كان الإحساس بالضم يؤلمني وأقل إمتاعاً من إضمامة راحيل الناعمة والشهية. بعد اليوم الثالث أصبحت أشعر بشوق كبير لراحيل. أخذت أشاهدها في تكرار أحلامي. كانت أحلامي صغيرة ومرتبكة وغالباً ما كنت أركض في هذه الأحلام لكن الطريق يمتد إلى ما لا نهاية، فأشعر بالإرهاق واللاجدوى، وأتوقف لتهجم علي بغتة غربان كالحة

و سوداء تريد أن تدمي رأسي. حكيت أحلامي لجدتي التي أخذت تقرأ على رأسي الأدعية وتنفخ في وجهي نفخات طويلة وقصيرة. لكن الأحلام والغربان لم تشعر باليأس وبقيت تهاجمني.. بعد اليوم الرابع حملنا بطانيتنا وانتقلنا بواسطة (الربل) إلى فضوة عرب. كان لجدتي بعض المعارف هناك. تسلفت منهم بعض الدراهم وانتقلنا إلى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

وصلنا المرقد في حوالي الساعة الخامسة عصراً وتوجهنا في الحال إلى مطبخ الخيرات. حملنا طاستنا التي وجدناها قرب المطبخ و وضع لنا هنود حساء لم أعرف سر تكوينه. كان خلطة سحرية ولذيذة تفوح رائحته من مسافة بعيدة. انكببنا أنا وجدتي على الطاس ومسحناها إلى القعر. بعد الانتهاء من الطعام احتفظنا بالطاس ضمن أغراضنا، إذ قالت جدتي إنه من الأفضل أن نحتفظ به فربما لا نجد طاسا في اليوم التالي. بعد العشاء أنيرت الأضواء وبعد صلاة العشاء تجمع الدراويش والمجذوبين في حلقات صغيرة وبدأت قراءات طويلة وترنح وانجذاب. بعض الدراويش كان يصرخ من الوجد والمجاذيب يبكون بصمت وعيونهم مملوءة بالدمع. كانت الباحة الخارجية للضريح نظيفة للغاية والعوائل القادمة اتخذت لها أمكنة في الأواوين الخارجية.

بعد أن انتهينا من الطعام اتخذنا نحن أيضاً أحد الأواوين مقراً لنا وشاركتنا فيه عائلة مكونة من أرملة وأربعة بنات.

*****

مرت أيام على إقامتنا في اكناف عبد القادر الكيلاني. الإقامة الطويلة جعلت جدتي تصرف آخر ما تملك من مال. لم نعد نملك شيئاً باستثناء بطانيتنا وبعض الخرق التي منحنا إياها بعض المارة. جارتنا أم البنات رحلت من أيام طويلة باتجاه الجنوب حيث تمتلك هناك بعض الأقارب الذين يمكن أن يعينوها، خاصة أن في رقبتها بنات بعمر الزواج. بقيت جدتي بلا أصدقاء.

في السابق كنت أستطيع أن أقرأ ملامح جدتي أما الآن فلم يعد أي

شيء يشبه كل شيء. كنت أفكر في راحيل بمرارة. أتمنى رؤية وجهها ولو للحظات. كل الرؤى فارقتني، انخلعت عني. في بعض الأحيان حينما كنت أترك جدتي لأتمشى في المكان كنت أشعر أني تائه. ثمة برد يتسلل إلى ساقي وظهري فيقشعر له بدني وأركض إلى دورة المياه لأتبول لكن لم يكن هناك بول. بل سائل أحمر وأصفر. قلت هذا لجدتي وجاءت معي لتشاهد الآلام الفظيعة التي كنت أشعر بها وأنا أتبول. بعد ذلك لم أعد أستطيع السير. أخذت جدتي تدثرني بثبات وقوة أكثر وعرضتني على بعض المجذوبين والدراويش لكن الدم لم يتوقف. كنت أرتعش لكني كنت أعرف أن عودتي إلى راحيل كفيلة بأن تجعلني بألف خير.

- لا تستطيع أن ترى راحيل، لا نعلم أين هي الآن.

قالت جدتي بتشوش.

في المساء ارتفعت حرارتي وبدأت أهذي. كنت أشاهد الأخيلة وهي تتماوج وتتداخل. رؤوس كبيرة وعمائم تخرج من النهر، تلتهمها فجأة حيوانات بأجساد بشرية. كنت أشعر بالرعب من هذه الكوابيس. كنت أصحو بين الفينة الأخرى لأشرب قليلاً من الماء ثم أعود مجبراً إلى الكوابيس والوحوش وجسد راحيل وأثداء كبيرة ولحم طري أغرق فيه، لكن الوحوش التي تشبه الكلاب وبأجساد آدمية كانت تنهش أعضائي دون أن أستطيع إبعادها أو الهرب منها إلى أي جهة. قالت جدتي:

- إننا يجب أن نذهب إلى عمك في الباب الشرقي عسى أن يمنحنا بعض النقود لرؤية الطبيب.

وقفت وأنا ارتعش. كنت أتصبب عرقاً. سرنا بضعة خطوات ولم أستطع أن أكمل. أخذت جدتي تبكي. شاهدت الدموع المقدسة لها وهي تسيح. كانت تولول. لم نكن نمتلك مالاً لتأجير ربل أو سيارة لإيصالنا إلى الباب الشرقي.

- يجب أن تسير.

قالت جدتي، وبدأت تعينني. وصلنا إلى ساحة التحرير. من هناك أخذت جدتي تدخل المقاهي لتسأل عن عمي. بعد أربعة مقاه يكثر البصاق على أرضها عرفنا أن عمي يعمل في مقهى العاصمة. وصلنا المقهى المذكور وانزلقنا إلى الداخل. كان المقهى يغص بالزبائن من جباة الباصات الحكومية والرعاة وأجناس مختلفة تتجمع كلها حول مدفئة كبيرة. عندما شاهدنا عمي هرع إلينا وهو يحمل مجموعة كبيرة من استكانات الشاي. طلب أن ننتظره. خرجنا من المقهى الغارق في دخان السجائر والنارجيلات وقرقعة أحجار الدومينو والأصوات الشبحية.

وقفنا عند المدخل مثل شحاذين. بعد لحظات جاء عمي وهو يمسح يده (بالوزرة) التي تلتف عليه. ابتدأت جدتي الحديث طالبة منه مبلغاً من المال للذهاب إلى الطبيب. أخذ عمي يبربر ويتأسف قائلاً إنه لا يملك نقوداً. اشتدت جدتي في الكلام وأخذت تقرعه بقوة. عمي يقول إنه لم يقبض أسبوعيته حتى الآن. قالت جدتي إنها لا تهتم وعليه أن يدبر أمره بأي شكل. أخذ عمي يقسم أنه لا يملك عانة واحدة. بحدة أجابت جدتي أن هذا كله بسبب الزقنبوت الذي يشربه والقحاب التي يصرف عليها في (الكلجية). انفعل عمي وقال لها إنه لم يشرب منذ عاشور العام الماضي ولم يذهب إلى الكلجية. لم تعره جدتي اهتماماً وقالت إنها لا تريد أن تسمع المزيد، عليه أن يدبر أمره.

ذهب عمي بسرعة إلى داخل المقهى وبعدها عاد وهو يحمل مبلغاً من المال قال إنه استلفه من أحد جباة مصلحة نقل الركاب. أخذت جدتي المبلغ بعصبية حتى تصورت أنها سوف ترفع النعال وتضربه. سرنا بضعة خطوات وسألت جدتي أحد المارة عن عيادة طبيب قريبة.. دخلنا العيادة وبعد أن فحصني الطبيب قال إني بحاجة إلى الدفء فقط. عدنا مرة أخرى إلى المقهى. طلبت جدتي أن أبقى في الخارج ريثما تجد عمي ثانية. بعد وقت

ليس طويلاً عادت جدتي وعمي الذي أخذني إلى داخل المقهى فيما قالت جدتي إنها ستعود بعد ذلك لتأخذني وأن علي أن أبقى هنا بعض الوقت ريثما تستطيع تدبير مكان نعيش فيه.

الفصل السادس

عالم غريب ومجحف ومائع وفوضوي ومتداخل، ذلك هو عالم المقهى الذي دخلته لأول مرة. كنت مشوشاً جداً. من تحت الطاولات تئن الأرض التي تمتد إلى المراحيض الوحيدة حيث الصراصير تتحرك في هيام هستيري باحثة عن لقمة تقيم به أودها. أصدقائي الجرذان كانوا يبحثون أيضاً تحت الطاولات، عن بقايا الخبز. عن قطع قيمر العرب وفتات الجبن الملوث بالمايكروبات الطائرة والزاحفة والخامدة والمتوثبة.

مهرجون في غرف نائية ومسالخ للخراف (العاوية). جباة مصلحة نقل الركاب يتسللون إلى المقهى مثل براغيث. أصوات الذباب والطنين تنهمر علينا مثل المطر الملغز بوهدات المياه الآسنة والطين الشاحب. رعاة الأغنام تفوح منهم روائح القطيع والبعرور والمطال يهمهمون ويبيعون قطعانهم في أبدية تبدو بلا نهاية. أصوات وصراخ وتوسل وانهيار وجنود هاربون من الخدمة العسكرية وقوادون وسحرة ورجال بلا أثر وأثر بلا رجال. عالم لم أفهم منه إلا القليل، يتخبط بين الجدران التي تبدو في هذه الظلمة الخانقة بلا لون أو طعم.

عمي يدور مثل الشائه، مثل شيء لا شبيه له، يوزع استكانات الشاي على الأفواه الفاغرة والمفتوحة لسقف مسود بلا نهاية. كان يتكلم ويصرخ ويخرج أصواتاً من بين أسنانه. أجلسني في زاوية بعيدة عن الحشود الغارقة في الشاي الأسود. كنت أفكر في تلك اللحظات في العالم المذهل المبرغث

والفوضوي الذي أمامي وقد غادرت لتوي عالم من البياض الشفاف والكوني..

شعرت في ذلك الزمن بشوق غامر ومبهج للعودة إلى راحيل التي بدأت تتحول إلى أحلام بعيدة جداً. البرد القاتل يمسك أعصابي وجسدي وكان مجرد التفكير في راحيل يمنحني الدفء النهائي والكوني. راحيل لم أشاهدها منذ اليوم الذي خرجت فيه مع جدتي بصحبة بطانيتنا الوحيدة وبعض الدراهم الليلكية. كنت أبكي في بعض الأحيان وحينما كانت جدتي تسألني، كنت أقول لها إن حذائي يؤلمني. كنت أشعر في ذلك الزمن- لحظات البكاء الصديدي- أن راحيل ربما قد رحلت إلى الأبد ولم أفهم لماذا تغير العالم فجأة كما عيون اينانا حينما شبت النار في جسدها وهي تضرب به الحائط.

جدتي قالت إنني أصبحت رجلاً. أنت لست امرأة. توقفت عن البكاء أمامها لكني كنت أبكي حينما أدخل المرحاض. أنت هناك يا راحيل، في الأدغال والغابات التي تريد أن تلتهم أصص الزهر المتكون على جدران الرغبة القتيلة. سفع الريح وثيمة التوقد وهي تتدحرج إلى الوراء باتجاه المرتفع. كل شيء في ابتعادك القسري والهمجي عني كان يشكل لوعة وغصص قاتلة. كنت أفتح صنبور الماء وأقلب الإبريق وأبكي بصوت مخنوق. الغصص لا تنتهي ولم أكن أعرف كيف كانت تنتهي محاولاتي البدائية في كبح الالم. اعتصر روحي. أمسك بملابسي وأحاول تمزيقها وحينما لا يتمزق منها إلا القليل كنت أغرق مرة أخرى في بكاء ناحب. أشبه بغراب لكن هل كانت تبكي العصافير والفخاتي والحمام مثلما أفعل أنا.

في إحدى المرات وفيما كنت أجول في حضرة سيدي وقرة عيني عبد القادر الكيلاني. لمحت بيضة عصفور محطمة على الأرض. أخذ العصفور يدور حول البيضة المهشمة. كان يتلوى وهو يطير ويئن من أثر لاعج للوجع. لم أكن أعرف كيف كان بإمكاني إنجاد هذا العصفور.. كنت أريد أن أساعده. لكنني لم أستطع فالبيضة مهشمة وصفارها يسيح على الأرض.

أثار هذا في نفسي تساؤلات من مثل، لِمَ لم ينجد سيدي وقرة عيني عبد القادر هذا العصفور المتحشرج من الوجع. المكلوم، المحطم، القتيل، المألوم. لم أكن أعرف ولم أكن أريد تبريراً لعدم مساعدته.

يوم كامل مر علي وقتها وأنا أنتظر معجزة ما. معجزة يمكن أن تنزع الألم عن العصفور، لكن لا مغيث. كانت الرغبة في مشاهدة الألم مريرة وقاتلة. كلهم كانوا يريدون للألم أن يستمر، ينمو، يتبرعم، يتسلق الروح، يخنق النفس، يحطم الصدر والأضلاع. كلهم كانوا غير قادرين على إنجاد هذا العصفور بما فيهم أنا. في تلك اللحظة، الزمن، الدقيقة. المشاعية في العواطف. الانبهار، التلكؤ.. في تلك الأزمنة شعرت للمرة الأولى بانفصال وعي الذاتي عن الوعي الكلي المحيط بي.

في الليل وبعد أن نامت جدتي أخذت أحلم بالموت والبكاء. كنت أنز عرقاً ودموعاً. لم أستطع التوقف إلا بعد محاولات عديدة. الشهقات ترتفع مدوية فأعود مرة ثانية إلى البكاء للتخلص من الاختناق. كنت أبكي الزمن القذر غير القادر على إعادة السلوى لهذا العصفور. الأمل في إضمامة شفيفة للبيضة واحتضانها مرة أخرى تحت جنح الرغبة والهاجس في خلق عصفور جديد وإرساله إلى الأدغال والصحراء والحياة ليبدأ بهجة وجودية في الكائن الكلي المحجوب عنا بضروب الأستار.

في العزلة المريرة التي كنت أقضيها في مرحاض سيدي عبد القادر. كنت أرسم الأزمنة وأجري أحاديث مطولة مع الحيطان. كل ذكرى أليمة كانت تمر في ذهني كنت أحولها إلى بكاء. كنت أبكي العصفور واينانا وراحيل وكل الأشياء بمن فيها موت الدودة المفاجي حينما أغرقتها في المياه. لم أكن أعرف لم فعلت هذا. كنت أطارد النمل وأحرق بيوته ثم أهاجم أعشاش العصافير وأطوح بها، وفي مناسبات ثانية كنت أبحث عن أعشاش الدبابير لأحرقها. كنت أشبه بمخبول.

كل هذا تحول في استنطاقي لوجه راحيل إلى بكاء. كنت أبكي راحيل

وأبكي العصفور وأبكي البيضة وأبكي الديدان وأبكي الضفادع التي كنت أعذبها بأصابعي وبسكين المطبخ. أبكي الأبقار والأغنام والقطط والكلاب الهرمة والخيول المهزومة من الزمن والتي شاخت وتركت في البراري. كنت أعذب كل شيء يقع تحت يدي حتى أن أصحابي أبناء الجيران أطلقوا علي لقب الجزار والقاتل والمخبول. لكنني الآن أبكيهم كلهم. أبكيهم واحداً واحداً وزوجاً زوجاً وعيناً بعد عين وأنا أشاهد الهيستيريا الغريبة التي يصاب بها النمل حينما أغرق بيوته بالماء أو أشعل النيران فيهم وهم يحملون صرصاراً ميتاً مؤونة للشتاء. كنت أفعل هذا لأعلن اعتراضي المريع والمعبأ بالبكاء على عدم تواجد راحيل معي وانشغالها بالعمل.

لكن الله لم يكن يغفر لي ولا اعتقد أنه سيغفر، لذلك عاقبني بإبعاد راحيل عني. وقد سألت جدتي عما إذا كانت السماء تخطئ. فقالت لا. لكنها بعد أيام من تشردنا وجوعنا وابترادنا قالت نعم، في بعض الأحيان. وحينما خرجنا من مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني قالت إنها تخطئ في غالب الأحيان ولما طردنا من قبل معارفنا ورفضوا إيوائنا قالت إنها تخطئ دائماً. وأنا أيضاً أعتقد لا بل أقسم أن السماء دائماً كانت إلى الجانب السيء من هذا العالم وأنه ليس الغاية التي أبحث عنها إنما أبحث عن شيء مفقود وشيء أكثر اكتمالاً مما بين ايدينا. شيء يستطيع أن يعيد لي راحيل وأن يمنحنا الدفء ويواسي المخلوقات. المرحاض أصبح عالماً فيزيقياً لي، فيه أعيد تكوين الأحلام واستذكارها.

كانت هناك فوضى عارمة في ذهني، فوضى غريبة لكن الله لم يكن يحبني وكنت أشعر بأنه يكرهني بقوة. هذا ما كنت أحس به أو نبهني البعض من الأصحاب أنه حينما يموت الأب تاركاً ابناً فإن هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً هو أن الله يكره هذا الابن والابن من جانبه سوف يكون شيطاناً كريهاً. كنت أسمع في بعض الأحيان من يقول. المرأة لا تستطيع أن تهذب أخلاق طفل، الأب فقط هو القادر على تربية طفل تربية سليمة. كان أصدقائي ينقلون لي ما يقوله آباؤهم أو أمهاتهم عني. وكنت أنقل بدوري

ما أسمع إلى جدتي التي تثور وهي تتوعد هذا الجار أو ذاك على قلة الأدب.

إنها قادرة على تربيتي أفضل تربية، كانت تقول، وإنهم هم الذين ليست لديهم تربية. كانت متعلقة بي تعلقا قهريا. كانت في بعض الأحيان تسألني إن كنت أشاهد أبي في الأحلام. فأقول لها لا، وكانت تحزن بعمق وفي بعض الأحيان كانت تبكي بمرارة ووجع، كنت أقول لها أن لا تحزن لأني سأكون عوضاً عن ابنها فكانت تنظر إلى وجهي في دهشة كبيرة ومتوسلة ثم تضمني إليها وتتنفس أنفاسي.

أمام هذا البكاء الصامت قررت مواساتها بأن أكذب وأقول نعم شاهدت أبي في حلم الليلة الماضية. كانت تفرح بجبروت كبير، بعمق مدو ثم تتوسلني أن أسرد لها ما قاله. كنت أشعر بالشفقة ولا أعرف لم كانت تتوسل أية رسالة منه. مع مرور الوقت أخذت أخترع لها قصصاً طويلة واحاديث منقولة عن أبي. كانت تنشج وتتحول إلى آذان صاغية بهوس غريب ورنان. المسكينة كانت تمسك بكتفي وتستنطقني عن كل شيء، مثل هل شاهدت معه الكواكب، الأتراب؟، هل شاهدت حدائق وبساتين؟، هل شاهدت أنهر العسل والخمر واللؤلؤ والمرجان؟. هل كان يجلس على أريكة مصنوعة من أعراف الزمرد والياقوت؟ ثم هل كانت النساء تحيط به والولدان؟. كنت أقول لها نعم بعد كل سؤال توجهه لي وكنت ألاحظ تغير الابتسامة الكئيبة على وجهها، الفرحة الناقصة في فراقه لكن مع الاستسلام لأنه يعيش الآن في الجنة.

كانت تضحك ضحكة خفيفة وهي تتحدث عن نساء الجنة وتشعر براحة عميقة بعد أن تصف لي جنان الخلد والفراديس المعلقة في قبة السماء مثل هودج عرس كبير لأميرة غاية في الروعة والجمال. في بعض الأحيان كانت تقول إنها تتمنى أن ترحل إلى أبي حيث يعيش أجمل لحظات الخلود لكني الآن أمثل لها مشكلة عويصة. لقد تركني لها ويجب عليها أن تربيني.

في بعض الأحيان كنت أشعر بالعار من نفسي كوني أصبحت حملاً

تنوء به، مجرد طفيلي بائس، زائدة دودية. في أحيان أخرى كانت تتكلم بعصبية حينما كنا لا نجد مكاناً نبيت فيه، وتلعن أبي الذي توفي وتركني تحت مسؤوليتها حينما قال لها وهو في الرمق الأخير، لا أريد لأبني أن يعيش مع زوج أم. كانت تقول هذه الأحاديث لي وكنت أشعر غالباً أني أسبب الآلام لإنسان آخر. لم أعرف كم كانت درجة هذه الآلام لكنني غالباً ما كنت أفكر في الهرب، لكن إلى أين؟، لم أكن أعرف. الآن ربما تتوفر فرصة أكبر بالنسبة لي حيث أعيش مع عمي في المقهى.

حاولت الهروب لأول مرة بعدما لاحظني عمي أني أدخن أعقاب السجائر المرمية على الأرض، فضربني بقسوة وبحزام جلدي خشن بقيت أياماً طويلة أتوجع منه. في ذلك الوقت نفذت مشروعي الجهنمي، الفرار. خرجت من المقهى إلى ساحة التحرير حيث باعة الجرائد واللبن الزبادي وسجائر المفرد واحتياجات الجنود والسينمات وعربات (الشلغم واللبلبي). خرجت للمرة الأولى إلى زمن مغاير وصعدت أحد الباصات.

كنت قررت أن أذهب إلى راحيل لكنني لم أكن أعرف في أي مستشفى تعمل. جلست في الباص وأنا أحمل كيسا صغيرا فيه نعالي وقميص شتائي واحد. بعد أن تحرك الباص جاء (الجابي) وما أن وصل بالقرب مني حتى توقف هلعاً وقال، ماذا تفعل هنا؟، هل عمك معك؟. قلت له لا، أنا وحدي. مد يده الكبيرة والهائلة وأمسك بياقتي وسحبني أشبه بخروف مريض. أجلسني بالقرب من مكانه عند الباب الخلفي. فكرت في تلك اللحظات أن أقفز من الباص إلى الشارع لكن سرعة الباص وتسارع الشارع أخافني فاستسلمت وبقيت ممسكاً كيس أغراضي وأتطلع إلى الناس برعب وخوف. كنت أدرك أن عمي سوف يعاقبني بشدة لكنني أخذت أشعر أني قادر على مواجهة ضربه القاسي وقادراً على تحمل ضربات الحزام الجلدي.

بعد دورة كاملة وصل الباص إلى ساحة التحرير، أمسكني الجابي من

يدي وقادني إلى داخل المقهى. في تلك اللحظات لم أشاهد عمي وقال صاحب المقهى إن عمك خرج يبحث عنك، ثم أجلسني قربه بعد أن طلب الجابي منه أن ينتبه لي كي لا أعاود الهروب. كنت أشعر وأنا بانتظار عمي بأني أنتظر ليوثان التي ستحطمني، القدر البغيض.

تعرفت وأنا جالس بالقرب من صاحب المقهى على نوفل، ابن صاحب المقهى الذي يكبرني بسنوات عديدة. دار بيني وبين نوفل حديث طويل استطعت خلاله أن أنسى أني بانتظار العقاب الجهنمي. بدا نوفل بالنسبة لي خزّانا من المعلومات. كان يعرف كل شيء خارج وداخل المقهى. يعرف حتى الطريقة التي يجب أن نتعامل بها في حالة عقابنا. قال:

- عندما يضربك عمك اهرب من أمامه إلى أي مكان وليكن هذا المكان خارج المقهى، حينما يرى عمك أنه فشل في إيصال رسالته لك سوف يترك الضرب. حاول محاولات عديدة، لا تستسلم، هدده بأنك سوف تهرب، عندئذ سوف يستسلم لك.

وعدني نوفل بأنه سوف يرعاني ويعلمني الكثير خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع الكبار (الكواويد). وأراني يده التي كسرها له الأب لكنه استطاع أن يعاقبه بقوة جعلت الأب يندم على الساعة التي ولد فيها، أخذ نوفل يضحك بصوت خافت وهو ينظر إلى أبيه الجالس خلف طاولة عتيقة وأمامه طاس من النحاس الأصفر لجمع ثمن الشاي. تأخر عمي وأخذت أشعر بأن القوة التي صممت بها مواجهته تخور وتهرب وتتلاشى. الحديث الطويل مع نوفل لم يستطع أن ينسيني التفكير في العقاب المنتظر وكنت أشعر أني غير قادر على مواجهة غضب عمي أو التخلص من ضرباته المدمرة.

طلبت من صاحب المقهى الإذن للذهاب إلى المرحاض. هناك كانت آلام المغص تدمرني وأخذت بالأنين، أمعائي كانت تقذف الغائط على عجل مع الكثير من الضراط. كنت أشعر بالخوف المضاعف، الخوف

الأول من الضرب أما الثاني فكان من الوقوع في الفتحة الهائلة للمرحاض والتي كانت تبتلع كل شيء بقوة مذهلة وسريعة..

ينبثق صوت نوفل وهو يناديني ويقول لي: إنك لست في الكازينو. أخرج بسرعة. لم يكن نوفل يفهم أني كنت أمارس الحلم بعوالم من الضباب والصور القرمزية والوجوه المتآكلة. الحيوانات عالم شكلي وغيري ومنبوذ من الآخرين، لكن حيواناتي الناتئة من ثقب المرحاض كانت تنقلني إلى عوالم غير مؤكدة لكنها حقيقة إذا ما أردت للعالم أن يستمر في تمدده الغيري.

نوفل لا يفهم حكايات الجن الذي يخرج من فتحات المراحيض لأنه لم يكن يعشق المراحيض أصلاً ولم يجد فيها ما هو جديد أبداً. الوحيد هو أنا، من يجد ويبحث في الطهارة عن سر المرحاض. كان لي في أزمنة ماضية، مرحاض مثالي يفوح برائحة الاسفنيك والتنتريوك، أما الآن فأنا أجر عربة مليئة بالصراصير والحيثيات المتآكلة وأتبع صوت بولي في أبدية المكان المظلم والكدرة العارمة. كنت أحلم أو أمارس أحلامي في الحقيقة، بين ظهراني المرحاض، في الأفول الشمسي للأرض واخترع متاهات وحيوانات أسطورية وكانت هذه الحيوانات تتكلم.

في المرحاض كنت أخطط دائماً لمغامراتي الوثنية وصولاتي في شارعنا. تلك المغامرات التي تنتهي دائماً بمصيبة تسرع جدتي أو راحيل لمعالجتها، أما هنا فكنت أهرب خوفاً من عقوبة أو توبيخ أو نعال أسود مصنوع من البلاستك غير المرن. هنا حيث الظلمة، أصبحت أحلامي أشبه بجثة حصان، جثة عفنة و كنت أنسى الوجع، أنسى المغص الفوضوي وهو يداهمني بعجالة بعد لوثة برد. ليس هذا من أجل فرصة تفكير، إنما من أجل أن أحلق بعيداً، لكن الظلمة تقتلني وتضيف إلى حيواناتي الأليفة حيوانات متوحشة وحشرات بائسة وكبيرة الحجم ومرعبة إلى حد الشلل.

- أين صرت؟

يصـرخ نوفل. لكن آذاني بدأت في عدم استلام إيعازاته ونداءاتـه. في الحقيقة بدأت أتآلف مع المكان رغبـة في إيجـاد تخيلات جديـدة غـير تلـك السابقة التي كنت أمارسها في مرحاض بيتنا أو مرحاض سيدي وقرة عيني الشيخ عبد القادر الكيلاني. صوت نوفل يستعجلني. لا يفهـم هـذا الحـمار أني بدأت للتو في الاندماج مـع هـذا العـالم وصـنع أحـلام متدفقـة ورؤى خيالية وعصابات وقطاع طرق وعربات وخيول ومعـارك وجيـوش، كـل هذه الأشياء كانت على هيئة رسوم شكلها الغائط الممسوح بالحـائط بكـف اليد. الكثير من زبائن المقهى كان ينظف نفسه بالمـاء وحيـنما ينفـد المـاء أو ينقطع يمسح ما تبقى من الغائط على الحائط..

كان عمي قد عاد من البحث عني وحينما شـاهده نوفـل أسرع نحـو أبيه طالبا منه التدخل. وجه عمي تحول في الكدرة الخانقـة للمقهـى إلى مـا يشبه وجه وحش خارج من الميثالوجيا. حنكه متهدل وعيناه غائمتان. إنهـا المرة الأولى التي أشاهد فيهـا عينـا بمثـل هـذه القـسوة والمـرة الأولى التـي اكتشف فيها أن للعين بريقاً وسلطة وجبروت وتمرد ووحشية وانفكاك كلي من دائرة المحيط الإنساني. ارتفعت يداه بجمود شائه وانهالت على وجهـي وظهري صفعاً.

دخيلك أيها الرب، رب راحيل وارميا وايلياء واوتـو نبـشتم وايـنانـا المحروقة حتى الذوبان. كان يرفع كفه إلى الأعلى ووجهه يتحول إلى صفيح مجعد، صفيح مضرب بعشرات الحقن والتحاميـل الـشرجية. حتـى حيـنما تعتصر وتعض بأسنانك على يـدك فـإن الـضرب كـان يـستمر في انـسيابية عالية. انثيال حر وانثيال متنـاغم وانثيـال ممـزوج بالأوعيـة الدمويـة وهـي تتفجر مرتعشة ومسودة الزمن. كنت أعـرف هـذا الهبـاء، هـذا اللغـز مـن ارتفاع الذراع. كنت أعتقد أن هذه الـذراع هـي ذراع الله لكـن للأسـف لم تكن هي يد الله إنما يد شيء ما وراء الله. هل قلت هذا فعلاً يـا للعنـة وهـل هناك شيء خارج الله وخـارج ذاتـه الكليـة والـشاملة والمذيبـة للـدم. دم،

وأصابع ترتجف وإحساس بالثمالة ويده ترتفع وتنخفض ثم تضرب كما تضرب البحار ساحل الألم الممزوج بالأذى والوجع.

كانت عظامي تقرقع مع كل ضربة وكأنها ضربات ليوثان والإله واقف يزبد ويرعد وموسى يرتعش أمامه مبهوراً من الهالة الكبريتية العميقة التي تحيطه. كسر يا عمي، اضرب كما تضرب الأشياء بعضها البعض فيصدر رنين خافت مكتوم، العظام لا تصدر القرقعة التي تريدها لذلك أمامك فرصة جهنمية وفرصة سانحة من أجل تكسير العظام بالرغم من أني قررت أن لا أبكي. كل شيء يتحول إلى سائل بحري وشوربة بشعرية طويلة وممتدة من السماء السابعة حتى أرض النكران، أرضك يا بابل وأنا الرب أسمع صراخ المعذبين والجوعي والمألومين والمصروعين وأهل الكآبة وتورم الخصية ووجع الأسنان.

اضرب يا عمي بعصاك البحر وأخرج السلطعونات والأسماك والقواقع والحيتان والأعشاب والنيوترونات والأسماك ذات المناشير والجري والشانك والزبيدي والبز والبني والروبيان وكل المخلوقات الضعيفة.

اضرب كما بدا لك فقد قررت أن لا أبكي بعد الآن رغم أني مشوه من الداخل وأعاني من شلل دمعي وإفرازي. كنت أصمت لا أتأوه، فمي يرتعش ويرتجف وأسناني المليئة بالبقع السوداء تتناثر في كل مكان فأقوم وأجمعها مثل التائه، أجمعها كما تجمع الحوريات الجنائنية الرجال من سوق النخاسة. الزمن يتلوى، يرتعش ويتلاشى في المكان. ترتفع يد عمي بتتابع مدوزن وتنهمر وعندما لا أبكي يجلب عمي الحزام الجلدي وينهمك متتابعاً في سلخ جلدي، في البدء كان ظهري يؤلمني، يحترق بنار بلا ضوء وكل ضربة كانت تنهمر، كنت أرى فيها العالم المكون من باعة الدجاج والبيض والقيمر والشيخ عبد القادر وباعة السمك والخضرة والفقراء والمساكين والصرعى والمخبولين والمشوهين والأكراد والخصيان والعوران

والعميان والمفلوجين والعرجان. كل هؤلاء كانوا ينورون عالمي القرميدي. عالمي المبني على الحديد المتآكل وجوع جدتي والهباء الكلي والعماء الإلهي والطيور الهاربة والسكارى والمأفونين وباعة الشلغم والباقلاء واللبلبي أبو الفروج والجكليت والسميط والبورك وحب شمس قمر والعنبة بالصمون والقراءات المحمدية والولائم والطوس النحاسية والدفوف والأطفال والعربنجية والفروخ والفرخجية واللمبجية والنزاحين والهنود واندلاق الحساء القادري في أفواه الصرعى والمخبولين والحمالين والعتالين والسوقة والمجانين والمخانيث واليتامى والأرامل والبكاء والدشاديش المقلمة الوسخة والمخاط الملتصق خارج الأنوف والعري الشبحي للبرد وهو يضرب أقفيتنا ورؤوسنا.

دراويش في كل العالم، في الهباء والوسخ والطين والعماء والآلهة والسند والهند وسيحون وجيحون والقرود والحيات والأفاعي والمجاري المفتوحة والمياه الآسنة والبرك والطنين والبعوض والذباب والقمل والصواب وحبة بغداد والخيل والحصن والبغال والحمير الحساوي والروث والمطال والشعير والحنطة والتبغ والنراجيل والجمرات الملتهبة والمقاهي الملوثة بالبصاق. مع كل ضربة أغوص في تراتيل سيدي وقرة عيني عبد القادر الكيلاني والمدائح النبوية وحلقات الذكر والمنشدين والتهام اللحم والرز والباجة والكرشة ورؤوس الحملان والمصارين والممبار والكوارع والشحم والالية والزلاطة والبصل الاخضر والشنينة والفجل والكراث والجاجيك وكتحلية كان هناك شراب الرمان والبلنكو والسيفون والنامليت وقمر الدين والعلوجة وشربت الزبيب ثم مشن وكوكا كولا وسينالكو وكندا دراي وبعد التحلية تنتشر السجائر، غازي وتركي والمزبن وروثمان وكرفن (ابوالبزون).

سوف لن أبكي يا عمي، لأن كل هذه الأشياء كانت تدور أمامي وأفكر فيها غارقا إلى الأبد في زمن توراتي وزمن خرافي قادم من ممالك

الكون المضطرب، ضرباتك تتساقط على ظهري بوجع مأفون ولوثتك العقلية وأغاني أم كلثوم ودفاتر الأغاني كلها تزمجر وترتفع في عواء مدهش وسريع. أنغام تترى وتنزلق من الأعالي نحو التخوم الأبدية. في عمائك الفكري وجنونك لا أنسحب من أمامك ولا أهرب، فقط أمكث متقلصاً وضاغطاً على أسناني وحينما تشعر بالتعب تنهار إلى كيس سكر موضوع جانباً.

كان عمي يلهث وكنت أنظر إليه بنظرات فارغة. بعد أن استراح دقائق حمل حزامه الجلدي وولى نازلاً.. في تلك الليلة، فكرت في الانتحار وأردت أن أقفز من البالكونة إلى الأرض. في تلك الليلة الجنونية غاب عني نوفل. بكيت بلا مواساة، بلا صوت. لم أكن أستطيع السيطرة على الغصات والشهقات التي كانت ترتفع عجلى إلى فمي. كنت مستعداً أن أموت إلى الأبد من أجل لحظة واحدة أقضيها في الإلهام السماوي لراحيل وهي تمزق الثور السماوي وتنشر رائحة جسدها عميقاً في الأرض والسماء. كانت رائحتها ملهمة، دافئة، مخدرة. مكهربة. ذات إشعاع حاد تضاء من زيت مقدس وكنت أتقدم لنورها، بخطوات قصيرة ومرتعشة وكلما أتقدم كان النور يبهرني، يمزقني، يحيلني إلى هباء، ومن بعيد. من أرض أسطورية ينطلق صوت مموسق وهو يصرخ بي. نم أيها الولد المغفل. نم يا ابن داود الملك لأن الأحلام بانتظار عودتك المثلى إلى الحياة.

*****

أيقظني نوفل في صباح اليوم التالي. كان النور يتسلل من النافذة الوحيدة المتواجدة في المكان. في الليلة السابقة لم أنتبه إلى المكان الذي نمت فيه. كانت أكياس السكر مرمية على الأرض وثمة حشية مجاورة لحشيتي تتواجد في المكان. كانت الحشية الأخرى أكثر بؤساً من حشيتي، في الحقيقة لم تكن حشية ولا فراشاً إنما كانت عبارة عن مزق لحاف قذر ومسود بكثير من البقع وثمة رائحة عفنة تنبعث منه. كانت هذه الحشية تعود لعمي. أما

حشيتي فكانت عبارة عن نصف لحاف ورائحة البول تفوح منها بالإضافة إلى براغيث كثيرة.

لم أستطع أن أنهض في بادئ الأمر. جلس نوفل على كيس سكر وهو يعبث بمسبحة ذهبية اللون. على الأرض تكومت نعل و(كالات) ممزقة وأوراق جرائد صفراء و كتيبات أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش وأسمهان. الحيطان كانت هي الأخرى قذرة ومقشرة. لكن النور كان يضيء المكان برمته.

نظرت إلى نوفل بعينين ذابلتين وملتصقتين من أثر بكاء الليلة الماضية. كان نوفل ينظر إلى وجهي. بقي فترة من الوقت ساكتاً. لم أستطع أن أتحرك من حشيتي. آلام الليلة الماضية لم تزل تسحقني. مددت يدي إلى ظهري وشعرت بالتورمات.

- قال نوفل: جئتك ببعض الدهن لتدليك ظهرك.
- قلت له: إني سوف أتحسن وأستطيع أن أنهض.

قال نوفل إنه يريد أن يساعدني. مد يده. تحركت قليلاً وغمر النور المبهر للشمس وجهي. جاء نوفل بطاسة من الماء غسلت به عيني. على الأرض ذات البلاط الملون والوسخ بقايا طعام وقنينة فارغة وجرذ كبير يلتهم الطعام بتؤدة وهدوء. أشرت لنوفل أن يقوم بطرد الجرذ لكنه قال:

- ما الفائدة، المقهى مليء بالجرذان والفئران، إنهم طيبون. اسمع أريد منك أن تنهض لنذهب في نزهة، ما رأيك؟
- إلى أين، قلت.
- إلى أي مكان، على العموم ليس بعيداً من هنا.
- يجب أن يوافق عمي، قلت.
- أنا سأتولى مهمة إقناعه. أنها رحلة قصيرة في الباب الشرقي.

أخرج نصف سيجارة وأشعلها.

- هل تدخن، قلت.
- ليس كثيراً يعتمد الأمر على حصولي على السجائر، قال وهو يسحب نفساً عميقاً.
- هل تريد أن تجرب؟.

ترددت. ناولني السيجارة. أخذت نفساً لكني لم أستطع أن ابتلعه.

- قال يجب أن تحاول ابتلاع الدخان. هكذا يدخن الرجال، ألم تلاحظ هذا.
- لا، لم ألاحظ.

قلت وأنا ادور السيجارة بين يدي وأنظر إلى دخانها الذي ملأ المكان.

- لكن الرائحة ستعلق بفمي، تساءلت.
- لا يهم، سأعطيك علكة الدارسين، قال بسرعة.
- هل يعلم أبيك أنك تدخن، قلت بتشوش.
- هو يعلم لكني لا أدخن أمامه. ضربني كثيراً وحبسني في سرداب البيت ثم ضرب أمي لكني لم أستسلم، أنا أحب السجائر.. كس أخته، قال بعد صمت قصير وأثر ألم على وجهه..
- من هو، قلت.
- أبي طبعاً.

قال وهو يأخذ السيجارة من يدي ويدسها في فمه ثم يشهق الدخان بقوة. سرنا في الممر المظلم والبارد المؤدي إلى صالة المقهى وهناك شاهدت عمي وهو يسير بين صفوف الزبائن والطاولات حاملاً استكانات الشاي. اقتربت منه وقلت له:

- إني أريد أن أذهب مع نوفل للنزهة خارج المقهى.

لم يعترض وقال:

- لا تبتعد كثيراً.

فرحت بالموافقة وعدت إلى نوفل. خرجنا من الظلمة إلى النور حيث العالم كان أكثر رحابة وضوءاً وإشراقاً. قال نوفل:

- أنا لم أافطر بعد، ما رأيك أن نأكل شيئاً سريعاً.
- قلت له إني لا أملك نقوداً.
- التفت إلي وقال، ليس مهماً.

أراني ربع دينار كامل. دخلنا مطعما صغير بالقرب من المقهى وجلسنا إلى إحدى الطاولات. كان المطعم غاصاً بالذباب النهاري الذي كان يسير على أسطح الطاولات. سكب نوفل قدح الماء على الطاولة وتطاير الذباب بسرعة. طلب نوفل قيمر وكاهي. أكلنا بشهية هائلة ومسح نوفل صحنه كأنه جرو صغير. شعرت بعد انتهاء الوجبة بأن ثمة طاقة كبيرة تسري في أنحاء جسمي الذي لم يدخله إلا القليل من الطعام. ناولني نوفل سيجارة. شعرت بالخوف من تدخينها.

- عمك مشغول بالعمل ولا يستطيع الخروج، قال.

تناولت السيجارة وكانت بدون فلتر. لاحظت أن علبة السجائر الخاصة بنوفل لا تحتوي إلا على سيجارة واحدة، هي التي منحني إياها.

- قلت له، إن علبتك فارغة،

لم يهتم وقال إنه سيتدبر أمره. أشعلت السيجارة وطلب مني أن أشهق الدخان مثلما يفعل هو. خرجنا من المطعم. الزبائن كانوا ينظرون إلينا باستغراب. أحد الزبائن قال إنهم (أدب سزيه). فجاوبه آخر وقال، أولاد شوارع. لم أفهم كلمة أدب سزية. قال نوفل ونحن نخرج من المطعم. لا عليك إنهم أخوات قحبة، عار على الشعب العراقي.

سرنا بضع خطوات خارج المطعم ثم جلسنا على دكة جامع. كانت تجلس إلى الدكة أيضاً امرأة ملتفة بعباء سوداء حائلة اللون ويعلو الجرب

كفها. أخذ نوفل يدخن بتمهل وهو ينظر إلى الشارع ثم إلى المرأة. أنا أيضاً شعرت باسترخاء من أثر السيجارة. كان الهواء البارد يصفع وجوهنا لكنه كان هواءً منعشاً ورطباً، لم أشعر بالبرد في تلك الساعة بالرغم من أن ملابسي لم تكن ثقيلة.

وضع نوفل أمامه كرتونة صغيرة وأخذ يستجدي المارة. قال إنه يفعل هذا بدافع التسلية. قلت له إني تصورت أن أباه يمنحه نقوداً. بصق محاولاً إيصال بصاقه إلى حافة الرصيف.

- أبي يمنحني نقوداً؟ ضحك. إنه أخو قحبة كبير، منيوك. من أمد بعيد هو لا يمنحني نقوداً وحتى أمي لا يمنحها إلا القليل جداً، بل إنه يجوعنا ويجوعها دائماً. مسكينة أمي.

أخذت ملامح الحزن تطفو على وجهه.

- مسكينة أمي، قال مرة ثانية، لقد حطمها من الجوع ابن الكلبة هذا.

لم أعقب. تركته ينشر أحزانه ويفرشها على الأرض التي أمامه. رمى بعض المارة قطع نقدية صغيرة. جمعها نوفل على عجل ووضعها في جيبه. استمر جلوسنا هناك حتى منتصف النهار. جمع نوفل خلال فترة صلاة الظهر مبلغاً محترماً، ثم تركنا المكان بعد أن منح المرأة التي تجاورنا بعض القطع النقدية.

- مسكينة هذه المرأة، قال. إنها تعيل مجموعة من الأطفال. زوجها طردها بعد أن احترق جزء من وجهها، يقولون إنها كانت جميلة جداً.

- كانت تغطي وجهها فكيف شاهدتها، قلت.

- أنا أعرفها، منذ حوالي السنة وهي تجلس هنا. في بعض الأحيان أجيء لأتحدث معها وفي أحيان أخرى حينما يكون لدي مبلغ من المال أمنحها بعضه. إنها امرأة شريفة وتستحق. حاول معها مسؤول البلدية لكنها رفضت.

- ماذا رفضت، قلت.
- أجاب بسرعة واندهاش. يريد أن ينام معها. أنت لا تعرف أي شيء. أنت فطير.
- لا لست فطيراً لكني حقاً لا أعرف، قلت.
- حسناً لا تهتم طالما أنت معي سأعلمك الكثير.

أخذنا نسير بصمت. ثم سألت:

- هل ذهبت إلى المدرسة.

توقف فجأة ونظر في وجهي باستغراب.

- مدرسة.. تفو عليها. أكثر الأشياء التي أكرهها في حياتي هي المدرسة. قال.
- هذا يعني انك كنت في المدرسة، قلت.
- نعم و تركتها منذ أعوام، لم أستطع اجتياز الصف الأول، أبي قال إن المقهى أفضل من المدرسة.

سرنا بتمهل ونحن ننظر إلى واجهات المحلات والمخازن. اقترح نوفل أن نذهب إلى السينما. وافقت ومشينا حتى وصلنا سينما الشعب. اشترى هو بطاقات دخول رخيصة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها السينما. الصالة الخارجية كانت متخمة بدخان السجائر وبائعي العلكة والسندويشات والحب والكوكا كولا والعمبة والصمون، بعض الأطفال الصغار بدشاديشهم المقلمة والمرقعة في أكثر من مكان كانوا يدورون بين الحضور. اقترب أحدهم من نوفل وتحدث معه بخفوت. التفت نوفل إلي ثم تحدث مع الصبي همساً. قال نوفل بعد أن ابتعد الصبي:

- هل تعرف ماذا يريد هذا؟.
- لا، قلت.

- إنه فرخ ويسأل إن كنا بحاجة إلى شيء نتسلى به أثناء عرض الفيلم.

اشترى نوفل المزيد من السجائر المفردة ثم أخذنا نلقي نظرات على صور لمقاطع الفيلم المعلقة على الجدران. بعد نصف ساعة دق جرس بصوت مرتفع ومستمر. أنزلقنا إلى الصالة الداخلية. كانت الأضواء منتشرة في الداخل حيث تعبق رائحة الرطوبة والبول والعفن. اخترنا موقعنا الذي كان في مقدمة الصالة وقريباً للغاية من الشاشة البيضاء. كانت الأرض مليئة بقشور الحب وبقايا السندويشات والقناني والبصاق.. عندما أطفئت الأنوار وبدأت الشاشة بعرض الفيلم أخذ رواد السينما بالصراخ والصفير. كان مهرجاناً كبيراً من الأصوات ثم سقطت على رؤوس البعض قناني فارغة وبصاق من الشرفة العليا.

دار الفيلم الذي لم أفهم منه إلا رعاة بقر يطاردون امراة من أجل اغتصابها وتخلل الفيلم الكثير من المشاهد الجنسية. أثناء كل مشهد جنسي كانت الأصوات ترتفع والبصاق يتطاير والصراخ يملأ المكان. كانت الأصوات أشبه بمظاهرات صاخبة لا تستطيع أن تفهم منها شيئاً. لحظت جاري أنه كان يعبث بشيء ما.

بعد انتهاء الفيلم شاهدت صبيا ينزل دشداشته و جاري يجلس باسترخاء إلى الكرسي مبتسماً.

بهرت بالسينما أشد الانبهار. طوال طريق العودة إلى المقهى كنت أحلم بها. قلت لنوفل:

- أريد أن أدخل السينما مرة أخرى.
- قال، إنه لا يملك المال الكافي لشراء بطاقات الدخول.
- قلت له، فلنذهب إلى الجامع.

وافق وأسرعنا بالذهاب. مر وقت طويل ولم نحصل على فلس واحد. كانت صلاة المغرب قد انتهت وبدأ التهيؤ لصلاة العشاء.

- قال لي نوفل، فلندخل إلى الجامع، ربما يكون رزقنا هناك.

في البدء ذهب نوفل لتفقد مكان المراحيض والوضوء عسى أن يكون أحدهم قد أسقط محفظته أو بعض القطع النقدية، لكنه لم يوفق. قال إنها المرة الأولى التي يخونه فيها حظه. بدأ نوفل يتحول إلى ما يشبه الكلب وهو يبحث في كل مكان ويتشمم كل شيء موضوع على الأرض. جاءني وأنا أجلس قرب الباب الداخلية لصالة الصلاة. قال إنه من الأفضل أن نسرق حذاء أو كاله. بدأ يفتش بين الأحذية عن صيد سمين ثم وجد ضالته في نعال جلد وضعه تحت إبطه وانسل هارباً. لحقت به وأنا أبعد الناس عن طريقي بتشوش. وجدته واقفاً في شارع جانبي يدخن. سرنا باتجاه البتاوين وفي السوق استطاع نوفل تحويل النعال إلى قطع نقديه.

عدنا مساءاً إلى المقهى مرهقين. وضعنا صموناً اشتريناه على إحدى الأرائك ثم جئنا بأقداح شاي وبدأنا بتناول عشاءنا. لم أجد عمي في تلك الأمسية وبدا أنه اختفى من المقهى. صاحب المقهى أيضاً لم يكن موجوداً وحينما سألنا عنه قال أحد الصبية الذين يعملون في المقهى إنه ذهب إلى البيت.

شعر نوفل براحة عميقة. أخذنا نستمع إلى الموسيقى المنبعثة من المذياع وقال نوفل إن الذي يغني هو محمد القبانجي. اتّكأ نوفل بشكل مريح إلى طرف الأريكة. لم أشاهده من قبل بهذا المستوى من الذوبان مع الموسيقى. كان يشبه الرجال الذين كان البعض منهم يستمع إلى اللحن أيضاً.. الشبع شيء جميل خاصة عندما يكون ملحقاً بقدح شاي أسود حلو المذاق. أخذت أنا أيضاً استغرق في الموسيقى، لكن هذا الاستغراق حطمه الصراخ الحيواني وجعير بعضهم.

كان عدد الزبائن يتقلص تدريجياً ومتناسباً مع تقدم الليل. رواد المساء يختلفون عن رواد الصباح. في الفجر يكون هناك العتالون والعربنجية والخصونجية والجنود والعرفاء والشرطة المسلكية، أما بعد

ذلك فيتحول المقهى إلى وكر لسائقي حافلات مصلحة نقل الركاب و الجباة والمفتشين. ثم ينسل هؤلاء ليشهد المقهى بروز زبائن آخرين هم، عابروا سبيل، مستطرقون، سوقة، شحاذون ذو عاهات مستديمة يجلسون حتى المساء دون عمل أي شيء.

ضمن الزبائن الذين يتواجدون في المقهى بعض ممن يحمل جرائد أو بعض الكتب التي لم أستطع قراءتها كوني لم أدخل المدرسة قط. كانت ملامح هؤلاء تختلف عن ملامح الآخرين، وجوههم تحمل سمات الجدية والرصانة. قال نوفل لي إن هؤلاء سياسيون وكتاب وموظفون حكوميون. لم أفهم وشرح لي نوفل اختصاص كل واحد منهم ومجال عمله. أخذت أشعر أني قريب جداً من هؤلاء الناس لكن لم أستطع التقرب منهم.

كان نوفل يعمل في المقهى حينما يكون أحد العمال متغيباً وهذا منحه الفرصة لأن يكلم الكثير من الزبائن. كان زبائن الليل هم الأشد إثارة والأكثر سوءاً، إذ غالباً ما يكونوا سكارى أو لصوص من حرامية بغداد بالإضافة إلى قوادين وفرخجية ودودكية وفروخ بأعمار مختلفة. كان الفروخ يتميزون بحركات تشابه حركات البنات مع ميوعة أما الفرخجية فكانوا أصحاب وجوه معدنية مائلة إلى الظلمة. كنت أشعر بالخوف من هؤلاء البشر الذين كانوا يشبهون الذئاب أما الفروخ فكانوا يتنقلون بين الأرائك.

وحدهم الدودكية كانوا يجلسون في عزلة شائنة وقاتلة.

- قال لي نوفل، جد هؤلاء هو لوط.
- قلت لنوفل: إني أخافهم.
- إنهم مسالمون، قال نوفل، لا يؤذون أحداً. كل مايهمهم في هذا العالم الحصول على.... وضحك بخبث.

*****

لم أعرف عدد الساعات التي نمتها، إلا أنها كانت طويلة ومشحونة. كانت الكوابيس في منتهى القسوة. في بعض الأحيان كانت الصراصير تتحول إلى أشياء ذات أجنحة كبيرة تسد الأفق وحينما أقترب منها تتحول في سرعة غريبة إلى وحوش لها أسنان وقواطع كبيرة. غالباً ما كانت الصراصير تقتحم أحلامي ومخيلتي المغيبة ويظل المشهد يتكرر لعشرات المرات حتى استيقظ منهكاً.

سابقاً، حكيت هذه الأحلام لراحيل وجدتي ووضعت جدتي تحت رأسي سكينا من أجل أن تغادرني الكوابيس. في الليالي الأولى نجحت الخطة إلا أنها عاودتني بعد ذلك وبشكل أكثر بشاعة من المرات السابقة. كنت أقول كل هذا لجدتي وراحيل. راحيل اقترحت أن تذهب بي إلى طبيب نفساني إلا أن جدتي قالت إنها العين والسحر والحسد، ومن أجل هذا ذهبت إلى الدراويش ليكتبوا لها دعاء ينقذني. لم تنفع الأدعية واستمرت الكوابيس في مهاجمتي.

في بعض الأحيان كنت أحاول أن أستذكر بعض الأشياء الجميلة قبل الخلود إلى النوم وهي الطريقة التي اقترحتها راحيل. من سوء الحظ أن ذاكرتي كانت مشوشة وفيما كنت أحاول استذكار شيء جميل أو شيء مبهج كانت تقفز إلى ذاكرتي بشكل مفاجئ صور حرقي لإحدى القطط أو تعذيبي لدجاج الجيران بعد محاصرته. القطط التي عذبتها كانت تطلق سيلاً كهربائياً من صور الاحتراق والقتل والعبث بالجثث.

في إحدى المرات لمحت قطة تضع صغارها في زاوية مهجورة. بعد مغادرة القطة استوليت على الصغار وحبستهم في صندوق، جنّت الأم وهي تبحث عن صغارها. أخذت تصدر مواءاً حاداً، قاسياً ومتوسلاً. إلا أن الحزن والتشوش والتشوه الزمني وآلام الأم، كلها كانت تشكل بالنسبة لي قمة اللذة الجسدية والفكرية. بكت راحيل وهي تستمع إلى مغامراتي. أحد الاطباء النفسيين قال لها حينما زرناه وأجلسني على كرسي حقير.

- إنه يشعر باضطهاد العالم له وكل ما يفعله هو رد فعل طبيعي للإحساس بالفقدان. يجب أن يمنح الحنان والحضن الدافئ.

يجب أن أدخل مرة أخرى في جسد راحيل من أجل إعادة تكويني، وإعادة الزمن الماورائي إلى الحاضنة الأم. كل الجيران كانوا يكرهوني وأطفالهم دائماً يقولون إنه بلا أب، وأن راحيل امرأة جميلة للغاية وهذا ما دفع حمادة لأن يحاول سرقتنا في الظاهر، لكن الحقيقة أنه أراد اغتصاب راحيل في تلك الليلة الهمجية والسخيفة، أراد الاستحواذ على جسدها الناعم الذي كان يمحضني الدفء والإنسانية وكثيراً من الأشياء غير المفهومة.

حينما كنت أنام بجانب راحيل كنت اتشمم رائحة عرقها. كانت رائحة العرق النازل على شكل نقاط أو ما يشبه الطبقة الرقيقة من الدبق أكثر الأشياء جمالاً بالنسبة لي. كنت أتذوق العرق المالح وأشهق شهقات هائلة، رائحة جسدها كانت تدخل في خياشيمي المائية ثم إلى تلافيف دماغي والى القشرة الداخلية للطبقة السنجابية. حينما تدخل تلك الرائحة مروراً عبر الأنف والزعانف والخياشيم وفتحات التهوية، تمنحني راحة وشعوراً عميقاً بأني لم أزل بعد جزءاً من التكوين الخلاق لروحها السامية المترفعة.

راحيل في كل عشريات الزمن كانت هي أيضاً تمتصني وتداعب بأصابعها شعري وأنا ارتشف السائل الأبيض الخارج من ثديها. منذ اللحظة التي أعلن فيها انتهاء عصر الحليب النافر والسائح على فمي، بدأت الآلام وكوابيس حيوانية تهاجمني دون أن أكون قادراً على المقاومة. أية مقاومة؟ لم أكن قادراً على رد أي من تلك الكوابيس المجنونة وهي تمحقني وتسحقني إلى الأرض المليئة بالشوك وملايين الأبر النافذة إلى أعماق تكويني الجسدي.

لم أكن أريد النوم في تلك الفترة. في بعض الأحيان كانت راحيل

تحاول تفسير تلك الكوابيس بإرجاعها إلى الأصول الأولية لها. لكن الذاكرة وكلما نتوصل إلى حل ما، كانت تتغير وبسرعة عجيبة لتطرح أمامنا أشكالاً مغايرة. الأحلام تتبدل وتتغير دائماً لكن هناك ثيمة واحدة، هي التنافر. الصيغة الوحيدة التي يمكن أن نطلقها، إلا أن هذا التنافر هو تناسق حلمي غريب وخوف من الاستلاب.

راحيل كانت جميلة جداً. جميلة بشكل مرعب وبعض الكوابيس التي كانت تمحقني وتحيلني إلى فتات متناثر، تتعلق بهاجس الفقدان. كانوا يشيرون بشكل مؤلم وقبيح إلى جمالها. أحدهم نقل لي أن البعض يتمنى لو ينام معها ليلة واحدة وبعدها يموت. فتى آخر قال إنه شاهد في يوم عاصف جزءاً من فخذها المرمري. أشياء كثيرة كان يقولها الصبيان المليئون بالمخاط والقمل، من أجل انتهاك راحيل وبراءتها الكونية. سفاح فكري، سفاد ودونية مضرجة بالدم وهم يبحثون عن خرق الدورة الشهرية في أكداس الزبالة للحصول على مقتنايتها المقدسة.

لم يكن هؤلاء الأنجاس يعرفون أن راحيل ليست امرأة عادية إنما هي جزء من عاصفة الكون السامي وجزء من التكوين الملائكي. هذه النظرة المليئة بالاغتصاب كانت تحطمني وتمحقني. تجعلني أشبه بمخبول وسط أكوام القمل والخراء لهؤلاء الأوغاد الصغار وهم ينتهكون قدس الأقداس ويحطمون بأرجلهم خيمة الاجتماع.

الأشكال تتداعى إلى ذهني في الأحلام. غالباً ما أشاهد حمادة وهو يريد اغتصاب راحيل. شكّل حمادة بالنسبة لي نوعاً من التحدي المؤرق. كان هجومه الدموي لسرقة البيت، صرخة مؤلمة للغاية. انتهاك فظ للطهارة القدسية وللعالم الذي كنت أسبح في سائله الهيولي. الجرأة الحديدية التي واجهنا بها أرعبتني حد الموت.. ماذا لو أنه توصل فعلاً إلى اغتصابها. يبدو أن العالم سوف يتغير فعلاً. القيامة توشك على النهوض من براثن المصروعين والمناويك واللصوص.

عالم حمادة كان عالماً متخشباً وهو وليد لحظات التحريض والحكايات الأسطورية التي يتبادلها أبناء الشارع والصبيان وأهليهم. كلهم كانوا عبارة عن مناويك وغوييم ودودكية وفروخ للزمن والحكايات المتعلقة بشرف راحيل المقدس. كنت أسرد كل ما أحلم به إلى جدتي، كنت أحكي لها أحلامي واحداً بعد واحد. أروي لها التوجسات السرية لأوجاعي وأنا أسمع أبناء الجيران وهم يتحدثون بالسوء عن راحيل. كانت جدتي تقول لي إنهم أبالسة أبناء شياطين.

لم يكونوا يلعبون معي وحينما كان أحدهم يود اللعب كان الأب يمنعه وينهره من اللعب مع ابن....أما الأمهات فكن يوشوشن في أذان ابنائهن بكلمات مريرة عني وعن راحيل المرضة بالرغم من أنها كانت تمنحهم السلام وتمسد رؤوسهم وتضمد جراحهم وتجبر كسورهم. كنا شعبا نمارس التفاهة مع أنفسنا ومع الآخرين. العالم بالنسبة لنا هو الاغتصاب والاغتصاب فقط هو محور العالم وسر أسراره المقدسة.

راحيل لم تكن تعلم ما كان الجيران يتحدثون به. كنت أحاول مرات عديدة أن أبوح لها بما تقوله جاراتنا العاهرات، لكنني أفشل. كل المرات التي حاولت فيها كانت تائهة في الحزن والبحار والمستنقعات المليئة بغاز الميثان.

كلهم كانوا يتعبدون، يصلون ويذهبون إلى الجامع والحسينيات خمس مرات في اليوم وثلاثة، لكن الله لم يغسل قلوبهم بل بقيت قلوباً بائسة مشوهة رعديدة وهي تنهش في لحم الآخرين وفي لحم راحيل الحي والمقدس. في البداية لم أعر اهتماماً لأحاديث الصبيان، لكن بعد ذلك كنت أبكي وأنا أسمع تقولاتهم وخبثهم وتشكيكهم. جسد راحيل كان مقدساً ونورانياً أمام جهلهم وبؤسهم وسواد وجوههم. دائماً كانوا يرفسون مثل الحمير، كل إنسان يساعدهم ويريد أن يرفعهم من البؤس الذي يعيشون فيه.

في إحدى المرات لم أستطع تحمل التقولات التي كانت تصدر من احدهم فرفعت حجراً وهشمت رأسه. انقلب العالم وسحلت إلى مركز الشرطة ولا أعرف الصيغة التي خرجت بها من المركز لكن أبناء الأفاعي قالوا إن راحيل قدمت نفسها لضابط المركز من أجل إخراجي رغم أني شاهدت الكثير من أقرباء راحيل وهم يأتون إلى المركز وإلى البيت فيما بعد، وبعد أن دفعوا غرامة كبيرة.

أقرباء راحيل كانوا حاخامات كبار في السن وهي المرة الأولى التي أراهم فيها.

- كانوا أهلك،

تقول راحيل، وكانت قد تزوجت أبي بالضد من إرادة الأب والعائلة. قالوا لها:

- إذا تزوجت منه فلن نعود نعترف بك ابنة. أنت ابنة صهيون ويعقوب وأرميا النبي. أنت ابنة داود والمزامير والأسفار والعهد المقدس والمدراشا وسليلة الملوك الأوائل وخليل الرب. عهد يعقوب في مدينة أورشليم والأحلام النباتية الملونة والأشجار وأرض السمن والعسل كلها بين يديك. حمامة كنت مثلما كنت معبودة إسرائيل النبي وأنت تدورين في الأسواق، أسواق أورشليم وتدعين الناس إلى الصلاة وتقديم الأضاحي. مكانك في خيمة الاجتماع سوف يهدم وبركات الرب سوف تغادرك ورب الجنود لن يمنحك نظرة الحنان والبركة وهو يتقبل الأضاحي والمحرقات من الأبناء.

لكن راحيل لم تسمع، كان مكتوباً في الناموس أن اجيء أنا. مكتوباً أن الأرض والسماء والطيور والنيران والبعث وسلالم الرقي الإلهي والجبروت كلها صنعت من أجلي. أنا التائه الأبدي. الأنوار في كل مكان وحمامة الرب تهدل على غصن البرتقال والآس والورد الجوري والليلك والكاردنيا

والبرقوق والتفاح. ناردين حياتي يفوح على الأرض ووجه منور يضيء المكان في ظلمة مزرقة ولون القمر مائل إلى الأبيض الشفاف، لكنه بياض مرن ومتلون ومتقلب ومتجانس وممزوج بلعاب سيّال ينثر على كل الأرض.

داود الملك يحمل بوقه والضفادع البشرية تنط حول البحيرة السحرية. كلهم كانوا يقولون، لماذا يا ابنة داود ترمين نير الأجداد وتريدين نير هذا المسلم. ولم تستجب هي لتضرعات الأب والأخوة والأخوات ولم تستجب أيضاً لضراعة ونصح الرابي الذي أخذ يقرأ عليها فصولاً من المدراشا والمزامير عسى أن تغير رأيها. كانت حاسمة ومتجبرة بالرغم من مظهرها الذي يشي بالحب واللهفة والتماهي والحنان والإنسانية الصرفة الخالصة في عالم مركب من رغبات القتل.

كلهم هجروها. أما أنا فكنت ألتصق بصدرها وأسمع الكلام خارجاً من الصدر قبل وصوله إلى النقطة الحرجة في بلعومها. كنت أسمع تفكيرها الآني والمستقبلي والجنائني وهي تنداح مثل العاصفة إلى الهوس الشجري حيث اليوكالبتوس والدفلة والسرو والعاصفة والهواء. جنون ثم جنون. مصادر مائية تفيض على الأركان الأربعة، حيث ترفع القواعد وأتشمم المسك والعنبر وأدور عارياً حول ضراح حياتي.

أسمع الراب يقول لها بعد المرة الأولى. ما عدت ابنتنا. في المرة الأولى عندما تزوجت هذا الغوييم وفي المرة الثانية بعدما توفى وبقيت مع الشيوعيين. الرب سوف لا يمنحك بركاته وسوف يحرمك من رؤية المدينة المقدسة.

كنت تبكين بشراهة ومقت وانهمار الدمع كان يبكيني. لم أكن أشعر بالألم لكن عيني تبكي بحرقة لحرقتك وعظامي المكونة من الكالسيوم والمغنسيوم والفسفور كانت هي الأخرى تتقلص وكنت أسمع تقلصها وأزيزها مثلما تتقلص سفينة في البحر. الهوس الكنسي والراب والأم والأب والأخوة، تحولوا بالنسبة لك إلى هباء كوني.

كنت تنثرينهم مثلما ينثر كاهن فطيراً فوق الرؤوس لكن فطيرك لم يكن يشبه فطيرهم. كنت تزبدين وترعدين وتتناقشين معهم لكنهم كانوا عبارة عن غائط حيواني. لم أفهم لم كان الكل يريد أن يمارس معك الخطيئة ويشمل هذا أهلك والجيران والأصدقاء. كلهم كانوا عبارة عن أبناء أفاعي وزنى بما فيهم الراب الذي يشبه دجاجة مهلوسة.

*****

أيقظني نوفل الذي وجدته أمامي مستنداً إلى أكياس السكر. كان يمسك سيجارته بيد وفي اليد الأخرى مسبحة يؤرجحها.

- قال، ما رأيك أن نتمشى مرة أخرى في الباب الشرقي.

وافقت ونهضت بتمهل وثقل ظاهر.. خرجنا إلى الشارع. درنا في البدء بين المحلات القريبة من المقهى ثم توقفنا أمام مطعم صغير لبيع الدجاج المشوي. كانت الرائحة رهيبة ومدوية، تلمضنا كثيراً. قال نوفل إن ليس لديه المال الكافي لشراء دجاجة. لم أشغل نفسي. كنت أدرك أنه يستطيع تدبير بعض النقود لكن هل سيدعوني لتناول الدجاج معه؟.

كنت أشعر بجوع كبير إذ لم أتناول شيئاً باستثناء قطعة خبز تركها عمي لي، تناولتها مع استكانة شاي ساخنة- الشيء الرائع في المقهى أنك تستطيع أن تشرب الشاي إلى ما لا نهاية- كان الجوع علامة فارقة. عند أول ذرة من الرائحة المذهلة وهي تدخل إلى الأنوف والخياشيم، تتفجر فيك مأساة جوع أسطوري.

نوفل يبلع ريقه الناشف وهو يشاهد الدجاج الرهيب والسمن يسيل منه. فكر بمحاولة نصب واحتيال بأن يقول لصاحب المطعم أن صاحب المقهى الفلاني يريد دجاجة مشوية كاملة مع الزلاطات والسوب. لكنه أدرك أن أبناء القحبة سوف لن يسلموه الدجاجة باليد إنما يرسلون عاملاً

منهم للتوصيل. فكر نوفل مرة أخرى باستجداء المبلغ لكن بدت هذه فكرة بائسة للغاية فالمبلغ الذي سوف يستحصل لا يكفي إلا لشراء الخبز أو الصمون فقط.

طلبنا من أحد عمال المطعم أن يمنحنا الزيت المتساقط من الدجاج مقابل مبلغ صغير من المال. وافق وجمع الزيت ووضعه لنا في صحن ورقي. تذوقنا أنا ونوفل الطعم الرائع للشواء ثم اشترينا رغيفاً وأخذنا نغمس في الدهن قطع الخبز. فجر فينا هذا الزيت جوعا آخر. جوعا مدمرا وغير قابل للانتظارونحن نمسحُ آخر قطرة من سائل الدجاج البرونزي.

اقترح نوفل بعد الانتهاء من الطعام أن نذهب في مشوار قصير لا يبعد كثيراً. سرنا متجاورين واقتربنا من دروب البتاوين الداخلية. كانت البيوت متقابلة ومتشابهة وتغص بالساكنين وفي الشوارع المليئة بالصبيان كانت أكداس النفايات ترتفع لتشكل تلالاً من البعوض والنتانة. قال نوفل وفيما نحن نسير بين البيوت. أنه سوف يريني شيئاً جديدا لم أشاهده من قبل لكن علي أن أقسم أن لا يعرف أحد به. أقسمت وسألته عن هذا الشيء. لم يقل واقترح أن اكتشفه بنفسي.

سرنا بين ركض الفتيان والأطفال وأكداس النفايات ثم توقفنا أمام أحد البيوت. كانت واجهة البيت متآكلة وكأنما الزمن لم يتحرك من هنا منذ مئات السنين. باب البيت موارب قليلاً لكنني لم أستطع مشاهدة شيء وذلك لوجود ستارة تمنع أي شخص في الشارع من أن يلقي نظرة على الداخل.

عند عتبة الباب كانت تجلس عجوز قربها قطعة من الكعك وقدح شاي. رطن نوفل مع العجوز، ثم أنزلقنا إلى الداخل. بعد أن تجاوزنا الستارة البائسة والمعلقة بمسامير صدمتني رائحة غريبة. رائحة لم اتشممها من قبل هي مزيج من النفتالين وسائل الاسفنيك المركز. كانت الباحة الداخلية للمنزل فارغة باستثناء وعاء خزفي لخزن الماء. في الباحة أيضاً

أحذية متناثرة وعباءة نسائية مرمية على الأرض ومصباح كهربائي يتدلى من سلك رصاصي وبالرغم من أن الظلمة كانت عميقة الأثـر في البيـت إلا أن أحداً لم يفكر في إنارة المصباح.

جلسنا على الأرض مقرفصين وكـان نوفـل يتنقـل بعينيـه في أرجـاء المساحة الفارغة للبيت دون أن يتفوه بكلمة. سمعت صوت ماء يتدفق مـن حنفية ثم خرجت امرأة من المرحاض. نهض نوفل بسرعة وذهب لملاقاتها. اقتربت المرأة مني وكانت ترتدي دشداشة من قماش الأنكورة الإيـراني فـيما يرقد على صدرها ثديين مهولين.

جلست المرأة على دكة مرتفعة قليلاً وبعد أن تناولت من جيبها علبـة سجائر وأشعلت واحدة انكشف جزء من فخذها. شـعرت بالانبهـار وأنـا أشاهد هذا الفخذ الذي أحسست أنه كان كبيراً جداً، أكبر من حجم البيت نفسه. شهقت المراة دخان سيجارتها بتمهل فيما كان نوفل يدور حولها مثـل صرصار كبير. قالت بتكلف وهي توجه الحديث لنوفل.

- هل القواد في المقهى؟.

أجاب نوفل بسرعة :

- إنه هناك منذ الصباح.

التفت نوفل نحوي وقال هذه خالتي. لم تـسأل المـرأة عـن أم نوفـل. قالت بعد لحظات وهي توجه حديثها لنوفل مرة أخـرى وتـشعل سـيجارة من أخرى.

- أمس هاجمت الشرطة بيتنا. أخـذوا الأولاد كلهـم، لا أعـرف المنيـوك الذي بلغ عنا.

- ربما هذا الذي يسكن عندك، قال.

- إلى متى تظل دماغ سز، هو من يدبر أمورنا. أكثر من مرة جاءنا بـاولاد جيدين، اجابت.

- تتذكرين قبل عام حينما كبستنا الشرطة بسببه لأنه كان يخفي منشورات هنا، قال نوفل.
- صحيح لكنه الوحيد الذي يجلب لنا أولاد ممتازين. أعتقد أن من دس عنا هم بيت ميشيل، قالت.
- لماذا، تساءل نوفل.
- لاننا نكسر سوقهم. أولادنا أحلى من بناتهم، قالت.
- بالرغم من هذا فإن هذا الشيوعي يجب أن لا يبقى هنا، قال.
- أنا ربما أصبحت شيوعية قالت.

ثم ضحكت وضحك نوفل الذي اختنق بدخان سيجارته.

- مفهوم خالة أنت وطنية.

أجاب نوفل وهو يضحك.

- أنا أقدم خدمة للناس وللحزب والرفاق. قالت معقبة وموضحة..
- كيف؟ قال نوفل مستفسراً.
- أولاً أنا أدفع جزء مما أحصل عليه لخرجية الحزب. ثانياً يشتغل عندي بعض الرفاق العاطلين عن العمل بصفة قوادين. ثالثاً بعض الاجتماعات تتم هنا، أنت تعرف أن البيت لا يخلو من زبائن وهذا يعطي تغطية جيدة للاجتماعات كما يقول الحزب. رابعاً كنت أوفر بعض الفروخ الجيدين للقيادة، هل تلاحظ الخدمة التي أقدمها للحزب.
- صحيح ما تقولين، أجاب. لكنهم مناويك وكفرة.
- أنا أحبهم على أية حال، بعد ذلك هم وربهم أحرار، كل لشة تتعلق من كراعها، أضافت.

أطفأ نوفل سيجارته بأن فصل الجمرة عن السيجارة ثم رمى العقب

بعيداً. كانت هي تنظر له ثم نظرت نحوي وقالت.

- هذا الشاب لنا.

أجاب نوفل بسرعة،

- لا، لا. إنه ابن أخ عامل يعمل عندنا.
- لماذا لا تجلبه إلى هنا. قالت وهي تبتسم.
- لا تفكري بهذا. أجاب نوفل.

توقفت عن الكلام وهي ترمقني بنظراتها العارية والمتفحصة. كانت نظرتها عميقة و شعرت بالخوف منها. قالت:

- المكان هنا بارد.

نهضنا ودخلنا إحدى الغرف. كانت رائحة الاسفنيك أكثر قوة وشعرت بدوار حاد. جاءت المرأة بطاس من اللبن الخاثر وقطعة من الخبز تناول نوفل الطاس وبدأنا بالتهام اللبن، كنا لم نزل جوعى وبعد الانتهاء من اللبن جاءتنا المرأة بإستكانات الشاي. أخذنا نرتشف الشاي فيما هي توجه كلامها لي.

- لماذا لا تبقى معي؟ سوف أعطيك نقوداً كثيرة.

قفز نوفل من مكانه وهو يقول.

- لا، لا أتركيه خالة. إنه أمانة.

استسلمت المرأة لكلام نوفل. ثم دار حديث متقطع عن الوضع خارج البيت.

- اليوم كانت هناك كبسة على المنطقة المجاورة لكنهم لم يمسكوا ولا جرذ واحد.

رفع نوفل نظره عن استكانة الشاي.

- عن الشيوعيين؟، قال.
- وهل يوجد أحد غيرهم.

أجابت وهي تضع وسائد تحت ذراعها الضخمة.

- أريد منك مساعدتهم. أنت وصديقك هذا.

وأشارت لي بإيماءة من رأسها.

- حاضر خالة، لكني اخاف الشرطة والبعثيين ثم أنهم كفرة. قال نوفل.
- أحلف بالعباس أنهم ليسوا كفرة. قلبي يقول هذا، قالت، سألت قائدهم فقال إنه يؤمن بالسيد كمر ويخاف العباس أبو رأس الحار.
- إني أخاف ياخالة. البعثيون والشرطة يقتلونهم في الشوارع.
- أنت رجل، قالت معقبة. ثم أن البعثيين لا يعرفونك. هم يبحثون عن الرؤوس الكبيرة.
- يكفي أني أوفر لهم الأولاد، أنت تعرفين هذا.
- لا يكفي. أريد منك أن توصل الرسائل بين قائدهم والاخرين. أنت وصديقك هذا.

التفت نوفل وأخذ ينظر في وجهي وكأنما ينتظر إجابه مني. لم أعرف بماذا أجيبه.

- الشرطة والبعثيين لا يمكن أن يشكوا بكم وأنتم تنقلون الرسائل. لقد أوصاني قائدهم الذي يعيش معي في البيت أن أدبر له من ينقل الرسائل ويكون ثقة. ثم أنه يمكن أن يرسلكم إلى موسكو في سفرة سياحية .
- لا أدري خالة. امنحيني يومين حتى أفكر.
- لا تنس أنت وصديقك. قالت معقبة.

شعرت أني أستطيع القيام بهذا العمل. كان إحساساً جميلاً أن تعمل

أشياء سرية. أخذت أحلم بأني أسير في الشوارع وأطرق الأبواب.

الخروج إلى العالم كان شيئاً مذهلاً. كانت في روحي ثمة طاقة كبيرة أود أن أبددها في أي شيء. قلت لنوفل

- أنا أريد أن أعمل معهم.

شعرنوفل بالمفاجأة من كلامي.

- قال ألا تريد أن تفكر.

- قلت له. لا لا أريد أن أفكر أنا جاهز للعمل.

استبشرت خالة نوفل خيراً. ثم انحنت وقبلتني على وجهي ومست أعضائي. ضحكت وشعرت بأنفاسها الحارة وهي تدخلني إلى عوالم من السحر الغريب. قال نوفل:

- طالما أن صديقي وافق. أنا أوافق أيضاً.

صبت المرأة استكانات شاي اضافية وقالت إنها ستذهب لتخبر عمر بالأمر. نهضت وبان جزءاً من فخذها الأبيض الضخم مرة أخرى. بعد أن غادرت قال نوفل أني استعجلت باتخاذ القرار. الموضوع ليس سهلاً.

- أعجبتني الفكرة. أشعر أني أقدر على تنفيذ هذا العمل.

أخرج نوفل سيجارة من علبة خالته وأخذ يدخن نافثا الدخان إلى سقف الغرفة. عادت خالة نوفل بعد بضعة من الوقت واثر ابتسامة كبيرة بادية على وجهها.

- ستستلمون العمل غداً. عليكم أن تحضروا في الضحى لإيصال رسالة. عمر يقول : إذا أثبتم جدارتكم سيرسلكم إلى موسكو ويمكن هناك أن تتزوجوا روسيات.

يمسح نوفل انفه بقطعة قماش ملونة أخرجها من جيبه. فيما خالته تقول له : إن الصبي الذي جلبه قبل يومين هرب وتريد منه إيجاده.

خرجنا من البيت وضربت وجوهنا رائحة الشارع والنفايات الملقاة على جوانب البيوت. سرنا بعض الوقت ثم اقترح نوفل أن نذهب إلى مقهى معين من أجل البحث عن الصبي الهارب. وافقت وكنت أشعر أني مرتبك كلما أفكر في إيصال الرسائل.

وصلنا المقهى الخاصة بالفروخ والفرخجية. الوجوه في المقهى غريبة. تنبعث منها نظرات متحجرة ومائلة إلى الصفرة. بحثنا عن الفرخ بأعيننا ثم سألنا عنه. بعضهم عرف الصبي، لكن لم يعرفوا مع من هو الآن.. خرجنا من المقهى بعد أن شربنا شاياً وتنفسنا الهواء بعمق. كنت أشعر بارتجاف وخوف من جو المقهى لكن هذا الخوف لم يكن يكبر ويسيطر على روحي بفعل وجود نوفل الذي أخذ يحدثني عن مقهى الفروخ، وكيف أن هذا العالم هو مكان مغلق وسري لا يعرفه أحد باستثناء أصحاب الشأن.

أخبرني نوفل أيضاً ونحن نتداح في الشوارع أن في بغداد عشرات المقاهي المختلفة، كل مقهى يختص بجماعة من الناس. هناك مقهى المثقفين وهناك مقهى السياسيين ومقهى الرياضيين ومقهى الدودكية وهكذا. كل هواية ومهنة وتواصل ذهني له مقهى خاص وبشر يزحفون إليه بأيديهم من أجل أن يذوبوا في بحيرة النار المشتعلة.

في طريق العودة إلى مقهانا كنا ندردش في أشياء مضحكة. قال نوفل

- هل تتذكر ذلك الرجل الذي جلس على الأريكة التي أمامك.
- نعم، قلت.
- أجاب نوفل، إن هذا الرجل عرض علي ربع دينار كامل من أجل إقناعك بالمبيت معه ليلة واحدة ولم أقبل. فرفع المبلغ درهما إضافيا. قلت له، لو دفع لي كل أمواله فلن أقوم بهذه المهمة. رجل آخر وفيما كنت أنت مشغولاً بتفحص الوجوه، طلب مني أن ألوط به مقابل أن أسمح له بأن يلوط بك. كانوا يتصورون أنك فرخي الخاص. ها ها ها.

شعرت بالخوف من كلام نوفل لكنه طمأنني أن شيئاً من هذا لن يحدث.. بعد مسير نصف ساعة تقريباً وكنا على وشك الوصول إلى مقهانا، قال نوفل بصوت يشبه الفحيح، إنه عمل كل شيء في المقهى من أجل الدفاع عني لكنه نسي أن يستشيرني إن كنت أرغب في أن أجرب. قلت له لا، دون أن أعرف على وجه الدقة ما الذي يقصده بالتجربة.

بعد دقائق من الصمت، سألته عن المقصود بالتجربة..... أخرج سيجارة من علبته وأشعلها من عود ثقاب مبلل. لم يجب بشكل سريع. أخذ يمتص الدخان وينفثه زاماً شفتيه.

- هل تريد أن تجرب، قال.
- لا أنا أسأل فقط، قلت.
- أفضل أن تجرب حتى تعرف بنفسك، المسألة ليست معقدة وكبيرة، إنها تنتهي في ظرف عشرة دقائق وسوف تحصل على ربع دينار كامل، قال فيما وجهه يبتعد عني.
- لا أريد أن أجرب، إذا تكلمت بهذا الموضوع مرة أخرى سوف لن أتكلم معك.
- حسناً حسناً ليس هناك من داعٍ للزعل، أنا أردتك أن تستفيد، الحصول على ربع دينار ليس شيئاً سهلاً يا حبيبي. هل تعرف ما يمكن أن نفعله بربع دينار؟ يا الله. إسأل أي شخص إذا لم تثق بي. أتمنى لو أحصل أنا على نصف هذا المبلغ. سوف أذهب إلى السينما وأشتري علبة سجائر أبو البزون ويمكن أن أشتري أيضاً ربع عرق مع مزة فاخرة.
- حسناً ولماذا لا تفعلها أنت، قلت بعصبية.
- المسألة ليست بالسهولة التي تتصورها، لو أن أحدا ما دفع لي فلن أعترض، سأفعلها حتماً، لكن ها أنت تشاهد بنفسك. ما الذي سيخسره الواحد إن فعلها؟ لاشي. الرفيق الحزبي في بيت خالتي، ذلك

الرجل الذي يقيم عندها ويكتب المنشورات، فعلها معي بعشرة فلوس، تصور.

شعرت بالتقزز من كلامه وبنفور عارم من وجهه. أخذت أسير بسرعة. حاول اللحاق بي، أسرعت. وصلت المقهى ولم أشاهد عمي. شربت شاياً وصعدت إلى غرفة المخزن، حينما فتحت الباب، وجدت عمي يتمدد مثل عنكبوت فوق امرأة داكنة.

غامت الدنيا أمامي وضربني عمي بنعاله. ركضت ودون أن أسأل أحدا ما، اختبأت في مرحاض المقهى. كان عقلي يتخبط في المكان والزمان وأصابعي ترتعش وكأنما هناك أجنحة سرية تحلق بي عالياً فوق تلال من الوجوه والقذارات .

الفصل السابع

هباء كلي. عاصفة من الرمال والتراب والقيح والبعرور وغائط بشري يحيطني من أماكن متعددة. لم أعرف أن الخواء والارتحالات المتعددة للزمن وهو يسير متباطئاً يمكن أن يرميني إلى الأماكن المهجورة من هذا العالم. وحشة غريبة وقاتلة.

ها أنا افتقدك يا راحيل، أيتها السوسنة المنبثقة من صحراء الجدب الكبريتي. من هبائي كنت أصنع لك أقواس من الغار. طلبت من عمي بعض النقود فلم يمنحني لأنه لم يقبض أسبوعيته بعد، لكن القحاب كن يجدن دائماً أموالاً عنده.

الزمن يتلوى على العاصفة والعاصفة تتسلق وجهي. الجوع غريب ومدو في الأنحاء الكونية من درب التبانة والدب الأكبر والأصغر. في صفاء السماء كنت أصعد إلى سطح المقهى وأبكي راحيل. الرائحة والنجوم والهواء والابتراد والعري والقمصان الملوثة بضروق الحمام تنثال على وجهي. كنت أبكي بحرقة ووجع سائراً في دروب مجهولة الأثر والمسافة والغايات. كنت أشعر أني تائه وأني انزلقت إلى العالم دون أي مقاومة. دون أي وجه حق. كل شيء تكتنفه الرغبة الموجوعة والرغبة المتسربة من الذهن مثل خلايا جزئية، مثل ذرات كاربونية وأنت أمام مشعل غاز الاستيلين تذوب كقطرة، كدورق. كشهاب لامع في الفلك الأصهب. أسير في الحلم واخترق الغابات وتستصرخني لعنة الساحرات الكونية.

لم أجد في هذا العالم المتبدل أية رائحة، عطر و ماء كولونيا مشابه لرائحة راحيل عندما تغتسل في الصباح بمياه الغدران المتدفقة من حنفية الحمام. بهاء متنور وعظيم. بهاء أكثر انتعاضاً من سحلية تموت على أبواب الجحيم. إبليس غادرني، تركني وحيداً أكرز في مملكته، في هذا العالم الخرب والعجوز.

في ليلة باردة تقصفت أصابعي وأنا أحاول التدثر بغطاء متسخ وممزق. لم أعد أحتمل الآلام. لم أعد احتمل أن يشرق القمر من زجاج النافذة ويراني وحيداً في زمهرير ليلة متناذرة على الأرض.

استطعت التحرك بعد ساعات من عدم النوم وهبطت إلى المقهى. أعطاني عمي (جولة) فرحت بها وأشعلت الفتائل. الجولة منحتني بعض من الأمان وإمكانية التطلع إلى القمر وهو بدر دون أن انسحب إلى ذاتي المتكورة. احتضنت الجولة مثلما يحتضن صبي مؤخرة أمه ويلتصق بها فيما نحن نركض خلفه حاملين أفعى صغيرة بواسطة عصا التبختر. لأن الأنانية حالة صرفة. لأن الوجع هو شيء شخصي تماماً. كنا نحاول الانتظار ريثما يهرب الصبي من مؤخرة أمه من أجل أن نرمي إليه بالأفعى.

لم أسمع منذ اليوم الأول الذي أودعت فيه هنا أي أحاديث عن جدتي. كانت ترسل لي الرسائل وأقرأها على ضوء القمر أو الشمعة المنفتحة على آفاق ضوئية. كنت أقرأ دموعها، لكنها لا تكتب الرسائل ولا تعرف القراءة بالرغم من أنها كانت مملوءة بالحنان الهستيري، كوني كل ما تبقى لها من عالم انسحب إلى الأبد. لكن من كان يبعث بالرسائل؟ كل يوم كنت أجد تحت وسادتي، رسالة مكتوبة بماء اللازورد والزعفران النقي. كنت أمسك الرسالة وأقلبها ورغم أني لم أكن أعرف القراءة لكني كنت أقرأ كلمات جدتي التي تخطها بيديها العائمتين.

أخذت أجمع الرسائل كل يوم مثل ساعي البريد وبعد أيام أصبحت لدي مجموعة لا بأس بها. كانت جدتي تقول وأنا أقرأ على ضوء الجولة مثل

جندي هارب من أرض المعركة. إنها تحبني جداً وإن حكاياتها عن الجن والسعلاة والطنطل تمضي الآن في متاهة الزمن العبق بالروائح والعطور. كانت تقرأ القصص قرب مقام خضر الياس، من هناك. من النهر الفوضوي والعنيف والهادئ. كان يحمل لي البريد. لكنني لم أشاهد النهر ولا خضر الياس ولم أشاهد الجنيات وهن يحملن الآلام والوجع من خلال هذه الرسائل. على ضوء جولة لجندي هارب من أرض الحرب. كنت أحمل رمحي و جسدي المتآين وأغادر في رحلات طويلة تشبه رحلات السندباد البحري إلى أرض وممالك نائية. لكنني كنت أبكي كلما كانت العاصفة تهز السفينة وكلما صعد إلى المقدمة نوتي جديد ولاعب سيرك مع قرد مشدود بسلسلة حديدية رفيعة.

الزمن هو الزمن والعاصفة هي العاصفة، لكني اخاف، وكان هذا غير لائق بنوتي يعمل منذ أن ولدته امه على ظهر سفينة.. احتضن الجولة، التصق بجدرانها القرميدية ومن فوق القرميد يتسلل المطر المخنث وهو يموء بأصوات نسائية عارمة ومشوهة. هل تعرف الحب. يسأل المطر المتقطر من ملابسي. واقول له. أعرف الحب الفموي واللباب واللسان الخارج من الفم وهو يمسح جلدي ووجهي بروائح وعطور وزيوت بابلية مسروقة من معبد كبير الآلهة. انتبه أيها الوثني وأنت تسير في المعبد الكبير حيث داود نائماً مع ملكة الأحلام ذات السرة الابنوسية وحيث النجوم العشرية تظلل البهاء الكوني. الجولة لا تدفيء أكثر من محيط صغير والنار الزرقاء المتلفعة بأحمرار مخضر لا تنفث الدف إلى الجسد. انحني أكثر متوسلاً الدفء، متوسلاً الخصلات الزرقاء والشعلات الحمراء والبعث الكوني لرغبات الدفء المقتولة في الشوارع. الصقيع يجتاحني وكل الذكريات عن المدينة هي عبارة عن تجمد ورغبة في التبول.

أُخرج صديقي وأتبول به على العالم المتمظهر واللاهث خلف العاهرات. عمي كان يرتعش في وجيب قلبي والمرأة تلهث. هزني صوتها

المسكون بالتأففات. كانت تقول له انتهي بسرعة وإلا سأرفسك. لكن أفخاذها الخريفية حيث الأوردة بارزة، كانت ترتفع وتنخفض. ترتفع وتنخفض ورأسها فوق الحشية حيث أنام. في حشيتي تركت المرأة اثار الدبق الوحشي وهو ينقط من صهيونها المتهالك مثل عربة بحصان اجرد، مثل حصان باعة النفط حيث القمل والقراد والذباب يغلف الظهر والعين المجروحة.. في التوحش الكوني كانت المرأة تشكل لي انبهاراً. شاهدته مثل أرخبيل. مثل أيقونة سحرية، مثل وخوش ضارية تبتلع الآفاق بشهيق مهول.

كنت أراقبك يا عمي من شق الباب. من الباب المؤارب والفانوس يرتعش بذبالته الاسية من شهيقها وزفيرك. من صرختها الهرمة وهي تتناثر على مسنايات دجلة والخيول البرية تعبر السماء بقفزة واحدة. كنت يا عمي أجلس محيطاً الجولة بذراعي وأنا أحلم باللحظة السحرية التي كبستك فيها وأنت فوق هذه المرأة مثل حيوان جائع. ترتعش وتتقلص وتضمحل كنت أشعر بالخبل أمامه، مثلك عندما اكتشفته أول مرة، كهفاً مخيفاً وابتلاءات محرمة ونصوصاً توراتية، وسال لعابي ونزف عقلي وتهت في حشرجة قوية وضعت في المكان والزمن والحياة.

النساء عاريات من الصوف لكنهن دافئات، هكذا يقول نوفل وهو يعلمني ألف باء الذوب السحري. يعلمني أن العاصفة تبدأ في اللحظة التي ترتطم أنت بجداره، بشقوقه بانزياحاته. هو كل الحياة واللعنة والموت والعودة والتقدم.. احتضن الجولة، أقترب منها أكثر، أريد أن أجعل الدفء يتسرب إلى جسمي كله، إلا أن الدفء يمسح وجهي فقط أما قفاي فكان بارداً جداً وعظام ظهري تتيبس.

لم تشهد بغداد برداً مثل هذا. إنه البرد العظيم وربما كانت هذه علامات الآخرة وأن الله سوف يظهر في نهاية الأمر. هكذا كانت جدتي تقول. إن العالم يتغير وإن اليوم الذي سيأتي فيه الله مع صف الملائكة قد

اقترب. لا أدري من أين تأتي جدتي بهذه الأقوال والأفكار. أخاف هذه القيامة، أخاف قيامة الأموات وتفجر القبور وانفراج الزمن. الزمن الذي سينشطر ويتمطى ويغدو غير مفهوماً بعد أن تضيع المقاييس. العالم يقترب من النهاية، تقول جدتي. أما راحيل فإنها تنتظر المسيا. لكن مسياها لم يظهر بعد، كنت أقول لراحيل، متى؟ وتقول سيظهر حتماً عندما تتساوى المعادلات التاريخية مع علاقات رأس المال.

لا أعرف لماذا يهتمون بأحاديث نهاية العالم. سألت نوفل عن فكرة نهاية العالم. استغرب وقال. أية نهاية، إنها مجرد هراء. الصدمة كانت كبيرة. هو يقول لا نهاية للعالم وراحيل تنتظر نتائج الصراع الطبقي وجدتي تنتظر المسيح الدجال. كلهم ينتظرون شيئاً ما لكن بالنسبة لي فإني أنتظر راحيل. قلت لنوفل هذا. بحت بها يجول في ذاكرتي المقدسة. حينما حدثته عن راحيل لأول مرة شعرت بأني أفشي أسرار الآلهة التي لو عرفت فإنها سوف تحرمني من تجربة لقاء المسيا.

كان نوفل مهتماً للغاية بحديثي عن راحيل. اقترح أن يوصلني إليها لكني لا أعرف عنواناً لها. اعتبر نوفل أن هذه مهمته التي سوف يقوم بها. قال لنفكر معاً بالكيفية التي نستطيع الحصول بها على العنوان.

البرد قارس. برد حيواني وأنا جالس بالقرب من الجولة أنظر إلى شعلاتها الخضراء والحمراء والزرقاء. كانت الألوان تتبدل كل لحظة اعتماداً على الريح التي كانت تتسلل من النافذة الكلبة. الغرفة كبيرة والسماء داكنة والجرذان تعبث في كل شيء. حشيتي كانت مبللة من أثر الرطوبة. لم تدفء الجولة الغرفة بل ملأتها بدخان الكيروسين ورائحته القاتلة. الجرذان تدور في المخزن. السقف يتقشر ويسوَدّ من أثر الدخان. لا مطر في الخارج. فقط بوح غريب وأثر نعال عمي لم يزل في وجهي يحمل آثار الرعونة المدوية.

ماذا أعمل يا راحيل من أجل أن أصل إلى صدرك وشعرك الرائع وهو ينسدل إلى الأبد وكأنها من محارات عملاقة بيضاء ومزركشة بورود

حمراء. بيضاء أنت، أما أنا فمثل العفن على قطعة خبز دائماً ازداد اخضراراً وألماً ووجعاً. أنت وجع مزمن بالنسبة لي وجدتي هي الأخرى مسيح لا يأتي وأنا بانتظار عوالم ضبابيه تزدحم أمامها عربات الحمص المسلوق والشلغم والباقلاء الساخنة.

جاء نوفل بربعية عرق أخذ يمتصها أمامي. طلب مني أن أتذوقها لكني كرهت الرائحة. كانت رائحة نفاذة وصعبة. رائحة تشبه حيواناً غريباً برؤوس طولانية الشكل. أخرج نوفل من جيبه تمرات وقال إنها مازته. جلس قرب الجولة أيضاً وأحسسنا أن ثمة روحا تدور في الغرفة حينما أغلقت الباب دون أن يمسها أحد. قال نوفل إن الغرفة مسكونة بالأرواح. لم أفهم ما الذي يعنيه بأرواح. شرح لي وهو يمتص بين الفينة والأخرى من قنينته ما الذي تعنيه الأرواح. كان كلاماً لذيذاً للغاية. شعرت بميل متطرف إلى معرفة المزيد. قال نوفل إنه شاهد هنا قبل أن آتي أرواحاً كانت تجول في المكان. في إحدى المرات سمع صوتا يقرأ القرآن وحينما فتح الباب فوجئ بشبح يقف و يتلو صلواته إلى الرب.

الإحساس بالوحدة المطلقة لي مع الجولة بدأ يتناثر. لكن حكايا الجن والعفاريت والأرواح حطم إلى الأبد إحساساً بالتوحد. أخذت بعد حديث نوفل أتخيل المكان مليئاً بهم، مضطرباً بهم. مشحوناً بهم. كنت اختنق وأنا اتابع حركات الفئران المشوشة وحركة الريح العابرة من النافذة.

سمى لي نوفل اسماء ملوك الجان، خربط ابن الملكة زخبيلة بنت الملك الأحمر بعيطوش. جان دمو. ازرش، حقراطوش والملائكة المسخرين سكفائيل مرتقال وحرفيائيل صرفال. عالم من الجبروت والشموس المسودة ببحر الظلمة والانصراف والابتعاث من قمقم الدهر. جن خارج من أردية الزمن ومن السطوح العشرة ومن السماوات التسعة والأفلاك والقراصنة والمواكب البعيرية وهي تسير في صحراء الرغبة. أصبحت أكثر رعباً وأكثر انبعاجاً إلى داخل وثني الخاص. صنمي.

لم أغتسل منذ ما يقارب الأسبوع أو أكثر وكنت أهرش بعد أن كنت أغتسل مرتين في الأسبوع. أصبحت أكثر شوقاً لحمام ساخن، حمام يتصاعد منه البخار لأزيل القذارة والسفلس والموهبة والحكة والقمل الذي أخذ ينتشر في رأسي منذ أمد طويل. القمل لا يقرأ التعاويذ السحرية لا يقرأ في عيون ترتائيل وصليائيل وهسعيائيل وباقي المردة الذين افواههم عبارة عن منظر البرق وهو يتفجر، الوجع وصل إلى كل الروح مهشماً أمامه الأسوار الطينية والأصنام الحجرية المقدودة من الصوان والكلس.

الآلهة البابلية كانت تفر هي الأخرى نحو جنات الخلد تاركة خلفها الصبي المسكين. الصبي المدمر المتلفع بلحاف اجرب بالت عليه كل حيوانات العالم والايائل والثعالب والقحاب والبول ينز منه نزاً والبق يتطاير منه تطايراً.

نوفل يجلس قبالتي يشرب العرق من ربعيته وأنا أتلوى من البرد. ينهض ويجيئني بأغطية أخرى. معطف عسكري قديم ومتآكل رماه على كتفي. لم يعرف نوفل لمن يعود المعطف لكنه جاء به وليذهب العالم إلى الجحيم. تحرك نوفل واقترب مني وقال هامساً. هل أنت الآن أفضل، أشرت برأسي بأني أفضل حالاً. كانت رائحة الحموضة والعرق والتراب تفوح من المعطف ويبدو أن كلبة ما ولدت صغارها عليه إذ لم تزل رائحة الأمومة تفوح منه وكذلك السوائل المرافقة للولادة. الجراء تعوي، الجراء تتدفأ، أما أنا فأقشعر وتهتز أوصالي حينما أتشمم عرق الأم المتصبب وهي تخرج الجراء واحداً بعد الآخر.

أصدقائي كانوا هم أيضاً يعرفون الكلاب وكانت هناك كلبة جميلة تقترب دائماً من مجموعتنا. كانت كلبة هادئة مطأطئة الرأس ودائماً تبحث ببوزها عن شيء ما في الأزبال وفي يوم مجهول السمة والمطر والريح نزل عليها أحدهم وسافدها مثلما يضاجع امرأة إذ أن النساء غير متوفرات لذلك فعلها مع الكلبة. كنا نجلس ننظر مبهورين وقلنا له إنه يكذب

فجاءنا في اليوم التالي بالكلبة مربوطة من عنقها بحبل مسود ثم أخذ يداعبها أمامنا. كانت الكلبة تنظر إلى وجوهنا بتوسل غريب. عينها كانت تحمل معاني كثيرة من الشفقة إلى الاستسلام المفعم بالألم لكنها لم تعترض على ملاطفات ومداعبات صديقنا بل هي استسلمت بانحطاط كبير وأخذت تلوي رقبتها ثم انبطحت على الأرض. أخذ الأصحاب يضحكون وأرادوا هم أيضاً أن يجربوا لكن صديقنا منعهم إذ اعتبر أن المسألة مسألة شرف.

كانت الكلبة تنظر عميقاً في عيون صاحبنا وبثبات مدهش. لم أستطع على وجه التحديد أن أعرف سر هذه النظرات أكانت امتناناً أم خجلاً أم شيء آخر. في ضياع الألم وفي ضياع العقول وانفجار النزوات الدنيئة، اقترح أحدهم أن نضرم النار في الكلبة. جاءوا بكيروسين ورموه على جسدها ثم قمنا بعد ذلك بإشعالها. أخذت المسكينة تتلوى وتصرخ وتعوي وتنظر إلى صاحبنا الذي سافدها أول مرة والدخان يندلع من ظهرها لكن الأرعن كان يضحك ونحن أيضاً ولم أستطع أن أنسى نظراتها المخيفة والمتوسلة واللائذة وهي تموء وتتحشرج وتعوي والنار تنشب عميقاً في جسدها. كنا نشم رائحة الاحتراق والشعر واللحم والجسد والعهر والقسوة. وفي النهاية ارتمت على ساق صاحبنا وهي في الرمق الأخير ثم نفقت.

بعد أن أحرقنا الكلبة جلسنا إلى تلة من الرمل ونحن نشعر بأننا فعلنا شيئاً كبيراً ومهماً. بعد هذه الحادثة بأيام كنت استيقظ في منتصف الليل وأنا أشعر بالرعب وأشعر أن روح الكلبة كانت تحطمني وتمارس على جسدي كل أنواع التعذيب الوحشي. كانت تحمل في يدها مشعلا من نار ثم تدفع بهذه الشعلة عميقاً في فمي فتحترق أحشائي ثم أنتهي كما تنتهي أية قملة إلى الموت.

حكيت عن أحلامي للأصحاب ومغتصب الكلبة فضحك هذا وقال أنت خنيوة وزنانة. و أقول له لا لست مخنثاً لكن نظرة الكلبة لك يومها كانت تحمل دلالات كثيرة. اقترح صديقي وقتها أن أقتل أحد

الكلاب أو القطط من أجل أن يقوى قلبي. أخذت بنصيحته وقمت فعلاً بقتل قطة وذلك بعد أن أطعمتها أكثر من مرة ثم رميت عليها الكيروسين وأشعلت النار فيها. كانت نصيحة غريبة لكن قلبي لم يصبح قوياً بالرغم من أني قتلت قططاً أخرى وفي إحدى المرات انهلت على قطة بعصا قوية وهشمت رأسها وجسمها اللدن.

قلبي بقي مرهفاً وشعرت بعد هذه الحوادث أني حقير جداً وتافه وملعون ومطرود من جنات الإله الذي كان يمنع عني راحة البال. الكوابيس كانت من الكبر بحيث أني غدوت ضعيفاً جداً وبحاجة دائمة إلى النوم وكنت أكره أن أنام في الليل حتى بالقرب من راحيل وحين كنت أتشمم عطرها، ما كان هذا العطر يمنحني السلام.. كنت أروي للاصحاب أحلامي وكوابيسي وكانوا يقولون إن هذا بسبب أني لا أملك أبا مثلهم. هل الأب هو الوحيد الذي يمنح راحة البال ويمنع الكوابيس ويجعل قلب الواحد صلباً وقوياً.

نعم هذا ما قاله الأولاد لكن في روحي وفي عمق نفسي كنت أرفض هذا وأرفض أن يضاف شيء ما إلى العلاقة بيني وبين راحيل أو بيني وبين جدتي. كنا نحن الثلاثة نشكل عالماً متوحداً. عالماً متجانساً وغريباً. فجدتي لم تكن تحب راحيل لأنها يهودية. أما راحيل فكانت تشعر أن يهوه يمنحها امتيازاً خاصاً وأنها ابنة داود ويعقوب وأرميا وأشعيا النبي رغم أنها شيوعية. كنا نحن الثلاثة رغم كل شيء نمنح السلام لهذا العالم الهرم المرعب والمليء بالقيح والسفاد والابتئاس. نحن الثلاثة عالم متغاير وسوسنة برية في حقول الشارون. كنا نحج إلى أنفسنا ونقول مثلما تقول نزار إذا ما أهلت.

أمام الجولة تغتصبني الأحلام، لكن أمام النار، أية نار كانت الأفكار تزدهر. فكرت طويلاً في الله. الله ويهوه. كنت ضائعاً بينهما وكنت الوحيد الذي يمتلك قلبين. أنا الملك غير المتوج للعاصفة وهي تضرب ابواب

القلاع من أجل خلعها. ماذا في قلعة الله من الاسرار؟ تلك القلعة التي كنت أشاهدها وأنا في سفينتي الوحيدة في هذا العالم وكلما كنت أقترب منها كانت القلعة تبتعد وكأني كنت ألاحق الخيال والطيف والظلال والهزيم والرعد والصاعقة. ماذا في قلعة الله من خبايا غير معروفة؟

كنت أبحر وفي ذهني هذا السؤال الملح والجوهري. كنت ابحث عن الحقيقة. عن حقيقة الأحلام الغريبة التي كنت أحلمها في أوقات متباعدة وعن ذلك الشخص الغريب وغير المفهوم الذي كان يغزو أحلامي ويسافر بها بعيداً في فراديس الوجع والألم والجنوح. هذا الشخص لم أكن أشاهد وجهه ولم أكن أشاهد ذراعه ولا قفاه ولا مؤخرته. كان عبارة عن صوت فقط. صوت عميق سابح فوق غيوم مبللة بالماء وأشجار اليوكالبتوس والورد الجوري. كان يقول لي ألا تعرفني وكان يقترب بفمه من أذني، هامساً. لاحساً وأثر اللعاب يسيل على صفحة وجهي. كان كلامه عبارة عن بخار وهسيس وجلجلة وكان نوفل يقول إنه صليل وكنت أضحك. أضحك إلى النهاية العظمى لمستحثات عمليات البلورة التي كانت تجري في أذني ورأسي. إنها الخرافة ويحتفي بي نوفل ويقيم عزاءاته وأفراحه.

كان الحزن يساوي الفرح والمطر يساوي الدموع والعاصفة تساوي هسيس الفوانيس وفحيح الأفاعي. كان الالتماس عبارة عن عواء طويل وعليك أن ترتبه وتنظمه وتصقله وتلمعه وتبريه وتمسحه. لأن الوحي عبارة عن لوحة سريالية عليك أن تحل ألغازها وأن تنتظر الأفكار في ذهنك لاختيار الكلام والمعنى..

أصابني البرد في غرفة المخزن رغم أني أتدثر بمعطف ثقيل. نوفل قربي يجلس مدخناً ثم بعد أن ينهي سيجارته يقترب مني ورائحة السجائر تفوح منه ثم يمد يده نحو مؤخرتي. انسحب مرتعشاً من هذا العالم. أشعر بالتقزز.

- ماذا تفعل.

أصرخ مرتعشاً وأهب واقفاً. جسدي يختض اختضاضاً عميقاً. الرعشة تصل إلى العظام وتقرقع هذه مذهولة، متنمرة، متصالبة. يقول نوفل بهدوء جارف،

- لم ترتعش.

وأحصر عيني في وجهه، في جبينه المتعرق.

- ماذا تظنني.

يسكت نوفل بعد أن يسحب أصابعه. نرتعش بجنون اللحظة المائية المفعمة بالبرد الناشيء. ترى لماذا تنطوي السماء. يقول نوفل:

- أردت فقط أن أقول لك أن ثمة أشياء خفية عن هذا العالم. لقد اشتهيتك منذ اللحظة الأولى لتواجدك في المقهى. أنت كنت في أحلامي. كنت أتجرع المرارة القصوى ويرتعش جسدي مثل سعفة لكن جذع النخلة ثابت. كنت أريدك في الأحلام وها أنت أمامي الآن. إذا شئت أدفع لك نقوداً جميلة. ربع دينار كامل ودجاجة مشوية بدلاً من اللبن والخبز والسنبوسة. سوف أذهب بك إلى أجمل السينمات في بغداد وأريك أجمل الأفلام بضمنها الأفلام الهندية. سوف أعمل طيلة النهار والليل لأوفر لك كل ما تريد وسوف أوصلك إلى راحيل حيث أحلامك تبدأ وتنتهي هناك.

أنظر في وجهه نظرات مستنكرة. لا يمكن أن يكون هذا نوفل الذي أعرفه كصديق طيب. التماهي الذي يريده صعب التحقيق. الايلاج العضلي مستحيل التحقق. أخذت أشعر بالنفور منه. كل جسمي يكرهه. الذاكرة والعقل الراهن غير قادرين على تخيل أن أكون فرخاً لهذا الكلب. ما أعرفه عن نوفل أنه ربما يكون دودكياً لكنه ليس فرخجي حتماً. قلت له هذا بكثير من العتب والاحتقان العيني والفم المزموم. أخذ نوفل ينظر إلى الأرض. قال إنه يود لو يلعب باعضائي الصغيرة.

لم تزل صورة عمي مع القحبة تهزني. نوفل يجلس أمامي ذليلاً، مثل كلب يتوسل صاحبه أن يمنحه وجبه إضافية من الطعام. الكلب يتذلل، يدور حول نفسه والعواء يتحول إلى مواء قططي من أجل الطعام لكن الزمن الخرف يأخذ وجبته المفضله ويرميها في البحار والاقيانوسيات. نوفل يتوسل وأشعر باهتزاز، كل الجسد يرتعش وكنت أمام اللحظة الكافرة للموافقة من أجل ولوج عالم آخر. عالم خرائي مزين بضروق الطيور المتوحشة والنسور الجالسة على قمم الجبال..

شعرت أن نوفل يحاصرني. أثر الارتعاش ينتقل إلى فمي. كان يريد الحصول على بكر الزمن التائه أمامه. يقول إني سوف أتمتع أيضاً وهو يقول هذا نتيجة خبرة طويلة من العمل والعنمل المضاد. يريد أن يلعب. يدخله إلى الرئتين والمثانة والبلعوم ثم يدخله في المصارين الدقيقة والأمعاء الغليظة. أنا لا أفهم إصراره على إقناعي بأن أنزع سروالي. كان يلتصق بي مثل بعوضة أو مثل ذبابة لا تريد أن تفارقك حتى لو ضربتها بألف نعال. كان لا يفهم رفضي لكنه موقن أني لن أتحدث بالموضوع إلى عمي. لن أفشي أسراره وأسرار هذا الحديث.

بدا نوفل منبعجاً إلى داخله مثل كرة سحب منها الهواء. وجهه أخذ يتغير ويضمحل ثم يتيبس ثم يتحطم مثل قطع من الفخار الهش. لن ينقلب العالم لكنه سوف يمنحني الكثير من الأشياء.

- أنت لا تعرف قيمة النقود بعد.

كان يقول وهو يلتصق بي على نحو سيء. أخذت أتشمم رائحة العرق المنبعثة من جسمه. كنت أشعر أن سفينتي تغرق وأني على أبواب عالم جديد وغريب. عالم متواري لا يمكن لك أن تتخيله حيث يشبه المساحة المليئة بغاز الميثان والخدر والحلم. كل الأشياء كانت تشتبك مع بعضها ويصبح صعباً أن تفصل بين الخراء والألعاب السحرية واللعاب والخدر والابتئاس والاستسلام. اللحظة العارية من الكلمات هي لحظات غريبة

حيث يخيل إليك أنك على وشك الإقلاع نحو عالم أسود كل ما فيه عبارة عن ألعاب بهلوانية.

أخذت صورة راحيل تبرز من المخيلة المهشمة. ذاكرتي متعبة وتنوء تحت ثقل غريب غير معروف لكنه ثقل جسدي وجثتي. الأموات في الشوارع وراحيل تسير بينهم. آخر حلم رأيته. كنت أراقبها وهي تسير بين القبور. التراب حيث تسير كان يتحول إلى أفاع ذات أجراس. أسمع الصليل. أسمع الظلمة واللهب المتطاير من القبورالمفتوحة. كلهم كانوا هناك باستثناء والدي الذي لم أتعرف عليه. لا أعرف لماذا كانت صورة أبي تغيب وتتحول إلى شيء محروق. ورق أسود خفيف سرعان ما تشتته العاصفة التي تهب على المقبرة. كان رفضي صدمة كبيرة لنوفل حيث أعدته إلى المربع الأول. لم يكن هو سيئاً لكن العالم الذي يطارد فيه الضحية كان قاسياً ومشوهاً تماماً.

رفست نوفل مثلما ترفس الفريسة قاتلها الهمجي. جسمي يرتعش وكأني أموت الآن وانتقل إلى عالم غريب ، بعيداً إلى الأبد عن راحيل وجدتي. إنه الموت. قلت لنفسي. أصابع نوفل تتسلل مرة أخرى وأحس بما يشبه الخدر. وعندما أوشكت أن أمنحه، جاء صوت من أسفل الدرج. سحب نوفل أصابعه بسرعة وطلب أن أنسى الموضوع. لكني لم أستطع أن أنسى. أخذت أحلم بلذة غريبة تتسل إلى عروقي. الشرايين هي الأخرى كانت تنتفض معلنة بداية عام جديد من الحلم والانحطاط.

كان وجه نوفل يرتجف وقد تحول إلى اللون الأصفر المبقع ببقع زرقاء. الدم نشف في عروقه، أراد أن يخرج من الغرفة لكن أقدامه لم تسعفه فسقط على أكياس السكر وصناديق الشاي الأسود.. يدخن نوفل سيجارة فيما كنا نسمع صوت صعود أحدهم واتجاهه نحو المخزن. غمز لي نوفل بإحدى عينيه.

فتح أحد العمال الباب ودخل وهو ينظر لنا نظرات مليئة بالريبة. لم

ينبس بكلمة، أخذ سكراً ثم هبط إلى الأسفل. بعد أن نزل العامل لم نتحدث لوقت طويل. كان نوفل يمتص سيجارته وهو ينظر إلى وجهي. بالرغم من هذا لم أشعر بميل إلى أن أمنحه مؤخرتي. كان قد دس أصابعه عميقاً بين فخذي. كان يقول إنك شديد البياض. نهضت وحاولت أن أجد ماءاً لأغسل وجهي لكن الماء كان مقطوعاً على ما يبدو. نزلنا الدرج وتوجهنا إلى حيث يمكننا أن نطلب استكانات شاي.

في الصالة أخذ نوفل ينظر في عيون الزبائن. وجد أحدهم قادماً من البادية، شرب الشاي بسرعة وقال:

- انتظرني ريثما أرجع.

جلس نوفل قرب البدوي وأخذ يتجاذب معه الحديث ثم قاموا وخرجوا من المقهى. راقبت نوفل والبدوي وهما يختفيان. فكرت طيلة غياب نوفل في ما قاله لي. كان العالم بالنسبة لي محدوداً لكنني كنت أشعر بالضياع، ثمة قلق في داخلي. فكرت أن أستسلم لنوفل. لكنها فكرة مقززة. هذا في البدء فقط وبعد ذلك يكون الأمر مختلفاً تماماً. يقول نوفل إنه يمكن لي أن أجمع نقوداً سهلة من هذه المسألة.

- إنها العملية الوحيدة في العالم التي لا يخسر فيها المرء شيئاً، يقول نوفل.

شعرت أني بحاجة إلى التدخين. نظرت إلى الأرض وفيما كان عمال المقهى منشغلين، التقطت إحدى أعقاب السجائر وذهبت بسرعة إلى المرحاض. أشعلت السيجارة وأخذت أشاهد الجمرة وحدها تضيء العالم الهرم والجيف والصراصير. اتكأت على الحائط ورحت أتنشق السيجارة التي شعرت للمرة الأولى في حياتي كم هي رائعة خاصة حينما تكون قلقاً وتائهاً ومنغماً ومقطوعاً عن سلمك الموسيقي. هكذا وقفت تائهاً امتص السيجارة. قال نوفل لي لا تسحب نفساً عميقاً في البدء. لكني سحبت هذا النفس وشعرت بالتقيؤ والدوار الهائل. في المرحاض كنت أرسم عوالم جديدة وأنا منشغل بتدخين عقب السيجارة. كنت أنظر من الباب الموارب

إلى داخل المقهى من أجل أن لا يراني أحد ما وبالتحديد عمي، لكـن عمـي اكتـشفني بعـد أن أخـبره أحـد العـاملين في المقهـى مـاذا كنـت أفعـل في المرحاض. أخرجني عمي وهو يشدني من أذني وأصعدني الدرج إلى الغرفـة العلوية.

كنت أسير أشبه بالمعدوم. أشـبه بـآصرة كونيـة عـلى وشـك التفجـر والاندحار أمام القادم الوثني. كنت أتخيل عمي وهو يـضربني. قـررت أن أواجه ضرباته وحزامه إلى الأبد. إلى النقطة التي لا أعود أتذكر فيها الألم أو وجهه. سوف أفكر براحيل وجدتي. سوف أفكر بالعالم الجديـد وأصـوات السيارات وبصاق زبائن المقهى وأفكر أيضاً في الـرحلات الأسـطورية مـع نوفل. نوفل حينما مد يده ليلامس مؤخرتي فارتعشت واهتززت مثـل وردة تلامس اليد لأول مرة.

كنت أصعد السلم متفجراً، متسلقاً كل الأحلام دفعة واحـدة.نبـات البك والطرفة والشوك يغطي رأسي. كنت ألـج عالمـاً مكونـاً مـن المجـانين والسحرة والعوران والعرجان وكل الممسوسين ينامون على أطراف الأنهـر السبعة للسماوات السبعة، والجميل أنهم كانوا يغنون بأصوات، صحيح أنها نشاز لكنها متداخلة ومتوازنة ومدوزنة في بهاء كلي القدرة.

كنت أدخل أو أرتقي السلم بعزاء الأرامل، بالدهشة الأسطورية وأنا أتحول إلى حالة غازية وكتلة بلا وزن ولا تعجيل أرضي. أن تفقد تعجيلـك الأرضي فإن هذا يعني الفناء لكن قانون الجاذبيـة يـتحطم أمـامي وألتـصق بالأرض ويسحلني عمـي مـن يـدي. أرض بـلا قـرار وأعـماق بـلا قعـر. حاولت الهروب من يد عمي. من قبضته الخشنة والملوثة ببقايا الشاي لكـن قبضته كانت تشبه الأساطير. كانت تحطمنـي وتعتـصرني وأدور في دوائـر وهمية. مرة ألتـصق بـالأرض ومـرة أخـرى أتمـسك (بـدربزاين) الـصعود والهبوط.

العالم من فوق السلم يبدو مخيفاً ومضحكاً. تذكرت امتدادات نوفـل

الخيطية والوشيجية وسائله اللزج وهو يغرق في أتون الرغبة والإصرار على نزع سرواله من أجل استعراض عضوه. البحث عن الله كان شيئاً مذهلاً يا نوفل. كنا نرحل أنت وأنا في هذا العالم عبر مراكب وسفن وضباب كثيف يلف الموانئ. كنا ننزل في الأقاليم والجزر البعيدة ونسأل الآخرين إن كانوا شاهدوا الله. لكن لا أحد يجيب، كانوا يشيرون لنا بأيديهم أنه هناك لكن سفينتنا قديمة يا نوفل. بائسة ومحطمة، ولم نكن نعرف كيف كانت تبحر في المحيطات والأرخبيلات والجزر المتوحشة حيث وجوه البشر هناك موضوعة بالمقلوب وحيث كانوا يسيرون على أيديهم بدل أرجلهم، أما وجوههم فكانت عبارة عن وجوه أسود وأكفهم تشبه قبضات الكلاب البحرية وشعورهم سبلة ونائمة مثل الحرير الخارج من أسرة الملوك.

الطيلسان كان ثوبنا يا نوفل، هل تذكر؟ هل تذكر فعلاً كيف أننا هربنا في تلك الرحلة إلى وسط البحر وصعدنا سفينتنا ثم نمنا ونحن نحلم بالكنوز البابلية والآشورية والسومرية. كانت عيوننا لا تنام بالرغم من إغماضنا إياها وذلك لأن الرب كان يمسد أحلامنا ويضخ فيها رؤى وكوابيس ومنارات وأبراج عالية من مدن سحرية.

البحث عن الله كان شيئاً عظيما يا نوفل. لم نتذكر كم هي عدد البحار التي عبرناها. لكنها كانت كثيرة وواسعة وعظيمة وعميقة جداً. كنا ننظر إلى البحار بنظرة مليئة بالحب والترحال في أقاصي العالم الهش الذي نعيش فيه وكنا ننظر إلى أن نعيش في أحد الأرخبيلات والأحلام والجزر والحمام والورد. كنا نتخيل أن هناك بشرا مصنوعين من ماء الورد والدانتيلا والمر والبخور. جزر ليس فيها إلا وجه الله الحبيب وهو يمسد ظهورنا باعتبارنا قططه الجميلة.

كان في داخلنا ثمة إحساس عظيم بأننا أبناء الله فعلاً. الله الذي يمنح العالم السلام السماوي وهو يختلف عن الله الآخر الذي يمنح البشرية العواصف والموت والدزنتري وحبة بغداد. كان شيئاً خيالياً يا نوفل أن

ننظر إلى الأفق ولا نشاهد الملكوت وهو يقدم إلينا لأننا كنا مطرودين إلى الأبد من رحمة الله الآخر. الله الجميل الذي كنا نتخيله ونراه في أحلامنا، نحن المساكين والجوعى والعراة والمنبوذين والمشوهين والعرجان والعوران والمبتئسين والفاقدين عذرية حياتهم.

كنا نتجمع هناك وفق موعد سحري بانتظار الرب أن يمنحنا عذرية جديدة وأخيلة ووجبة طعام عبارة عن لحم مشوي غير مأخوذ من الأبقار والأغنام. كان الرب يومئ فتمتلئ الموائد بأشياء كثيرة ومنها تفوح الروائح المذهلة والشهية وحينما نمد أيدينا لتناول الطعام كان يختفي كل شيء ونجد أنفسنا مرة أخرى نغرق في الخراء والدبق والعالم الآخر المليء بالأفاعي والترنيمات والعبق الخارج من شوي اللحم والبشر.

كانت رحلتنا طويلة جداً. استغرقت كل حياتنا ونحن نبحث عنه لكنه لم يكن موجوداً.. يجرني عمي من شعري وأضرب يده وذراعه. لم أكن أريد الاستسلام له هذه المرة. كنت أشعر أني أقدر أن أعيش بدونه وأنه يجب علي أن أضربه وأن أهرب. فجأة التمعت في ذهني هذه الرؤية المتخيلة والهائمة. أهرب، لكن إلى أين وليس هناك من مكان محدد والبرد قارص والجوع أكثر لعنة من كل الأشياء. كان عمي يمنح القحبة مبلغاً من المال فيما كنت أنا أجوع وأنام عارياً من الدفء.

ليست هناك علاقة بين جوعي وبين الموت. لا.. هناك علاقة وأنا أسير في الشوارع أنظر إلى المطاعم والرائحة تنبعث قاتلة ومحطمة لقلبي. اشتهيت الكباب والدجاج المشوي والبرياني وشوربة العدس والباجة. اشتهيت الموائد الإلهية وهي تهبط على المؤمنين فيأكلون. كلهم كانوا يلتهمون الطعام إلا أنا. مللت البصل والخبز والكراث واستكانة الشاي أتجرعها كأنها سم يؤدي بي إلى النهاية.

لماذا هذا الجوع العظيم والبرد الممزق للقلب والجسد. كنت أرتعش في داخلي. أرتعش وأتلوى فيما هو يمنح القحاب الكباب والرز والمرق

واللحم المشوي. لحم عظيم وهائل الحجم. كنت أتخيل قطع اللحم الصغيرة السابحة في المرق على أنها ذات كتلة كبيرة ووهمية قادمة من عالم آخر. كنت أشتهي اللحم. أياً كان. مسلوقاً أو مقلياً أو مشوياً. الدهن كان يسيل منه ورائحة اللوز والكشمش والبهار تفوح منه.

عرفت أحد المحال المتخصصة بشي أفخاذ الدجاج. كنت أزوره باستمرار بصحبة نوفل. لم نكن نأكل. مرة واحدة اشترى نوفل بعض القطع. كانت مشوية على الفحم وطعمها رائع. مذهل، محطم للقلب. أردت الذوبان تماماً أمام تلك القطع المشوية. أتذكر أننا التهمناها حتى العظام.

دائماً كان عمي مفلساً. كان يأكل مثلي الكراث والخبز من أجل أن يدخر المال لقحابه. في كثير من الأحيان كان يمنحني فضلات قحابه وكنت التهم ما تبقى من طعامهن بشهوة غريبة وعجيبة ومدمرة. كنت أسعد إنسان في تلك اللحظات بالرغم من أني كنت أشعر أنني لست أكثر من كلب. كنت أمنح بقايا الخبز المنقوعة بالدهن إلى الفئران والجرذان. صوت في داخلي كان يقول امنح المساكين نتف الخبز. أن تمنح فتلك مسألة عظيمة.

شعرت بعد أن التهمت الفئران والجرذان بقايا الخبز. بالقوة التي منحتني نوعاً من التوازن الداخلي مع بقايا العالم الخرف والصعب. كنت أنظر لهم برحمة وبنظرة مليئة بالحنان، بالأبوة. أنثر الخبز وأنتظر مرورهم، وصولهم، قدومهم. العالم يتغير في تلك اللحظات، يتحول إلى عالم آخر بعيداً عن هذا العالم الشرس والصعب والبارد حد اللعنة. عندما تأكل الفئران نتف الخبز كنت أهتز، تصيبني متلازمة مرضية فأرمي المزيد والمزيد. كنت أرمي من كيس خبز وسمن لا ينتهي وكأني عشتار أو اينانا. كلوا أيها المساكين، البؤس ولى إلى الأبد وأنا الصيغة الجديدة التي تمنح العالم فرصة أخرى للنجاة من الذنوب والخطايا، لكن عندي لا تحتسب الخطايا. لم أكن أعيرها أهمية.

ماذا يعني أن يسرق المرء قطعاً من الخبز واللحم وبعض الملابس. ليست هناك جريمة لأن الضحايا والمجرمين سوف يدخلون الجبروت والجنائن المعلقة ووحي يطوف عليهم يتلمس مرضاتهم الأبدية عني. كنت أرتعش من هذه الرؤية وحين أوزع نتف الخبز في الأرجاء وأتوسل الفئران أن تأكل منحتي الدائمة والأبدية أشعر بالسعادة القصوى.

كنت أغرق في عالم الفئران والجرذان بالرغم من أني كنت أكره الجرذان إذ أنها شرسة مثل عمي وكانت ترفس وتدفع الفئران المسكينة ولا تمنحها المزيد من الخبز. أخذت أشعر بالألم من التصرفات الغيرية والقذرة للجرذان. وبالرغم من أني أمنحهم الغذاء. إلا أنني كنت أشعر بالوجع يعتصرني وأنا أشاهدهم يسرقون المساكين ولا يمنحوهم فرصة صغيرة من أجل الاندماج في هذا العالم.

في تلك اللحظات الكبيرة كنت أتعرف بشكل دقيق على يهوه وعلى الله، أتلمس عطاءهم الدائم وأتعرف على شعورهم حين يمنحون المخلوقات الطعام من أجل حاجة نفسية عميقة خاصة بهم. إنها رغبة دفينة في نفس الإله، رغبة من أجل أن يكون المرء إلهاً فإن عليه أن يمنح العالم سلامه الداخلي. أن لا يكره ولا يجوع ولا ينهب ولا يسرق. لم أكن أتصور نفسي أن الآلهة بحاجة إلى المخلوقات إلا بعد أن منحت الاخرين ما يريدون. ما يشتهون. ما يتوسلون. اكتشفت في ذلك الوقت أن تكون مانحاً فهذا يعني أن تبلسم الجراح، أن تمنح الحياة، أن تمزج على نحو دقيق بين الدموع والتوسل والابتهالات.

يستمر عمي في سحلي بصعوبة وعندما يدخلني إلى غرفة المخزن وفيها كان ينزع حزامه الأسود، أفلت يدي. يا للسماء، هربت مسرعاً نازلا السلم درجتين درجتين. صوت عمي كان خشنا صارخا. هبطت السلم ونظرت مرة واحدة إلى الوراء حيث كان هو خلفي يلهث ويمسك بحزامه وظلمة عميقة على وجهه. كنت أرتعش وجسمي يهتز مثل ثمرة عالقة بهذا

العالم عبر خيط رفيع. في تلك اللحظات لم أكن أشاهد عمي على نحو واضح، إنما أشاهد فماً كبيراً ووجهاً متقصفاً كأنه صفحة من الألمنيوم تمزقت تحت خيول داهمة.

ظلام كبير وضياع لكني كنت أريد الهروب. تحول العالم كله إلى أشياء بلا معنى، وهم ولم أعد أحس بالآخرين. كنت أريد أن أخرج من المقهى، أن أجد البوابة وأن أدفعها إلى النهاية القصوى. صوت من البرية ينطلق خلفي. كان يناديني باسمي وبابن الكلب ثم تمتزج معه أصوات أخرى تنطلق من مناطق شتى. أحدهم حاول الإمساك بي إذ وقف أمامي، لكني كنت سريعاً جداً يا عمي، كنت مثل الفأر أو السمكة وأنا أهرب منك إلى الأبد لأضيع في عالم دبق لأنك كنت وحشياً جداً وغائماً جداً ومثل رياح تحمل سحباً قاتلة جداً.

كنت تناور بين الطاولات. لكني كنت سريعاً يا عمي. كنت ابن كلب حقيقي وأنا أعوي والسكارى من ليلة الأمس، كنت أصرخ بهم، في وجوههم، أن افتحوا الأبواب يا أبناء القحبة. وكنت أنت يا عمي، خلفي تسب أمي راحيل. لم أكن أريد أن تلعن راحيل. لم أكن أريد أن تلعن شلمون الأعور، الراب الكبير والأب المثالي لراحيل حتى وإن كان قد طردها من فسحة الأمل والألم والفرحة والعناية الخاصة به لأنها اقترنت بهذا الغوييم القذر.

شلمون الذي كنت أشبهه في الأحلام بالرغم من أنك لم تعرفه لكنك تسبه الآن وتلعنه وهو أيضاً كان يلعنك أنت والغوييم الآخر الذي سرق ابنته يا عمي. تستطيع الآن أن تسبهم كلهم. أن تلعنهم سوية لكنك لا تستطيع أن تصل إلى مقدار العشر من حنانهم يا عمي. حنانهم الكبير وصوت راحيل الرخيم وهي تقرأ في مزامير الرب عن بنات أورشليم حين يملأن الجرار من عين ماء خفية تحت الجدار.

أهرب منك يا عمي إلى الأبد وسوف لن أرجع، فلقد قررت عدم

العودة وأن أدخل العالم الاخر، مثلك بالرغم من أنك دخلته من الطريق الخطأ وذلك لأنك غوييم يا عمي، غوييم ولم أعد أشعر معك أني مع بقية من أهلي. أقترب من الباب. أقترب بصورة شبحية ومن يعمل في المقهى كان مذهولاً وأنا أطير بين الطاولات أشبه بصرصار مجنح أو عصفور ضل طريقه.لكني لست عصفوراً يا عمي تستطيع أن تسقطه بضربة واحدة من نعالك المسود بسوائل الشاي. كنت أريد الهرب منك لأني مللت جوعك وعهرك وركضك خلف القحاب تستميل هذه وتتوسل تلك وهن مثل الأفاعي يزحفن بعد منتصف الليل إلى المقهى أو يتوقفن لشراء الشاي.

كنت مذهولاً لقدرتك الغريبة، قدرتك الجهنمية على امتصاصهم مثل خرقة ناشفة سرعان ما تبتل. كنت الشيء الوحيد الذي ينغص حياتك. يقلبها رأساً على عقب لكنك وبعد أن يئست من مجيء جدتي صرت تستقبلهن أمامي. كن قذرات ولم أشاهد واحدة منهم وهي ترتدي جيداً، كن جائعات دائماً وسرعان ما أذهب أنا من أجل أن أجلب لك المعلاق من رأس الشارع.

كان المعلاق وجبتك ووجبتهن المفضلة أما أنا فكنت أختلس دائماً قطعة من كل سيخ وألتهمها برغم حرارتها القوية. كنت أبتلع المعلاق مثل الأفعى حينما تلتهم فأراً صغيراً. دائماً كانت أسياخ المعلاق التي أجلبها ناقصة لكنك لم تهتم كثيراً برغم أن العاهرات كن ينبهنك إلى هذا.

كنت مثل المطر. هل تشاهد المطر يا عمي. أتغذى قطرة قطرة وأجتر طعامي وأخزنه في معدتي لكن الأمعاء الملعونة سرعان ما تقذف الطعام وتحوله إلى غائط يومي، لم أكن أريده أن يخرج. كنت أصبر على الألم يومين أو ثلاثة من أجل امتصاص المعلاق بشكل كلي. وحينما أفعلها كنت أشعر بالأسف كون المعلاق أنهى دورته الطبيعية وحان موعد الفجيعة.

الفصل الثامن

هربت من المقهى. دون أن أعرف إلى أين أتجه. مشيت في البداية بارتجاف وخوف وما أن ابتعدت عن المقهى حتى صرت أشعر بالضياع في هذا الحساء الملون والقذر. التفت أكثر من مرة لأتأكد أن عمي لا يلاحقني وحينما لم أشاهده أبطأت خطواتي ورحت أسير وأنا أنظر إلى واجهات المحال الكثيرة. شدتني بعض المحال التي تبيع ألعاب الأطفال. شعرت بالتوهج وأنا أنظر إلى الألعاب وخاصة الطائرات التي تسير وتومض. التصقت بالنافذة وبدأ بخار التنفس يشكل دوائر ومساحات مضببة.

كان المحل مليئاً باللعب، لكن راحيل ليست هنا. كانت الألعاب تناديني بإلحاح، أحسست بانثيال وأنا أنظر لها ثم أضيع بعد خيالات طويلة في مناطق محرمة من الذاكرة. جيوبي خاوية ولا أملك فلساً واحداً. كانت راحيل تشتري لي بين الحين والآخر بعض اللعب. كنت حقيراً جداً فما أن تشتري لي واحدة حتى أقوم بتفكيكها إلى قطع صغيرة.

كان عالم اللعب بالنسبة لي عالماً خاصاً ومؤثراً أضيع فيه دائماً وأنا أبحث عن الأسرار التي تحرك الطائرات وأسرار القنافذ المتحركة. كثيراً ما كنت أحلم بهذه الألعاب وحين أفككها بثبات وتصميم كبيرين كنت أكتشف عالماً آخر بعيد للغاية عن روح اللعبة. كان عالماً مليئاً بالتروس

والصامولات والأذرع والبطاريات. عالما مكونا من الحديد، لكن هذا العالم كان يومض وينوء ويتحرك.

راحيل تقول إن البطارية هي روح اللعبة ومثلما أن لدينا روح فإن للألعاب روح أيضاً. كنت أبحث عن هذه الروح رغم أني لا أفهم على نحو واضح ما هي الروح. ومثلما لم أكن أفهم معنى روحنا البشرية فإني لم أفهم روح اللعبة أياً كان شكلها.

في زيارة لإحدى صديقات راحيل وكان لها ابن يمتلك ألعاباً جميلة أقنعته أن يفكك كل شيء. كانت في داخلي رغبة عميقة لم أكن أفهمها على نحو واضح، تدفعني إلى نشر ما في داخلي للآخرين، أدخلهم الضياء والنور. بعد هذه الزيارة لم تعد راحيل تأخذني إلى أيّ من صديقاتها ممن لديهن أبناء. عشت تقريباً في شبه عزلة. كانت جدتي لا تسمح لي بأن أخرج الألعاب إلى خارج المنزل. وكان الأصدقاء خارج البيت لا يمتلكون ألعاباً مثلي. ألعابهم فقط الحفر في الرمل وصناعة المكاوير واستعراضها أمامي وأمام بعضهم البعض.

الألعاب كانت تشكل بالنسبة لي مع القصص التي ترويها جدتي عن الجان والعفاريت والسعلاة. أشياء لا يمكن الاستغناء عنها أو حتى الخروج من فلكها إذ كنت أدور في هذا العالم مثل الحالم ومثل الضائع. قصص الجن كانت تمنحني فكرة مجنحة عن عالم آخر غير مرئي وبالرغم من أن قصص جدتي كانت تروى بحميمية إلا أني غالباً ما كنت أشعر بالخوف منها.

فكرت أن أدخل مخزن الألعاب لكني شعرت بالخوف من البائع. كنت أريد أن أغرق مرة ثانية في هذا العالم الذي لم أكن أعرف لماذا ابتعد عني وأصبح مجرد أوهام بعيدة. حينما دخلت المخزن وبعد دقائق من النظر إلى الألعاب طردني صاحب المخزن. شعرت فجأة أني أريد أن أبكي. كانت غصص قوية بدأت بتسلق حنجرتي لكني أخذت أبتلع ريقي وأغني أي شيء من الذاكرة لمجرد أن أشتت رغبة البكاء هذه.

فكرت في تلك اللحظات في نوفل ولم أستطع التوصل إلى طريقة لإيجاده. سرت بتمهل وأنا أنظر إلى المحلات والمخازن. أخذت تستهويني محلات الملابس ثم بدأت أشعر بجوع يعتصر معدتي. كان ثمة مطعم مرتجل لبيع التكة والمعلاق في ركن أحد الشوارع، اقتربت منه وكان الزبائن يشوون المعلاق على نار يتفجر منها الشرار. الرائحة كانت مدمرة للغاية وخاصة لمن هو جائع مثلي. وقفت دقائق واكتفيت بالنظر إلى الزبائن وهم يلتهمون لفاتهم بسرعة وشهية غريبة.

توجهت إلى ناصية الشارع، شعرت بتعب فجلست مستنداً إلى واجهة فندق صغير. لم أكن أعرف الكيفية التي أحصل بها على الطعام. البرد يلف عظامي مثلما يلف طائر صغاره. كم كنت أشبه الأوثان. الأوثان، يا لهذه التسمية الغريبة في هذا الجوع. المعدة كانت تقرقر وكنت أسمع صوتها من أماكن بعيدة. لكن هذه الأماكن هنا. فكرت أن أذهب لسيدي وقرة عيني عبد القادر الكيلاني. كنت أعرف أنه قريب من هنا. دائماً تجده مبثوثاً في مكان ما. العقل يفكر فيه والروح تهفو إلى مساحاته الهائمة والمنورة بقناديل يتفجر منها الضوء. مطعم الخيرات وطاسات الزنجبيل وفحم العرعر والطرفة المتوقدان أمام المشهد السماوي ثم استكانة هائمة من الشاي تشربها حتى وإن كنت لا تملك مالاً.

تلك الحقارة التي أكرهها دائماً، النقود والذهب والعري، الجلمود وهو يهوي على القلوب المتنورة. رؤى سيدي وقرة عيني كانت تنداح أمامي، تفر مثل جياد رشيقة إلى الأبد وهو تهفو في مساحات الوهم الفضفاض. أشتاق إليك وأنت تمسك يدي ونعبر سوية بحر الظلمة ثم بحر النور ثم بحر التوحد ثم بحر الصلاة ثم بحر القدرة، ثم بحر الوجد ثم بحر الذات.. كانت القدرة الكلية هي قدرتك ونحن نمخر في السماء وبين الطبقات الوسنانة لحبك نلتقي بالمكنون الظاهر والخفي والخطوات الرقيقة التي تقول فيها انتبه وسر إلى الأمام وبتمهل من أجل أن لا تكسر

المرمر الاخضر الموشى بملايين الخطوط البيضاء.

في نقاء وجهك المخفي كنت أتجول وأطرق أبواب القصور وكانت النساء الجميلات وحور العين يدعوننا إلى موائد طويلة عليها ما لذّ وطاب، لكنك مثلي كنت تحب المعلاق والتكة. كنت أسقط على وجهي. أسقط من الجوع فتتلقفني النساء بأثدائهن المرمرية ويقربن إلى فمي أسياخ التكة وحينها أستعيد توازني النفسي والروحي كنت ألتهم الكباب والتكة والمعلاق دفعة واحدة ثم أحلّق عالياً بعد أن تتكون على ظهري عشرات الأجنحة الكبيرة.

ليس حلماً كان وجهك. لا، ليس كل الأشياء تشبه طهرك والنقاء والبهاء وارتفاعك عن الآخرين مثل الجنيد البغدادي والحسن البصري والسهروردي. في مزارات الشرف الأعلى والبرغوث السماوي والطهر المبلوج والبحر المظلوم والدنيا الرزية. كنت أبحر بواسطة أشرعة القدرة وهي تدفع بي إلى النهاية القصوى للحب. لكن الجوع كافر وملعون يا سيدي.

كانت أمعائي تتقطع. أريد أن أغذي هذا الحيوان الشرير من خلال الاقتراب منك. من خلال الذوبان في كلامك وأنت تتحدث عن الذات الكلية التي مشاهدتها تدفع المرء للصيام الأبدي.

أسير في الشوارع بلا هدف معين. ليس الهدف هو ما أبحث عنه. كنت أبحث عن شيء غريب ومتناغم مع روحي. لكن كل شيء كان ينفر من وجهي وكأني إله الطاعون والموت والمغفرة المؤجلة. صيام بهائي طويل وليل سوف يأتي من مكان ما ولم أكن على استعداد لاستقباله لأن مؤونتي من الجوع ممتلئة والبرد قارس. احتميت بجانب أحد الجدران لكن الجوع والبرد لم يمهلاني. كانا يريدان موتي سريعاً أو بطيئاً ومطعم الخيرات بعيد وعناية سيدي وقرة عيني هي الأخرى بعيدة.

ليس بالإمكان دائماً إيجاد مكان للاختباء والدفء. الدفء مشلول

وغريب في هذا العالم. لم أستطع طيلة سيري المشوش في الشوارع أن أجد مكاناً للاحتماء من الطقس. في نهاية جولتي التي شعرت منها بالإنهاك. انزويت عند مدخل سلم يؤدي إلى عيادات أطباء.

الحشود البشرية والمرضى والآيلون إلى الركام والانحطاط كانوا يرتقون السلالم بجهد كبير. عالم من الأمراض والكتل الدموية والعوريبم والفسحيم. لم أستطع في هذا المكان أن أجد دفئاً كاملاً لكنه كان شيئاً مقبولاً إلى حد ما. الجوع يفتك بي فقررت أن أخرج مرة ثانية لأبحث عما أسد به رمقي.

توقفت طويلاً أمام واجهات المطاعم كنت أشعر أن ثمة شخصا ما سوف يدعوني إلى الطعام. استغرق انتظاري أمام المطاعم ساعات طويلة ثم أخذت الأضواء تنطفيء ومصابيح الشوارع تلعلع بنور أصفر بائس. مع ضوء الشوارع الباهت أخذت أشعر بخوف خفي. خوف يشلني مثل الضحية ويجعلني خارج قياسات الزمن.

بعد أن أنهيت رحلتي أمام المطاعم ولم أُدع من أي ابن قحبة لوجبة طعام. وجدت بالصدفة مزبلة لأحد المطاعم في شارع فرعي مظلم. كانت أضواء السيارات لا تصل إلى هذا المكان. في البدء خفت أن أذهب لألتقط بقايا الطعام حيث كانت هناك كلاب متوحشة بنظرات زائغة ومتوعدة. كانت الكلاب تأكل بنهم غريب وشعرت أني سوف لن أفوز بأية كمية من الطعام بالوقوف جانباً ومراقباً المشهد الأسي. حملت بعض الأحجار وصرت أرمي الكلاب بها. إحدى الأحجار أصابت كلب في عينه فهرب ومعه جوقة كاملة من العرجان والكسيحين.

اقتربت من المزبلة وكان هناك الكثير من الخبز والصمون. لم أجد قطعة كاملة من اللحم لكن وفرة الزبالة كانت أمراً مدهشاً للغاية وشيء محبب إذ تشعر أنك أمام تلال من الطعام لا تنتهي. قررت أن ألتقط بقايا الصمون المغموس بزيت الكباب. وكان المذاق مدهشاً ورائعاً. لأول مرة

كنت أشعر أني أخرج من سيطرة عمي فعلياً. أحسست أني بهذا الشكل سوف أستطيع أن أبقى دون سلطته إلى الأبد أو إلى الوقت الذي أجد فيه عنوان راحيل أو جدتي.

يقول نوفل إن في بغداد أكثر من مستشفى بالإضافة إلى أن المدينة كبيرة ومتشعبة ويجب علي أن أجد اسم المستشفى. وعدني في حالة توفره أن يذهب بي إلى هناك. المدينة كانت كتلة من الفوضى. كل ضرطة تجد صداها عند باعة الجرائد والمتسولين والشحاذين والعميان الذين يقودهم أطفال بدلاً من الكلاب. حتى الكلاب كانت تجد لها مكاناً في هذه الفوضى الحديثة والقديمة.

كل الزمن كان يحتشد أمامي ويثور ويتمرد وأنت تسير بقرب الجوامع والحسينيات أوالكنائس. ارتحلت إلى كنيسة ساحة الطيران. طرقت الباب واستقبلني القس بقراءات عن المسيح. أخذني وأدفأني. وقفت أمام المذبح أاشكر الرب الذي تحمله الأم بيديها. قال لي القس : كلما جعت تعال إلى بيت الرب حيث يمنحك الطعام والخبز والماء والحياة دون مقابل.

خرجت من الكنيسة وذهلت لقذارة العالم الخارجي. ذهلت للوساخة والأزبال والتراب والتصحر والانثيال والبهرجة القذرة وباصات نقل الركاب المتهرئة وسيارات الفورد والتاونس والدودج وهي تنقل الغوييم.

الفوضى غريبة ومزرية وكبيرة. الباعة المتجولون يصرخون ونساء يبعن البعرور والحليب والشربت والخبز الوسخ. كنت مذهولاً حينما اكتشفت عالم الطهرالكنائسي والقس ذو الوجه الإلهي يرنم بصوته الرخيم للرب والرب يمنحه التراتيل والكلمات والقوة والشهوة والابتعاد عن العالم الاخر. العالم القذر المليء بالمخاط والسوائل الصديدية وباعة الشلغم والباقلاء حيث القشور تملأ الأرض.

عالم من الأزبال والتغوط في الشوارع الجانبية ونساء يجلسن على

الأرض يلتهمن الكباب فيها أبنائهم يتغوطون على طول الشارع ورجال يشاركونهم اللعبة المقززة بأن يتبّولوا هم أيضاً أمام الناس. كان كرنفالاً كبيراً للأوساخ. كنت أتساءل إلى أي مدى سوف تستمر هذه الأزبال في التراكم والتراكم والى النقطة التي لا تعود تستطيع معها التنفس لأن كل شيء أصبح عبارة عن نفايات مرمية في الطرقات والشوارع.

في الكنيسة كان القس وبعد أن منحني الطعام يصلي إلى تمثال الرب. ذهب إلى رحلة صوفية. هناك اصطدمت لأول مرة بمفهوم الرب، بمفهوم المسيا والذي يريد أن يظلل البشرية بجناحه الملائكي. لكن البشرية لا تستحق كل هذا. لا يمكن أن يستحق القذرون صكوك براءة ابن الرب وهو الذي مات معلقاً حاملاً العالم على ظهره من أجل أن يذهب النور إلى كل مكان.

الدهشة كبيرة ومتنوعة وشاملة ومتوحدة في محراب الراهب حيث يرفع رأسه دائماً إلى الأعلى من أجل الرب ومن أجل سيدتنا الطاهرة، المرأة المشعة مثل كوكب سماوي ينير للعالم طرقه الفجة والملتوية ويدعو الاخرين إلى العيش بسلام. لكن الإنسان قذر بطبيعته، قذر بشؤمه وابتلاعه الآلهة مثل حبة وجع الرأس.

قال لي الراهب بعد نوبة من البكاء. فلتباركك روح أم الرب. واستغربت أن يكون للرب أم. قال إنها التي حملت به من كلمة الرب وكانت امرأة طاهرة. منحني الراهب ملابس أكثر دفئاً ووضع في يدي بعض قطع النقود. قلت له إني أريد العودة إلى راحيل. نظر إلى وجهي وقال هل تعرف العنوان. قلت بحيرة. لا، لا أعرف. نظر الراهب في عيني. بقي ينظر دقائق قصيرة لكنها كانت طويلة في اهتزازي المستمر مثل مرجل بخاري وآثار الاختناق كانت تتصاعد إلى حنجرتي. لم أستطع أن أتكلم. لم أتمكن من إخراج المزيد من القذارة اللفظية.

نظر الراهب إلى وجهي. مكتوب عليك يا ابن الإنسان أن تنتظر ملكوتي والناموس في الطريق إليك يا أورشليم. ولأن الدموع كانت تجري

وتتفجر في كل لحظة كانت يد الراهب تصلي في محراب طويل وعميق ومضاء بإضاءة باهتة. أضواء تشبه تسلل الضوء الشمسي إلى مكان أبيض ومبهر وطاهر.

خرجت من الكنيسة بدفق روحي وكأن ابن الرب منحني سلطة جبارة على الشياطين والمبعدين عن تذوق حلاوة الإيمان به. كنت أجد هذه الحلاوة على لساني وفجأة يأتي الانبهار الضوئي وأنا أسير في الشوارع التي أظلمت وكأني نور لجميع الأمم. نور يسير على قدمين ويدعو العالم إلى الإيمان بسيدة المساكين والفقراء والجرحى والمعوزين وأبناء المحارم وأبناء الزنى والعرجان والمبتوري الأطراف والأرامل.

كنت أسير مثقلاً بالآلام وليس لأحد أن يزيل الشوك عن طريقي. فقط ابن الرب يفعلها والذي كان يسير أمامنا بأجنحته الملائكية والعطر المبهر الذي ينبثق منه والأشواك التي يقتلعها من أقدامنا العارية. كنا حفاة هذا الزمن المليء بالأشياء المقرفة والوجع والبكاء وكانت ابتسامة ابن الرب تمنحنا بلسماً ملائكياً وصعوداً مبكراً إلى الملكوت القادم حتماً من بين ثقوب السماء.

سرت مثل المسرنم. مثل كرة من الألماس والعاج واللبان والمر والعقيق، أتدحرج على الأرض. كان الراهب قد طلب مني أن أمكث الليلة في الكنيسة. إلا أني شعرت بالخجل منه. شعرت بأني أشبه بعالة على كنيسة الرب فقررت الخروج إلى العالم الملوث بالبراز وأشجار الياس والدفلة والزهور الميتة والقطط السائبة والكلاب المتوفزة التي نتصارع وإياها على لفة الكباب وأقراص الخبز المدهونة بطعم التكة والمعلاق. كان عالماً غريباً وجدته حينما أفقت من حلم الإنسان وكان ابن الرب فوق رأسي ولأني يتيم، فإن المسيا يمسح رأسي. يمسح الوساخة وعدم الاغتسال والطمث والدم والبكتريا والدزنتري والإسهال المعوي وكل الأمراض الفتاكة بدءاً من السرطان وانتهاءً بألم الأسنان.

خرجت إلى العالم وكأني خرجت من جنة بالرغم من عريها إلا أنها كانت تمنحني الطمأنينة. أردت في ذاتي أن أبقى في هذا الجو الكنسي، حيث التراتيل وحيث الإله وابنه وأم الرب والعائلة المقدسة كلها تسهر على توفير مكان آمن لك في غابة الأشواك هذه. اعتبرت نفسي مطروداً منها. إلا أن شعور الطرد لم يكن نهائياً إذ قال القس اهلاً بك في أي وقت. الكنيسة بيت الرب حيث ستجد السلام بين الحروب واللقمة وسط الجوع والطمأنينة وسط الاضطراب والروعة وسط الخراء والطهر وسط التلوث.

خرجت من الكنيسة وأنا أشم العالم مثل زهرة سوداء بلا رتوش ولا جوهر ولا رائحة باستثناء روائح الجيف والكلاب الميتة والقطط الشائهة والمرتعشة. كلهم كانوا يرتعشون. الحيوانات والرجال والنساء. عالم من الارتعاش والانقباض والمغص الكلوي والأمعاء تتمدد وتتقلص دون إرادة الأشخاص.

مدينة تعشق الوحول والمطر البائس والنتانة. كل شيء في المدينة يتحول إلى أصنام تكفيرية بحق الرب. وكان الرب هناك يعلم أن الموت حياة والحياة لا تعني الانغماس المضطرد في الدنس وأن الملكوت القادم سوف يخلو من الأوجاع والأمراض والدجاج والباسطرمة والكباب والتكة والمعلاق والطرشي وكبة الحلب والبرغل والطماطم المشوية ومطاعم تاجران وأبو يونان. كل هذا الهباء الكوني الخائف والمرتعش سوف ألوكه بأسناني ثم أزدرده لقمة إثر لقمة وجرعة إثر جرعة.

جرعات كبيرة من سائل العرق المستكي والمسيح ينهمر في شلالات مدوية ثم تعقبها صرخة هي صرخة المدينة البائسة والرثة وأنت لا تشاهد الأشجار ولا الجرابيع ولا الفوط ولا العباءات. هناك التحاف مدو، التحاف بهذه الملاءات السوداء والجراغد والعمائم وجرائد ملفوفة على هيئة كتل صغيرة تحمل الوباء الكلي الذي يجتاح المدينة.

شكراً للقس الذي منحني الملابس في كنيسة الرب. لكن الملابس كانت

مرة أخرى ضعيفة وغير قادرة على درء البرد. برد المناويك. هكذا هو بردنـا في بغداد فالبرغم من أنه جميل جداً لكن لا تنفع معه كثرة الملابس ولا تنفـع معـه أغلى وأجمل المعاطف. البرد في بغداد لا يأتي مثل كل مدن العالم من المحـيط أو من الصحراء فحسب أو من الجبـال. بردنـا فيـه روح المكـان وعبقريـة النهـر والتفافة الأفعواني حول نفسه وهكذا.. فالبرد هنا يخرق ملابسك ويتـسلل إلى مؤخرتك وظهرك فترتعش وتشعر أنه يجب أن تتبول بسرعة وإلا...، اللعنة.. سوف تفعلها إلى الأبد في سروالك وتتبلـل وتقـول للآخـرين إنـك أسـقطت ماعون الشلغم على سروالك وهكذا سوف تتخلص من الأسئلة.

حينما تقترب من النهر.. وهكذا أخـذت أسـير حتـى وصـلته. تجـده دافئاً. حينما تلمس الماء سوف تشاهد بغداد أخرى. بغداد مدوية ورحيمـة، مدينة تبعد عنها البق والـذباب والـدزنتري، لأنهـا مدينـة مفعمـة بـالعرق المستكي والزحلاوي وعرق بعشيقة. الكل في شارع أبي نـواس يـسكرون. الشارع عبارة عن خمارة كبيرة تحت قبة المجهول. الممارسـة العبثيـة للمدينـة تتجلى هنا وحين تشاهد كل هذه الحشود المصروعة والجالسة على الأرصـفة والتي تتقيأ سوف تعتقد أن بغداد ذاتها هي من يتقيأ وذلك لأن الغيم والمطر والبرد يمنحان السكران فرصـة أخـرى للـذوبان في عـالم القـيء والـترنح والاتكاء على الحيطـان والغنـاء والأدهـى مـن ذلـك كلـه، البكـاء المعربـد والمجنون والهستيري للسكارى ثم نواحهم وجلوسهم على الأرصفة.

أخذت أفكر بشيء أكسبني الحيرة. لماذا لا ينام النهر؟، لماذا لا يأخـذ إغفاءته الصغيرة. لكن الماء يتدفق، يتـدفق. ينحنـي. يتمـرد. يجـري بـشدة وأحياناً بتمهل لكنه لا يتوقف حتى لو ألقيت فيه نصف الـسكارى. الليـل غريب ومدهش لكني كنت أشعر بالخوف الأبدي منه. الخوف هـو مـن أن أتحول إلى عظايا دائمة التسول والبحث في مكبات النفايـات وأن أتحـول في يوم ما إلى كلب أو قطة بائسة. الكلاب هنا مهمومة. تـستطيع أن تـشاركها الطعام لكن المشكلة تحدث فيها إذا كان الطعام قلـيلاً حينئـذ سـوف تعـوي عليك وربما تمارس طقوس القتل معك.

كنت أترك المزابل الصغيرة وأتوجه إلى الكبيرة حيث وفرة أكيدة لبقايا الصمون والخبز. المدينة تزدرد معي بقايا الطعام، تزدرد وتشرب أنخاب غاية في الرقة. تتحول المدينة إلى منجنيق كبير يرمي علي بكتلته الباردة. أخطف الخطفة وانزوي في ركن. عيون الكلاب تنظر برقة نحوي. ربما هي تتصورني مثلها كلب بائس ويتيم. يتيم نعم وبائس مؤكد وهناك أشياء أخرى كانت تقولها هذه العيون الهرمة والمتعبة والمرتعشة والآيلة إلى الانحطاط.

عيون الكلاب كانت ترسم مسارات الزمن والعاصفة والجوع والابتراد والإسهال واللعنة واليتم والقهر والتشرد والضعة والذل والاشمئزاز والدنيئة والغثيان. لكن كل هذا يبقى أفضل الف مرة من العودة إلى عمي الشائه والغارق في ثنايا العاهرات الوسخات والقبيحات..

كانت الرائحة التي تخلفها المضاجعة في الغرفة العلوية حيث كنت أنام. رائحة مخاطية ورائحة حامضة تبعث على التقيؤ. كانت الرائحة تجول ثم تستقر على الأرض وعلى أكياس الشاي والسكر وعلى اللحاف القديم الممدود على الأرض. كان عمي يضاجع قحابه على لحافي. كنت أشاهدهن مثل شمعات سوداء آيلة إلى الذوبان والانحطاط. هزيلات وغالبيتهن كن بشعر كث غير مرتب، أما أثدائهن فكانت متدلية مثل أثداء إناث الكلاب. عبارة عن قطعة هزيلة من اللحم المطاط الأسود أو الداكن البشرة. كنت أشعر بالتقيؤ وأنا أشاهدهن وكانت جدتي تقول دائماً عنك إنك الشيء الخطأ في المكان الخطأ في الزمن الخطأ.

كنت عبارة عن ثلاثة أخطاء قاتلة. الخطأ الأول أنها تزوجت بأبيك أما الخطأ الثاني فهو أنها حبلت بك أما الخطأ الأكثر شناعة وصفاقة وبؤساً فهو أنك خرجت إلى الحياة مجنوناً. مجنوناً يصارع المجانين في حي فقير للغاية في جزائر البحرين حيث ولدتك من السم القاتل والجو القاسي والبيئة المجوعة.

هكذا منحتك الحياة وكانت تتمنى لو أنك مت أية ميتة شريفة بدل أن تتعب عليك وتربيك ثم تضربها بعد ذلك. لكنك لست مجنوناً يا عمي. هكذا كانت جدتي تقول إنما كنت أبلهاً كبيراً. أبلهاً يعيش في عالم مضطرب لكنه لا يهتم بالعالم أبداً. لذلك لم تستطع أمك أن تزوجك ولم تستطع أن تجعل منك رجلاً، وأقصد أن تكون لك زوجة وأطفال تستطيع أن تعيلهم وأن تمنحهم السلام أمام جنون العالم الوحشي.

كانت جدتي تشعر أنها المرة الوحيدة التي فكرت بشكل صحيح عندما لم تزوجك ولو أنها زوجتك لكان يترتب عليها أن تجد لقمة الطعام ليس لنفسها فقط إنما لأطفالك ولزوجتك وهو شيء خطير جداً وفي ظل موت أبي الذي دمر كل شيء في حياتها. كانت جدتي حزينة بعمق لأنها أنجبت أبلهاً لا يستطيع حتى إيجاد لقمة العيش لنفسه وبدلاً من أن تعيل أمك كانت هي التي تعيلك وتمنحك بين فترة وأخرى مصروفاً يساعدك على دخول السينما والذهاب إلى الكلجية وشراء كتيبات أغاني فريد الأطرش وأسمهان وأم كلثوم.

كانت جدتي تقول إنه عار أبدي ليس لأنه يستمر في إجبار جدتي على منحه مصروفه اليومي وعدم قدرته على العمل وكسب النقود. إنما لأنها كانت تكره أباه كما يكره مؤمن الشيطان. كانت جدتي قد زوجت من أبيه الساكن في البحرين وهناك أماتها الزوج من الجوع وكان يحسب عليها كم تستهلك في اليوم من الخبز. كان طعامها عبارة عن قطعة صغيرة من الخبز مع بعض التمرات وقدح واحد من الماء وحينما توفي زوجها وضعت ابنها هذا الذي جاء إلى العالم أبلهاً نتيجة الجوع والعري الذي مرت به أثناء حملها.

بعد وفاة الزوج حملت جدتي أغراضها وعادت إلى بغداد لتتزوج ثانية ووضعت ابناً آخر. لكن هذا الابن لم يكن أبلهاً إنما مريضاً مرضاً مزمناً لقصور العضلة القلبية. كانت جدتي تشعر أن الرب يعاقبها عقاباً صارماً لكنها لم تعرف على نحو واضح لماذا كان هذا العقاب أصلاً.

وأمام همجية العقاب الإلهي شعرت أنها ليست في حاجة إلى الآلهة من أجل حياتها. لقد عرفت الحياة وكرهتها بشدة وصارت أكثر النساء ابتعاداً عن الآلهة والتضحيات والتوسل لها. لم أشاهد طيلة الفترة التي عشتها مع جدتي أنها كانت تدعو الرب لأي أمر. كانت امرأة حرة وذات سطوة قوية ولا تعترف بأية قوانين للخلق إلا قوانينها الخاصة. كانت تقول لماذا يعاقبني الرب، فهي عانت الأمرين مع زوجها الأول وعاشت ما هو أكثر مرارة مع زوجها الثاني ولأنها كانت ذات أنفة وأنف مترفع فإنها انفصلت عن زوجها الثاني ولم تستطع أن تقيم معه علاقة زوجية.

الاستغراق في تذكر العائلة منحني بعض النسيان للمكان الذي أهجع فيه. صورة أبي وصورة أمي وصور جدتي وراحيل كانت تتفتح فجأة من الذاكرة ثم ترتحل سريعاً إلى مكان مجهول. حاولت لأكثر من مرة أن أتبع الذاكرة وهي تمحو الصور لكنني لم أستطع اللحاق بسرعتها الجهنمية حيث تغلق أبوابها سريعاً وتأخذ معها كل الأشياء الجميلة.

التحفت بسترتي ثم نهضت ورحت أجمع بعض قطع المقوى واستطعت استعارة علبة كبريت من أحد السكارى ثم أوقدت ناراً. كانت شعلات النار وهي تتموج وتزدهر وتنثني تبعث على الاسترخاء. شعرت بالدفء يتمدد على جثتي مثل سائل يخرق الدماغ ليولد وردة حمراء كبيرة لها عطر غريب.

أخذت أنظر في شعلات النار. ثم وجدت قنينة عرق فيها بقية صغيرة شربتها وأحسست أني أحلق عالياً دون أجنحة في مملكة الشيطان الكبيرة. لم أكن أعرف لماذا كنت أحلق بهذا الشكل. لكن صور العائلة وتحديداً صورة راحيل وجدتي كانت تتحرك في فجيعة الأيام. أخذت أحلم أن أجد راحيل وأن أتنفس رائحتها المخدرة. كنت قادراً في تلك اللحظة أن أقبل وأمتص وأتقيء وأرحل وأحلق في صورة راحيل التي كان عطش كبير يغذي صورتها وصورة قلبي المرتعش والبائس.

كانت روحي تخرج من أمكنتها السرية نحو اماكن هي الأخرى مجهولة. كنت أريد أن أنسى يا راحيل لكنني تهت في الشوارع، شارعاً بعد شارع. تضمخت العطر الخاص بك وصرت أتشممه في الأحلام وأنام ملء الجفون وملء الأفواه المترعة والباحثة عن نقطة ماء في هجير الصحراء هذه.

كنت أنظر إلى الشعلات النارية وأغذيها كلما تهفت ببقايا ورق المقوى. لا أريد للنار أن تنطفئ، إنما أريد أن أرحل معها في تهويمات الزمن والرغبة والارتعاش. كنت أنظر إلى السكارى وهم يحطمون العالم الهامس والرخو. كانوا يسيرون متمايلين وذلك لأن الأرض عرجاء وتسير على قدم واحدة. كنت أنظر لهم وهم يمرون أمامي مثل سحب مثقلة بالماء وبين الفينة والآخرة كانوا يتوقفون ليتبولوا على حائط أو جدار.

المدينة كلها تسكر وكلها تتبول في الشوارع، وحتى المطر لم يكن قادراً على غسل الدروب والمدن الفائضة بالبول والغائط والتراب والقيء. حتى النساء ويا للهول كن يشتركن في هذا المهرجان البولي، فكن يقرفصن ويلففن عباءاتهن حولهن ثم تشاهد بعد ذلك البول وهو يرتعش ويفور ويتمرد على التربة والإسفلت المهشم..

كنت أشعر بالاسترخاء نتيجة شرب جرعة العرق. شاهدت الكون وهو يفتح أبوابه للملائكة التي تتسلق جدران الجنائن وتذوب في رحب الفضاء الكوني. كانت تلامس النجوم وتلامس أعمدة العالم التي ترفع السماء دون أن نستطيع رؤيتها.

أثناء ترحالي في العوالم الخفية، في الزحف بالذاكرة واستلابها على أرض البول والقيء، مر شرطي عجوز ثم توقف إزائي. كان منظره يوحي بالحقارة، باللؤم وهو ينظر إلى وجهي. ثم اقترب وقال لي.

– ماذا تفعل هنا يا ابن القحبة.

– قلت بتمهل، لا شيء.

- إنهض واذهب من هنا وإلا سجنتك.
- لكن أين أذهب، قلت.
- إلى الكلجية. إلى جهنم. لا يهمني أين تذهب.
- لكن يا سيدي لا أعرف مكاناً أذهب إليه.
- ليست مشكلتي اذهب إلى أي مكان لكن لا تبقى هنا، قال بجفاء ونفاد صبر.
- لكن ليس لي مكان.
- ابن القحبة، منيوك، اذهب إلى أمك التي تركتك في الشوارع. انهض الآن واذهب.

نظرت إلى النار نظرة أخيرة. الكلاب تنظر بألم نحو ما يحدث. كل الحيوانات والحشرات في الأرض كانت تتضامن معي. عيونها تذوب وتحملق بالسماء ونحوي. لا نريدك أن ترحل. لكن لا أستطيع. تمرد عليه، اضربه بحجر الطريق، التقط قنينة العرق وهشم رأسه. لا أستطيع، أنا غير قادر على فعل هذه الأشياء، أنا مهزوم لأني لم أعد أستطيع رؤية راحيل ولأن راحيل هي قوة الكون الدفينة في روحي الملتهبة والأسية. تحزن الكلاب والقطط والصراصير والأفاعي والفئران والجرذان.

أنهض أحمل ثقل الكون. أسير خطوات وتلحقني حيواناتي الكئيبة ونظرات الحزن تعلو وجوهها. أسير بضع خطوات أخرى وأنظر إلى الشرطي. ثم أترك العالم. بقيت نظرات الشرطي تتابعني وأنا أختفي تدريجياً من شارع أبي نؤاس ثم أنحرف باتجاه شوارع أخرى. الصمت مهول. في الشوارع الرئيسية تسير بضع سيارات وأقترب من المقهى. حينما لمحته من بعيد، أحسست بارتعاش قوي يهزني. كنت أدرك أن عمي لو شاهدني الآن فإنه سوف يحطمني. جلست على مبعدة شوارع من المقهى. ثم حاولت أن أوقد ناراً من جديد، لكني فشلت إذ لم أجد ورقاً مقوى

للحرق مرت امرأة بعباءة سوداء ثم اقتربت مني.

- ماذا تفعل هنا، قالت.

شعرت بالخوف. كنت أخشى أن تكون مدسوسة من قبل عمي.

- لا شيء، لا أفعل شيئاً، قلت.

- أين بيتكم.

قالت وهي تشعل سيجارة ثم تقترب وتجلس إلى جانبي. كانت رائحتها عفنة.

- ليس لي بيت.

قلت وأنا أشعر بريبة تلفني. كان مقطع طولي لوجهها يبرز من العباءة بشكل مثلث قاعدته إلى الأعلى.

- أنت فرخ، قالت وهي تنظر إلى نهاية الطريق.

- لا أعرف قلت.

ضحكت وبدت أسنان قليلة تلمع من فتحة العباءة.

- شنو يعني متعرف. أكيد أنت فرخ لكن لا تريد أن تقول أو تخاف، أنا أعرف الفروخ من أول نظرة.

- لا لست فرخاً أؤكد لك. قلت.

- حسناً إذا لم تكن فرخاً لماذا تجلس هنا؟ تريد الحصول على فرخجي، لماذا لا تذهب إلى بيتكم؟.

سألت وأرادت إجابة فورية. لكنني لم أستطع أن أجيبها بسرعة. كانت الغصص تخنقني.

- أنت سكرانة أليس كذلك، قلت محاولاً تغيير جهة الكلام.

- أنا دائماً سكرانة وخاصة في الليل، أنا قحبة لكني تعيسة الحظ.

قالت هذا وهي تنظر إلى الأرض ثم إلى وجهي.

- لماذا أصبحت قحبة؟، سألت.

- زوج أمي هو السبب، إنشاء الله يحترق بنار جهنم.

عقبت.

- ما علاقة زوج أمك بعملك.

- أمي بعد أن مرضت اغتصبني زوجها ثم طلب مني أن أعمل لأعيلهم هو وأمي وإخوتي الصغار. كان دائماً يتحرش بي وعندما أصبحت أمي طريحة الفراش اغتصبني بالحمام ثم هددني إن حكيت فإنه سيقتلني ويقتل أمي. بعد ذلك أخذ ينام معي في الفراش كل يوم. كنت أكره رائحته وكان يشرب العرق يومياً، بعد ذلك حبلت وكانت هذه مشكلة كبيرة إذ هددني إذا لم أهرب من البيت سوف يفضحني في المحلة ويقتلني بعد ذلك بحجة حماية الشرف، تنهدت.

- لماذا لم تقولي له إنك ستفضحيه هو، قلت.

- لا، غير ممكن، من سوف يصدقني. ذهبت بعد ذلك وبصحبته إلى امرأة عجوز استطاعت أن تخرج الطفل وكان مقطعاً إلى قطع صغيرة، تصور.

أشعلت سيجارة وأخذت تمتصها بارتجاف.

- بعد أن أجهضت عاد زوج أمي بي إلى البيت وقال لي إنه يجب أن أعمل لأوفر الدواء لأمي وحتى يبقى يعتني بها ولا يرمينا إلى الشارع إذ أن البيت كان مسجلاً باسمه.

راحت وهي تتحدث ترسم أشياء لا على التعيين على الأرض. ثم قالت إنها ستبحث عن أغصان لإيقادها وتكوين نار صغيرة نتدفأ بها.

من فرجة العباءة كانت عيناها تلمعان بقوة. عيون تشبه عيون

السحالي في حقول الذرة والعرانيس المبتلاة بحمى الطيف النجمي. جاءت بعد دقائق بعيدان صغيرة وعلب كرتون وصفيحة سمنة. بهدوء وضعت كل الأشياء في الصفيحة ثم أوقدت النار. شعرت بعد لحظات بالدفء. كان دفئاً لذيذاً ورحت أشعر بأني أعود مرة أخرى إلى أزمان نائية وبأني أكثر أماناً. قدمت لي سيجارة بعد أن أشعلتها وأخذت بدوري أسحب أنفاساً طويلة وأنفث الدخان إلى الأعلى. كنت أشعر بنوع من الحرية المفاجئة. حرية لذيذة الطعم ورقيقة الملمس تدفع بي بعيداً إلى سواحل شطآن غريبة وبعيدة. قلت لها بعد أن انتهيت من سيجارتي.

- هل تقضين ليلك مثلي في الشارع؟.
- نعم. دائماً. يعتمد الأمر على العمل. لكني في الغالب أنام على الأرصفة. وأنت؟.
- هذه المرة الأولى التي أبيت فيها خارج البيت.
- يعني صحيح أنت لست فرخاً.
- أحلف لك بالعباس أني لست فرخاً.
- لماذا لا تعود إلى البيت.
- ليس لي بيت. لقد رحلوا كلهم. جدتي. راحيل. حتى يهوه رحل عني.
- من هو يهوه؟
- ألا تعرفيه؟ قلت متعجباً.
- لا لم أسمع به من قبل. ما هو اليهوه؟
- شيء مشابه لله.
- ليس هناك غير الله. هذا ما أعرفه.
- قصتك مؤلمة.
- إنها القسمة والنصيب.

- كيف يعني قسمة ونصيب؟
- صحيح لا تعرف القسمة والنصيب؟
- أؤكد لك بأني لا أعرف. لماذا.
- لا يوجد أحد لا يعرف القسمة والنصيب.!
- القسمة والنصيب. آه يا ربي. ماذا أقول لك. حسناً. إن كل شيء يجري لك هو مقدر سابقاً. أعني أن الله وضعه وهكذا فقسم من الناس جعلهم سعداء والقسم الآخر تعساء.
- أخاف من القسمة والنصيب.
- لا أدري لماذا وضع الله القسمة والنصيب. لماذا نحن تعساء وآخرين سعداء. لماذا أجبني.؟
- لا أدري. تلعثمت قليلاً. لم أكن أجد أية إجابة. لا بل إن الموضوع كان ماسأوياً ولم أستطع فهمه. حقاً لماذا هناك سعداء وهناك مناكيد.؟
- أكثر من مرة كنت أتساءل لماذا لم ينتقم الله من زوج أمي.
- أنا أيضاً أتساءل لماذا أخرجنا من بيتنا وجيء بي إلى عمي. لماذا لا أرى راحيل.
- هذه أيضاً قسمة ونصيب. كل شيء هو قسمة ونصيب. كانت أمي تقول لي هذا. في البداية لم أصدقها لكن ماحدث بعد ذلك جعلني أؤمن به. إذا حصلت على زبون الآن فإنه سوف يجعلني آكل غداً وهو قسمة ونصيب. إذا حصلت على زبونين في الليلة فإن هذا يعني دواء لأمي ومصرف جيب لزوجها.
- أنا بدأت أخاف من هذه القسمة والنصيب.
- لماذا؟
- أخشى أن يكون قد كتب شيئاً سيئاً فيها يخصني!

- لقد كتب فعلاً. ها أنت اليوم هنا في الشارع بلا بيت أو مسكن. أنت من الجماعة المغضوب عليهم مثلي.

ضحكت وبانت أسنانها. بعد دقائق نهضت وقالت إنها ستذهب لإيجاد لقمتها.. شاهدت أحدهم وهو يترنح فاقتربت منه وأخذت تتحدث معه بخفوت. وقف الرجل وهو لا يكاد يثبت في مكانه ثم مد يده تحت العباءة. كانت هي واقفة لا تتحرك. عبارة عن قطعة من الحديد، ثابتة ومستقرة ومنحنية الظهر. جذبها الرجل بقوة ثم توقف عند ناصية الشارع و صعد بصحبتها في سيارة تاكسي وغابا في الظلام.

مرت من أمامي وفيما أنا منشغل بصفيحة النار. بضعة نساء كن يضحكن وأمامهن تسير امرأة سمينة جداً. الخوف كان يسيطر على جسمي. كنت أشعر بالرعب من أن يكون مصيري مشابه لمصير القحبة التي جلست قربي. لكن أنا ليس لدي زوج أم وهو ما أفرحني.

بعد إغفاءة صغيرة أحسست بأصابع تعبث بمؤخرتي. ارتعشت وحينما أفقت كان شخصاً ما يريد أن ينزع سروالي. ضربته. أخذ الجسد يلتوي ثم يتقيأ واستطعت الإفلات والركض في الشارع مجتازاً البنايات المتداعية المظلمة. كانت أضواء الشوارع ترتعش أمام عيني لا بل تبعث شعاعاً هزيلاً ورمادياً مائلاً إلى الاصفرار. كل جسمي كان يرتجف وساقي أيضاً وبعد عدة شوارع توقفت وتبولت على أحد الجدران.

كانت أمعائي تتقلص بقوة وأخذت أشعر بالغثيان. مددت أصبعي داخل فمي وأجبرت نفسي على التقيوء. شعرت بعدما تقيأت براحة أكبر لكن إحساساً بالجوع بدأ يداهمني. قررت أن لا أبحث عن طعام. لكن ما الذي سأفعله. فكرت أنه بمجرد شروق الشمس سوف أبحث عن جامع أجلس على بابه من أجل الحصول على النقود. قلت في نفسي شكراً نوفل.

أخذت أفكر أنه من الأفضل أن أسير دون توقف. لكن وجعاً كبيراً كان يضرب عميقاً عضلة الرجل. تحاملت على نفسي ومشيت بضع

خطوات. مر شخص من أمامي. كانت ثمة غشاوة تحيط بعيني لكن ما وجدته كان شيئاً جميلاً وغير متوقع. إنه نوفل. لم أصدق. إنه هو ذاته وبشكل حقيقي. ناديته وأنا أرتعش من البرد، توقف مبهوتاً.

- ماذا تفعل هنا؟، قال بدهشة كبيرة. ما الأمر؟، احكي بسرعة.

لم أستطع أن أتفوه بغير كلمات قليلة.

*****

لم يكن بيت خالة نوفل مثلما شاهدته في المرة الأولى. كان نورانياً و القحاب يملأن البيت. نساء ضئيلات بشعور مفروقة من المنتصف ومن الجانب وخالة نوفل تتربع عند مقدمة الدار. كان لحمها طرياً ومتهدلاً وسائغاً وأبيضاً. نوع من اللعنة كانت تمشي على أرجل كهربائية. حتى ضحكتها كانت عبارة عن كركرة مدوية.. اعترضت خالة نوفل على وجودي. قالت إنها لا تريد مشاكل مع الشرطة.

- يجب أن يخرج من هنا قالت حاسمة.

توسل نوفل.

- قال لها فقط اليوم ريثما أجد مكاناً له أو يعود إلى عمه.

اقشعر جسدي حينما ذكر عمي. الساعة كانت الثانية صباحاً. كنت أتثاءب. وافقت خالة نوفل على بقائي ليوم واحد فقط. حينما كنا نهم بارتقاء السلم. صرخت واحدة من القحاب.

- باجي راح يملخني.

هرعت الخالة إلى الأعلى واستطعت أن أشم رائحتها التي تشبه رائحة الزرنيخ والبوتاس مخلوطاً براحة العرق والمياه الآسنة.

في الطابق الأعلى كان أحد الرجال يتقيأ في الممر. دخلت الخالة إلى

غرفة وابتدأ الصراخ والهرج والعبث. الروائح كانت تسيح في الغرفة مثل الثعابين الميتة. لم أستطع أن أميز كل الروائح لكنها كانت رائحة تعرق وروائح فم قذرة. دخل إلى الغرفة مع خالة نوفل زوجها المفترض، كانت له جثة ضخمة للغاية. بعد لحظات من الصراخ والضرب والقبضات المتداخلة والمهاجمة خرج شاب من الغرفة مذعورا وهو يبحث عن بوابة الخروج. بعد هروب الرجل خرجت خالة نوفل وزوجها وهم يلعنون الزمن والخراء والرجولة الناقصة.

أشعلت الخالة سيجارة وهبطت السلم لتجلس في مكانها وهي تلهث مثل كركدن وتميل برأسها إلى اليمين واليسار. كانت تغرق في دخان السيجارة وزوجها أمامها بشاربه الكبير وأصابعه المتورمة والمنفوخة. كان يهدؤها ويفرك أصابعها ويدلك ذراعها وهي مستندة إلى الحائط وتجلس على (جودلية) كبيرة وثخينة.

كنت أتمسك بنوفل مثل قطة تتمسك بكلب حبيب وإنساني متنازل عن سلوكياته الكلبية. بنات خالة نوفل يخرجن من الغرف. البعض منهن في الحمام والبعض الآخر في المرحاض. أما الأخريات فيجلسن على الأرض ودكات السلم وهن مباعدات بين سيقانهن وظلمة عميقة تغلف نهاية أفخاذهن.. أدخل غرفة في الطابق الثاني. رائحة القيء تدور في الغرفة. أذهلتني هذه الرائحة التي تملأ البيت دون وجود سبب لها.

أسير مع نوفل الذي يمسك ذراعي وكأنما يمنعني من الهرب. وجدت فرقاً شاسعاً بين الخارج وبين جو هذا البيت. في الخارج تكون مطارداً لكن هناك هواء باردا، نقيا، مذهلا. طازجا. يومئ نوفل إلى (كرويته) بائسة مركومة في الغرفة. أضع جسمي على الأريكة وأشعر بانحلال أعضائي.

صوت صراخ القحاب وخالة نوفل يصل إلي من أمكنة سرية فيطيح بالوحدة القاتلة في الغرفة التي هي عبارة عن مخزن للأغراض الزائدة. بعد

ذلك غرقت في نوم عميق لم أتخلص منه إلا في ضحى اليوم التالي. عندما أستيقظت لم أجد نوفل. وجدت على قطعة خشبية تمثل طاولة. قرص خبز. نهضت و تناولت قطعة الخبز وأخذت ألوك مثل البعران حينما تجتر طعامها.

البيت في الصباح ساكن، يفتقد الحركة الصاخبة لليلة الأمس. بعد نصف ساعة تقريباً جاء نوفل وهو يحمل بيديه مجموعة من الجرائد وقال إن عمك لم يزل يبحث عنك بجنون وجاءت جدتك أيضاً وأن علي أن أعود إلى المقهى بأي شكل من الأشكال. لم أجد جواباً. قال نوفل إن بإمكانه أن يقنع عمي بأن أبقى هنا لكن على الأرجح لن يوافق إذ أنه يعرف هذا البيت وهو يحضر إلى هنا في فترات متباعدة.

لم أستطع أن أجيب بأي شيء. لكنني كنت أرغب فعلاً أن أبقى بعيداً عن جو المقهى والضرب بالحزام. حسناً قال نوفل، إن علي أن أفكر بسرعة وأعطيه الجواب. رمى إلي واحدة من الجرائد التي يحملها وأخذ البقية إلى الرفيق.

أخذت أقلب الجريدة، بعد ذلك عاد نوفل وقال إن الرفيق يريد رؤيتي. نهضت وكأني ماكنة مسننات تدور فقط باتجاه واحد. طرق نوفل الباب بهدوء ثم اندسسنا.. كان الرفيق الجالس في الغرفة يعد الشاي على (بريمز) صغير. سار نوفل بضعة خطوات ثم جلس على أريكة متهالكة. كانت الغرفة خالية من أي أثاث باستثناء الأريكة وقميص أبيض معلق بمسمار مثبت إلى الحائط. رحب بي الرفيق وجلست ملاصقاً لنوفل الذي قال بعد دقائق وبشكل خبيث.

- أخيراً جئت به.

تفحصني الرجل وكأنما يريد أن يشتري بضاعة، ثم صب لنا شاياً. أخذنا نشرب وأشعل الرفيق سيجارته وقدم واحدة لنوفل الذي أشعلها بدوره من سيجارة الرجل. قال الرفيق.

- ما الأخبار في الشارع.

هز نوفل رأسه وكأنما يريد أن يفجر خبراً كبيراً.

- الشرطة لا زالت في الشوارع بشكل كثيف.
- قال الرجل، هل أوصلت الرسالة؟.

أجاب نوفل بالإيجاب.

- هل وجدت مشكلة معينة.
- لا، لم تكن هناك إلا مشكلة واحدة، أجاب نوفل.

أصبح اهتمام الرجل أكثر وهو يتابع كلام نوفل. بعد لحظات من الترقب قال نوفل، إنه يشك أن المكان الذي ذهب إليه مراقب. هز الرجل رأسه مثنياً على كلام نوفل. قال الرفيق إنه يريدني أن أعمل معه.

- العمل بسيط للغاية، كل ما هنالك أنه يحتاج إلى الانتباه. الانتباه والحذر من الشرطة. ثم أنك صغير ولا تلفت الانتباه.

بعد شرح قصير وافقت وقال الرفيق إنه يستحسن أن تبقى في هذا البيت. أخرج درهماً من جيبه وناولني إياه وقال إنه سوف يحضر ثمة شيء للإرسال وسوف أكون بصحبة نوفل.

عدت إلى غرفتي. وتمددت على الأريكة. كنت أشعر أن عظامي لا تزال محطمة ولم أزل أشعر بالنعاس والبرد. تدثرت بشيء شبيه بالبطانية وغرقت في تهويمة طويلة وأحلام لأوجه شفافة تأتي من أماكن الذاكرة القصية. فجأة شعرت بحركة قلقة. أفقت ووجدت الرفيق يحاول نزع بنطلوني وهرج ومرج في الطابق الأرضي. بصقت بسرعة في وجه اللوطي الكلب وهربت. عندما وصلت الطابق الأرضي كانت أصوات عالية تتصارع في البيت و سباب وصراخ وأحذية ترمى بين القحاب وخالة نوفل شقت ملابسها وبدا ثدياها مترهلين ومتدليين.

لم أفهم شيئا من هذا العراك الذي سرعان ما أصبح بالأيادي والنعال

وأدوات المطبخ والسباب واللعن وإفشاء الأسرار. تسللت إلى خارج المنزل وشاهدت الجيران وقد تجمعوا أمام الباب وعشرات الصبية يرشقون البيت بالأحجار والحصى. لم أستطع أن أفهم شيئاً مما يدور وبحثت فيها أنا أقف مرتجفاً في الخارج عن نوفل لكني لم أجده.

كنت أرتعش للصحو المفاجئ. أشعر بالانبهار والكره المقيت لكل ما حولي وأنا أتذكر اليرقات اللعينة العالقة في ذهني حينما وجدت الرفيق وهو يهم باغتصابي. تركت التجمع أمام البيت وجلست قريباً من المكان. جاء نوفل أخيراً وهو يحمل أغراض الرفيق الذي هرب من المنزل حينما جاءت الشرطة. قلت لنوفل إني أريد العودة إلى المقهى. فوجئ بهذا القرار الذي وجدته الأصح والأفضل. قال يجب أن أنتظره ساعة واحدة ريثما يوصل الأغراض التي بين يديه إلى مكان ثان.

كانت هذه الساعة طويلة بكل المقاييس. الجوع بدأ يتسلل إلى جسمي وأمعائي بدأت تتقلص. نهضت وتبولت على الحائط وجسمي يرتجف. بعد انقضاء الساعة عاد نوفل وسرنا باتجاه المقهى.

العودة إلى المقهى كانت تعني بالنسبة لي فشلاً أكيداً. لقد يئست فعلاً من أن أجد مكاناً مثالياً في هذا المدينة الغبية الطافحة بالقحاب والقوادين والبول والجوع والكلاب المستهترة والقطط الوحشية والموز والدجاج المشوي. مرة أخرى سوف أمارس الجوع على أعلى المستويات وأنا أشرب الشاي المجاني وأتبول مرة أخرى في مرحاض يائس من النظافة.

وصلنا المقهى وقلت لنوفل إن عليه أن يذهب إلى عمي أولاً ويكلمه بأن لا يضربني. ذهب نوفل ثم عاد وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة التي اعتدت عليها. بعد أن استقبلني عمي بوجه معدني مصنوع من فضلات المعادن المتجهمة. قال لي إنه سيذهب بي إلى جدتي ولن يسمح لي بالعودة إليه ثانية.

أخيراً سوف اقبل يدك يا جدتي وأغرق في حكاياتك. سوف أرحل

لك يا جدتي كما رحل الحسين بن علي، من الحيرة والأنبار والكوفة والطف والاهلة والمشاوير العرجاء في الفيافي والصحراء على بغلة وحمار واسطرلاب فقط لقياس الأزمنة.

كنت أرتعش من قشعريرة عميقة. من قشعريرة باهتة وخفية عن الأعين التي كانت تشاهد ثباتي لكنني من الداخل مهزوز وعصبي وأحترق على نار بطيئة. سأغادر الآن العالم نحو عالم آخر، عالم النوم عميقاً وليس بنصف عين. كان عليّ أن أنام هكذا بعين واحدة وعين أخرى على أبناء القحبة والمناويك والزناة والعراة والسكيرين والشيوعيين وهم يريدون اغتصابك بالرغم من أنك يتيم ويعللون كل شيء بثورة البروليتاريا. ثورة الفقراء والمجانين والمستضعفين والبؤساء والمؤلفة قلوبهم والطلقاء أتباع الرأسمال العالمي.

كانوا يريدون اغتصابي، هكذا كان الرفيق عمر في غزواته من أجل رأس المال، إذ كان يقول لي، يجب أن نتحرر من العقد الجنسية البرجوازية. كنت أشعر أن اغتصابي من قبله ليس فيه تحرر من الطبيعة الاجتماعية للبرجوازية ولا من الرجعية المقيتة حليفة البرجوازية والإقطاعية.

كان يدخن كثيراً ويتأمل طويلاً في حياة الشعب، هكذا يقول عن نفسه ثم يثرثر بعد ذلك بأشياء كثيرة مثل أنه سيجعلني أسافر إلى موسكو وأدرس هناك وأعود كقائد شيوعي كبير ويجعلني نائبه. كان يجلس ساعات طويلة يتحدث عن الثورة الاشتراكية في العالم وعن الأممية الجديدة والكومنترن وحق الشعوب في التحرر وفي الختام عندما يكون مثل الكلب الذي اختنق بعظمة كبيرة. يسكت ويطلب من نوفل أن يجلب له حليب السباع من (ججو أبو العرق) على أن يقيد الحساب على خالة نوفل باعتباره هو من سيحرر الشغيلة من عبادة العمل القذر..

يرجع نوفل إلى المقهى بسرعة وهو يرتعش ويقول لعمي أن عليه أن يسرع بالهرب اذ أن الرفيق عمر ألقي القبض عليه وأنه اعترف أن ابن

أخيك هو ساعي بريد الحزب. يهرب عمي معي. نهرب من العالم الصغير والمثلي إلى عالم أشد غرابة.

عمي المسكين كان مرتبكاً للغاية إذ أنها المرة الأولى التي توجه له تهمة سياسية. العالم كان مضطرباً بالنسبة له. لقد تحطم هوس مجنون بالسلام الداخلي والدعة والقحاب وعرق المستكي. نهرب أنا وعمي إلى المجهول ونصعد الحافلة ذات الطابقين وأشعر أن عمي يريد أن يبكي. أسنانه الصفراء ووجهه يشي بالخوف. بالجبروت الماثل أمامه. ما الذي سيقوله إن ألقوا عليه القبض الآن. من المستحسن أولاً التخلص من ابن القحبة هذا، وينظر إلى وجهي الغارق في السلام السماوي. يقول عمي إنه غير متأكد من عنوان جدتي لكننا سنذهب على أية حال. قلت له وأنت إلى أين ستذهب. قال إن كل هذا بسببي، بصق على وجهي ومسحت البصاق ساكتاً ولائذاً بالمقعد الممزق.

كانت الحافلة تهتز وهي تسير. تسير في الضباب، كل شيء في كان يبكي ويهتز مثل سنونوات مهاجرة وهي تبحث عن أعشاشها. لكن لا عش لي.

كنت أغني مع نفسي أغاني طويلة، ثم دائماً وفي نهاية الأغنية كنت أنفجر باكياً وتصعد الغصص إلى فمي وأختنق وأتنفس وأرتعش وأهتز وأتمرد وأنتحر وأرمي رأسي إلى الرمال، إلى البحر، إلى الدجلة، إلى الضفاف القاسية حيث الزوارق والطيور البيضاء الهاربة من البيوت القديمة. كانت الطيور تمنحني أملاً ضئيلاً بما يمكن أن أكونه لو تحررت من جسمي الخرائي هذا.

ما الذي كان يحدث لو أن يهوه اوالله خلقني طائراً، على الأقل للطائر منزل وليست هناك قوة في العالم يمكنها أن تزيحه عن مكان أفراخه البيضاء. لم أفهم ولم أفهم لماذا لم أتحول إلى سحلية أمارس دهشتي مع العالم.

كنت أتسلق الأحلام وأتسلق الصرخات المرعبة التي كانت توقظني من السبات الطويل والسبات المؤلم وأنا أطير إليك يا الله، لكن الملائكة كانت تمنعني عنك فأهوى إلى الدرك الأسفل. نحن بؤساء يا الله، بؤساء إلى الحد الذي لا نستطيع فيه أن نقضم تفاحات الزمن والشهوة. ولا نستطيع أيضاً قطف الزهور من حوض الورود الإلهية التي تمجدك إلى الأبد.

عمي ينظر إلى وجهي كل دقيقة. كان بائساً، ملتاعاً وببطن خاوية. يسير الباص وكأننا في الزمن الضائع. فوق الأشجار والأنهار. وجه عمي يشبه الحساء الأصفر. شوربة العدس اللذيذة والرائعة والشهية مع قطعة من الصمون الحجري.ثم استكانة شاي سوداء بالهيل.

الأيام تمر علينا ونحن في الحافلة. كم كان هذا الزمن؟ ثم لماذا يتغير بهذه الدرجة من السواد والاصفرار والاكفهرار. مسير الحافلة في الضباب كان يمنحها درجات أعلى. درجات من أجل الإذابة في الحوض القصديري الكبير ونحن نئن ونتوجع ونتألم. يكفي ألم رجاء. هكذا كنت أقول فيما عمي يرسل نظراته الغريبة في الزمن المتوقف والبائس، لم أشاهد الزمن أكثر انبعاجاً مما أشاهده الآن. كان يتحول إلى أسطوانة هائلة من النحاس الأحمر ونحن ندق الأبواب لكن دون أن نحصل على إجابة.

توقف الباص وهز عمي كتفي. كنت أغرق تتابعاً في الزمن البطيء، الزمن ذو اللون الأبيض الشفاف والمخردق ببنادق القتل وبنادق الصيد وهي توجه إلى جباهنا. كان يجب أن نموت قبل الآن.

ننزل سلم الحافلة. الطين يصل إلى مستوى جواربنا. طين في كل مكان، على الوجوه وعلى الأرجل وعلى عباءات النساء والدجاج والكتاكيت والبط والخضراوات وقطع اللحم بالعظم الملفوفة بجرائد عادية جداً. نهبط السلم إلى الشارع. الضباب كان يتكون على وجوهنا وكلما ابتعدنا عن النهر كنا ننسحب إلى موت خافت. سرنا نصف ساعة بعد ذلك توقفنا أمام بوابة صغيرة. طرق عمي الباب وخرجت طفلة صغيرة وبائسة بمخاط كثير يلوث وجهها الأسمر الداكن.

دلفنا إلى الداخل عبر ممر ضيق ووصلنا إلى نهايته حيث يقبع بيت صغير للغاية مكون من غرفة نوم واحدة ومطبخ. كانت جدتي تجلس قرب المدفأة. قبلتني بلهفة وارتميت بكليتي إلى صدرها. كانت رائحة المسك تفوح منها. العالم بدأ بالتغير. هذا ما لاحظته. غادر عمي وبقيت وحيداً مع جدتي في الغرفة الصغيرة.

كانت الغرفة تابعة لأخ جدتي بالرضاعة. جاء إلينا هذا ونحن نتدفأ ونسخن الصمون على المدفأة. كنت أضع لعابي على قطعة الخبز ثم ألصقها على جانب المدفأة وبعد لحظات تسقط قطعة الخبز محمصة وتفوح برائحة أخاذة للشوي. وقف أخو جدتي أمامنا بدشادته القصيرة والمقلمة وقال إنه يجب أن نرحل من هنا. قالت جدتي لماذا دون أن تنهض. قال لها إن لديه بنات وهو يخاف عليهن. قالت جدتي لكن ابن ابني عاقل وصغير. لم يهتم أخو جدتي.

حملنا أغراضنا وهي (بقجة) بلون أحمر ووردي وغادرنا المنزل. لم أشعر بالحزن على مغادرتنا لكن جدتي كانت تبكي. قلت لها إلى أين سنذهب؟. قالت بعد أن كفرت إنها لا تدري.

*****

سرنا في طريق موحل ووحشي وبعد ساعة من السير والتزحلق وتلوث عباءة جدتي بالطين وصلنا إلى الشارع العام. كان في الشارع اولاداً يسحبون قطة بحبل ثم قاموا بعد ذلك بخنقها وسحلها. انتظرنا تحت مظلة الحافلة التابعة لمصلحة نقل الركاب أربع ساعات ثم جاء الباص وهو يئن ويترنح.

صعدنا إلى الطابق الأعلى. كانت هناك سيدة ورجل تبين بعد أن تهيأ للهبوط أنه أعرج. سار الرجل بضع خطوات ثم توقف الباص فجأة

فتدحرج الأعرج على السلم وصرخت المرأة. مات الرجل ومزقت المرأة دشداشتها.

أثناء اللغط والحمحمة والثأثأة والتعتعة والصراخ تسللت من مكاني قرب جدتي واستطعت أن أشاهد جسد أبيض مخيفا وكبيرا جداً تتدلى منه أثداء ضخمة بحلمات داكنة. دخلت بين الحشد أكثر واقتربت من الجسد. كانت الرائحة تفوح وهي لم تزل طرية وتشممت رائحة إبط المرأة ثم رمى أحدهم معطفه البائس عليها.

كان الناس متحلقين حول الرجل والمرأة تبكي وتصرخ والوجوه غائمة. جاءت سيارة الشرطة وحملت الجسد النافق والزوجة إلى مكان ما. سار الباص مرة أخرى وهو يتزحلق على الأرض. كررت سؤالي. إلى أين سنذهب يا جدتي؟. قالت بعد أن إضافة كلمة كفر أخرى، إلى بيت عبد الرحمن ابن عمها وزوج أختها.

نزلنا من الباص. سرنا في طريق طويل. أخذت السماء تمطر. غطتني جدتي بعباءتها لكنني لم أستطع السير فخرجت. تبللت حتى وصل الماء المندلق من السماء إلى جلدي الحي. إلى كل مسامات العبث الأخاذ وهو يطرحني ويطرح جدتي في الطريق. الأوحال أخذت تتكاثر. برك عميقة من المياه كانت تغطي بغداد. المياه الآسنة تختلط مع مياه الأمطار في تشكيلة عبثية. أخذنا نقفز بين البرك، بين الأوحال، بين الطين الذي خلق منه عزرا أجنحة سماوية وحلق عالياً باتجاه الكون.

تزحلقت جدتي ووقعت. حاولت أن أسحبها لكنها كانت ثقيلة جداً. بعد محاولات نهضت وأمسكت يدي. سرنا وكل عباءتها تحولت إلى لون الطين. حتى وجهها ويدها وملابسها تحولت إلى كتلة طينية مرسومة بثبات كبير وحرفية عالية.

بعد وقت طويل وصلنا المنزل. شاهدنا الباب مفتوحاً. تسللنا ثم ظهرنا في مطبخ العائلة. كان بيت عبد الرحمن دافئاً. المطبخ كبير وفيه

مدفأتين تعملان. أخت جدتي لم تتحرك من مكانها. وضعت جدتي عباءتها خارج المطبخ وجلسنا نحتضن المدفأة.

المكان كان جميلاً، بدأت عيناي تبحثان عن أشياء غير معروفة. بعد حديث قصير بين جدتي وأختها جاء عبد الرحمن وجلس على الأريكة في المطبخ وهو باللباس الداخلي الطويل. لم أشعر بالحب تجاه هذا الإنسان، أحسست أني أكرهه. خاصة عندما مد أصابعه الطويلة وأخذ يلتهم بعجالة واضحة البيض المقلي بالزبد دون أن يستفسر إن كنا قد تناولنا فطورنا أم لا.

أخذت جدتي تشرب الشاي الأسود وتتكلم بسرعة وهي تبكي ولم أفهم على نحو واضح لم كان هذا البكاء. كانت تولول وعبد الرحمن يأكل وأخت جدتي تعد بيضاً إضافياً. بين غصة وأخرى تتجرع جدتي الشاي دون شهية. قالت إن الأخ لم يقبل أن نبقى عنده وأنها تريد البقاء هنا.

يلتهم ابن عمها لقيمات إضافية ويقول لا مكان عنده. تدخلت أخت جدتي وراحت تتكلم في أشياء لم أفهمها.لكن جدتي كانت تهز رأسها، تهزه إلى اليمين واليسار وتضرب على رأسها بخفوت صغير وبعين مترعة بالدمع.

تنهض أخت جدتي في وسط المطبخ وتتوسل زوجها. زوجها يقول بعد محاولات عديدة إنه سيقبل بوجودها هنا لكن بدون ابن اليهودية هذا. تعود جدتي مرة أخرى للنحيب. هذه المرة يقول عبد الرحمن إنه لا يقبل حتى لو أعطوه مال الدنيا كله. تقول جدتي لكنه مسكين ويتيم وتشير إلي أن أجيء وأجلس في حضنها بعدما شاهدتني اود الانسلال إلى داخل البيت والعبث مع الببغاء في قفصه. ينهض عبد الرحمن وهو في حالة عصبية ويقول لها إذا لم تسكت سوف يطردها.

نخرج من البيت إلى الشارع. نخرج إلى الطين والهوس الشتائي بالعاصفة. حزن جدتي كان عميقاً. أرادت استلاف بعض النقود من أختها

لكن الزوج رفض. ذكرته جدتي أنها من لحمه ودمه وهذا ابن ابنها. محاولـة أخيرة للتقرب من الخراء. أشاح ابن عمها بوجهه ثم تركنا في البرد والرياح العاتية. آخر نظرة إلى البيت ألقتها جدتي ثم قالت إن علينا أن نسير أولاً إلى نهاية الشارع ومن هناك نستقل الباص إلى مستشفى راحيل.

في الطريق غرقنا مرة أخرى في الوحـول والطـين والأرض المملـوءة بالماء والبحار العشرية والأفاعي والطيور الحزينة وأصوات الفواخت وهي تقرأ المزامير الأخيرة للشمس المائلة والحائلة والمتوفزة.

الفصل التاسع

وصلنا مستشفى الحريري الذي تعمل فيه راحيل. الرائحة كانت مقززة، فورمالين وديتول وبرمنكنات وأنواع جهنمية من المطهرات تعقم الخراء والبراز في بناطيلنا بعد أن عملناها تحتنا وفي الشوارع وعلى الأرصفة وفي الطرقات البائدة والمجهولة والعارية من الإنسانية.

في الصالة الخارجية للمستشفى أخذت أشعر بالخوف والرهبة وانخفض ضغطي. جدتي تسحلني مثل كلب هرم ألقى بنفسه من الطابق العاشر. أخذت جدتي تسأل الممرضات اللاتي قادننا إلى قسم العمليات. وجدنا راحيل هناك في استراحة. كان وجهها متعباً لكنه منور. ركضت بسرعة عارمة واحتضنت جزئها الأسفل وشبكت يدي حول خصرها مزنراً إياه إلى الأبد بزنار اللحم الضائع والمهووس بها.

كانت رائحتها هي الأخرى تشبه رائحة المستشفى ولم أشم العطر الخاص بها. احتضنتني راحيل بدورها وأخذت تقبلني بدهشة قوية. قلت لها إني أريد أن أقبلها كما تفعل الحيوانات في الغابات البدائية للعصور الحجرية الأولى حيث الإنسان القديم يقوم بطرح الضحية وامتصاص دمها المتورد. ضحكت واعتصرت خصرها محاولاً أن ادخل إلى جسدها الذي كانت تشع منه حرارة واهنة. في تلك اللحظات شعرت بتوهج روحي، بألق فضفاض ومرن وملهم.

حررت راحيل يدي من خصرها وجلست بالقرب من جدتي. أخذت جدتي تتحدث بصوت متهدج ووجع. انشغلت أنا في اكتشاف الغرفة التي نجلس فيها. بكت جدتي بعد حديث قصير. راحيل تنظر إليها وآثار حادة لتقطيب الوجه كانت مرتسمة على محياها. تنفست جدتي بعمق ومن خلال البكاء. مسحت دموعها بطرف عباءتها الحائلة اللون. راحيل لم تحرك ساكناً أمام البكاء. راحيل كتلة من الصلب أو الحجر أو الحديد المقصدر الذي لا يشيخ ولا يتآكل. لماذا لا تتآكل؟

كنت أتساءل وأنا أنظر بين لحظة وأخرى إلى جدتي التي تحولت إلى كتلة من الوجع والتأوهات واللعنات والإحاطة الاعتباطية بالزمن الخرافي وهو يدور دوراته الموجعة. أحنت راحيل رأسها وهي تستمع إلى جدتي. لم تعلق ثم نهضت الجدة وغادرت المكان. بقيت راحيل في الغرفة. كانت تنظر إلى وجهي والى جسدي بألم. نظراتها كانت حائرة وقلقة لكن الثبات لم يزل مستمراً في وجهها وهو يتأملني ملياً وأنا أتحرك في الغرفة المليئة بالشراشف والأسطوانات البلورية والشاش والقطن والملاقط المغلفة بأكياس النايلون.

بت تلك الليلة في المستشفى. حاولت في المساء حينما أوينا إلى الفراش أن أتشمم عطر راحيل. كنت أريد العودة إلى الزمن الباهر. دفنت رأسي وأنفي تحت إبطها وتشممت العرق. كانت هي تنظر إلى رأسي وهو يحاول الولوج إلى جسدها. لم تتكلم. حاولت أن أسألها عن أي شيء لكنها كانت صامتة ولم تجب إلا بإيماءات من رأسها بنعم أو لا. السهوم العظيم كان يلفنا. أنا وهي أشبه ببحارة يمخرون بحر الألغاز وبحر الديناصورات وبحار رؤيوية قادمة من زمن بعيد هو حتماً ليس زمننا المعاصر.

في الصباح قالت راحيل إن علينا أن نغادر المستشفى. لم أسأل عن السبب ولم أكن أريد أن أستفسر عن أي شيء. كل ما يهمني هو العودة ثانية لتشمم عطرها ورائحة العرق الناز التي كانت ترميها على الجدران والأفرشة والشراشف والوسائد.

تناولنا فطورنا المكون من الشاي والبيض المقلي. كان فطوراً لذيذاً. نظرات راحيل كانت تتابعني وأنا ألتهم الطعام. نظرات من الرقة بحيث أنها كانت تذوب. تذوب نظراتها فيما أنا ألتهم وألتهم إلى ما لا نهاية، البيض المقدس، المبهرج، الرعديد، المتطفل على حياتنا الأخروية من ثقب صغير في أحلامنا.

كانت تتحدث بنظراتها. رائحتها الخدرة تملأ عقلي وروحي النجس والطفولي والباهت والملون بقذارات لم أزل أحملها من نوفل مثل السفلس البري أو امراض العاهرات في منزل خالة نوفل. الالتهام الصعب للحب والصمون الحجري كان يجعلني أطير مثل الساحرات محوماً حول عينيها. كنت أطن مثل الذباب الوحشي النابت على ضفاف دجلة حيث القصب البري والحشائش والدبيب والصراصير.

كانت المستشفى رائعة جداً، ملهمة برائحة الصالات الداخلية المعقمة واللامعة وسط البهاء القمري. استثمرت الليلة الوحيدة التي بت فيها هنا في إستكشاف المكان. عرفت أنها كانت مستشفى ولادة. سرت في الممرات و سمعت بين الحين والآخرالصرخات الصادرة من الغرف. الصرخات تشتمل على معنى الولادة والصمت والقوة والألم الممض.

أتسلل بخفوت وأشاهد ثمة ستارة. ومن بين الستارتين أشاهد امرأة ضخمة جداً وأفخاذ مروعة وكبيرة للغاية معقوفة وملتوية، أحسست أنها ليست سيقان وأفخاذ وأرجل امراة إنها جذع نخل كبير ومتطاول. لم أفهم على نحو واضح ما يجري هنا.

شلة الممرضات كن يحطن بالمرأة والصراخ مستمر ومدوي. كانت هناك ظلمة بين أفخاذ المرأة. كان هناك دم وألق وضّاء ولوعة مرّة. اقتربت أكثر لأستفهم الوضع، لأكتشف المرأة العنقاءالممدة على طاولة بيضاء والمتشكلة من اللحم الهاطل الممدود أمامي.

كانت المرأة تنهض كل عشرة دقائق مثل وحش مطعون بحراب وسهام كثيرة وتتعالى صرخاتها بالتوجع. كانت تتبعثر كل عشرة دقائق ثم تعود مثل العنقاء لتلملم الدماء والفرج المفتوح على آخره والدبق النازل والمرارة والابتئاس. يتطاول الرحم. يبتزني بكبره وهو يخرج سوائله الكثيفة مع خيوط الدم العشرية القادمة من الغابات الداخلية للمرأة. لكني لم أكن أشاهد الطفل وهو يخرج بالرغم من الصراخ المتتابع والفوضوي.

الممرضات كن في حركة دائمة والطبيب ينظر إلى المرأة ثم ينحني لالتقاط المخيلة من الرحم المفتوح إلى أبواب السماء. فجأة تكتشفني إحدى الممرضات وتمتد يد قاسية لتمسك بي من ياقتي. ماذا تفعل هنا؟ كان فمي يضيع وذهني يتطاير مثل الشرارات الخارجة من تنور هائل الحجم والكتلة.

تسحبني اليد إلى خارج الصالة. إلى خارج نطاق الوحوش وهي تنفث النيران والهواء وغاز الميثان وديدان الانكلستوما. ثم توجه إلى خدي صفعة قوية. أحسست أن الجدران كانت تهتز وبرق ثمة شيء في عيني. شرارة سريعة زرقاء تشبه شعلة نار قوية للغاية. أحسست أن خدي كان يؤرخ للوجع وسخونة عارمة تنطلق منه. تأخذني اليد وهي تمسك بياقتي إلى غرفة الممرضات في نهاية الممر قرب السلم، ثم يروي الصوت الحيواني القصة كاملة مع بعض الإضافات الحيوية والضرورية. أعترض على الحديث وأقول إن هناك كذباً. راحيل تسكتني بأصابعها الرقيقة البيضاء والمليئة بالنمش. ماذا تقول؟. لم تقل أي شيء، كانت ساكتة تبتلع الحكاية الخرافية والكاذبة.

تأخذني راحيل، تطلقني إلى عوالمها المضطربة نتيجة الرواية والخديعة والكذبة الكبيرة والشائنة. تجلس إلى النافذة ويبهرني الضوء المنسكب على شعرها الأحمر ووجهها المليء بالنمش الذي يتوهج تحت الشمس والملابس البيضاء الملائكية. كنت أحلم بها وهي أمام الشمس بجانب النافذة

الواسعة. كانت هشة للغاية ومتعبة، لكن الضوء كان يتدفق منها، مثل نافورة مائية وبدلاً من الماء كان يخرج الضوء المبهر، الأحمر، الشفاف، الملتاع، المليء بالنور الداخلي. هل شاهدت في حياتك نوراً يدخل في نور آخر؟ أعتقد أني شاهدته لكن هذا كان في ملكوت الله.

زارتنا خالتي في اليوم التالي. كانت تلبس عباءة نسائية لامعة. جاءت وجلست في الغرفة الخاصة بنا بانتظار راحيل. كنت أراقبها مثل كلب سلوقي. أختها لا تنظر إلى وجهي إنما تشغل نظرها بالمقصات وأدوات التعقيم والملاقط وشفرات التشريح المعدنية ثم تنظر إلى اللوحة الوحيدة على الجدار. كنت ألمح ابتئاسها وكرهها لي فأردت أن أعضها من ساقها المتينة والطويلة والتي فرجت فكست العالم بالظلمة الحالكة والاسوداد المداهن.

كرهت وجهها دفعة واحدة وكلما كانت الدقائق تسير مضيفة وقتاً آخر كنت أشعر بالمزيد من الكره. في النهاية وصلت راحيل بملابسها البيضاء وعقصة شعرها الأحمر المترفعة. جلست الأختان واحدة إزاء الأخرى. طلبت مني راحيل أن أخرج لكنني لم أستجب، كررت المحاولة مرات عدة وفي كل مرة كنت أرفض الخروج.

ابتدأت الأخت بالحديث عن الوحدة القاتلة لراحيل بعد وفاة زوجها. ثم اعتراضاتهم السابقة على زواجها من مسلم. ثم قالت إنهم الآن بصدد إعادتها إلى العائلة وأن هذا يتطلب منها أن تتزوج من يهودي. اعترضت راحيل بهدوء. اعترضت على فكرة الزواج بالأساس أما الرجوع إلى العائلة فقالت إنه أمر حسن.

نظرت الأخت الكبرى إلى راحيل ثم قالت إنه يجب أن تتزوج لأنه من المستحيل بقاءها دون زواج. انفعلت راحيل ورفضت الفكرة. قالت إنها تريد أن تعتني بي. قالت الأخت الكبرى إنه شيء سيء. عمل منكر من جريمتك السابقة. يجب أن تتخلي عنه أرميه إلى جدته.

مرة أخرى نظرت راحيل إلى الأخت وبدأت شفتاها ترتجفان. الكلام الخارج من فمها لم أستطع أن أسمعه بالرغم من أنها كانت تتكلم بنبرة قوية. لن أرميه بل سأربيه حتى يكبر. وأنت، قالت الأخت، لن تستطيعي أن تبقي هكذا. إنها مسألة شرف وناموس العائلة، الأب أراد أن يتكلم معك بقسوة لكني رجوته أن أحاول أنا أولاً. رجوته أن يمنحني فرصة لأقوم بإصلاح الإعوجاج. الإعوجاج الأول والإعوجاج الثاني.

حسناً في النهاية يجب أن تسمعي كلام العائلة. لن نستطيع أن ننتظر طويلاً. شرفنا وسمعتنا تتلوث. كلام الناس قاتل وهم لن يدعوك وشأنك أبداً. ومرة أخرى ترفض راحيل، ترفض بشدة وبقوة كلام الأخت التي تستعر مثل التنور وتتوهج مثل حيوان الفقمة البحري ثم تتلوى ويعلو صوتها وراحيل تشير لها أن تخفف من قوة صوتها، لكن هيهات، القطار يمضي وهو ينفث السم في السماء. الفقمات البحرية تثغو وتتصارع وتبكي راحيل ويرتفع صوت الأخت بالسباب. تطلب راحيل من الأخت أن تتكلم بهدوء لأنها في المستشفى الآن. لكن الأخت كانت تريد أن يسمع الجميع الكلام. كانت ترفع صوتها عامدة وفي النهاية تبكي راحيل وتخرج الأخت بعصبية عارمة وأمام الباب كانت تقف الممرضات، زميلات راحيل وهن واجمات.

تكرر الموقف أكثر من مرة خلال أيام. جاءت الأخت الكبرى مرة ثانية بصحبة الأخت الصغرى وابتدأ السباب والشتائم أمام الجميع. أمام كل العيون. كنت أرتعش وأنا أنظر إلى الكلاب وهي تنهش راحيل. تنهش اللحم الحي والشعر والزغب الأحمر والعيون الرامدة والملسوعة والباكية. وصل الأمر أن وجهت الأخت الكبرى صفعة قوية إلى وجه راحيل وقالت إنها لن تكرر الزيارة مرة أخرى وسوف تترك الموضوع كله للأب ليتصرف كما يحلو له، لكن تصرف الأب سوف يكون قاسياً جداً وفي النهاية سوف تستسلم راحيل. تستسلم وترميني مثل جرو إلى الطرقات أو إلى جدتي.

بكاء راحيل كان قوياً مدمراً. كانت تولول وتنظر ساهمة من خلال النافذة. الممرضات كن يواسينها لكنها لم تكن تحتاج إلى المواساة إنما إلى مكان آخر ليس فيه مكان للأخت الكبرى ولا لرجال العائلة التي سوف يحاصرونها إن لم تستسلم لرغباتهم. لكنها لا تريد الزواج وتريد أن تربيني وتمنحني للحياة.

الممرضات يجلسن حول راحيل على السرير، كن يحطنها مثل السوار وهن لائذات بالصمت وبالسكون ينظرن إلى وجه راحيل الباكي. الوجه كان مفعماً بالحزن. الوجه مبثوث في كل الأرجاء، في كل فصول السنة. وجه راحيل كان يقطر ويشع بالوجع الذي كنت أراه عصياً وحائراً ومستفزاً ونائياً إلى البعد الفيزيقي وهي تحارب على الجبهات الحربية وتصارع الوحوش الأسطورية الخارجة من الحكايات العقيمة للمطر.

الشجرة الوحيدة التي كانت تشكل عزاءاً فاقداً للروح هي شجرة اليوكالبتوس والطحالب البرية النامية على سيقان الأشجار بعد ثورة عارمة للسماء والمطر. الضجر البارد والضجر الساخن والدفء المفقود والإزاحة العامودية للمعادلات الرياضية. كلها كانت تتجمع في وجهها البلوري المصنوع من زجاج شفيف واكتئاب بعد المطر والعاصفة القادمة مدوية وهي تترنح فيها بلا مساند حجرية.

بعد عدم عودة الأخت الكبرى لزيارتنا أخذت تتلقى راحيل مكالمات تلفونية تطالبها بالانصياع لرغبة الأب. في كثير من الأحيان كانت المكالمات تهديداً مبطناً وتهديداً قاتلاً وحاداً مثل سكين كبيرة للغاية وهي تسير ببطء على الرقبة لتمنحها السلام والرعشة والإخصاب المهبلي خارج الرحم. بدت راحيل مشوشة بسبب تلك المكالمات. أخذت إجازة من العمل وصرنا نجلس في غرفة الممرضات دون أن نفعل شيئاً.

في كثير من الأحيان كانت تقضي يومها نائمة فيما كنت أعبث بصدرها وأمارس طفولتي الغضة في امتصاص الثدي الناشف من الحليب

من أمد بعيد. الثدي كان يمنحني برغم جفافه نوعاً عارياً من التماثل مع البيئة المحيطة بالرحم. كنت أشعر أني أريد أن أعوذ إلى الموقع الأول الذي انطلقت منه إلى الحياة الواجمة والمعلنة مع أن راحيل كانت تمنحني الدفء الضروري للاستمرار في الحياة. كانت تنام عميقاً وتمنحني الثدي إلى الأبد فأغرق في هلوسات طويلة وعارمة عن الدفء ورائحة الإبط التي تنفث في وجه الحشرات المعقمة أكسيرا سحريا من الدبق الهائل والحموضة الخفيفة.

أحببت رائحة تعرقها. أحببت نوع العرق الخاص الذي كان يتقطر من المسامات الهائلة العدد والمتراصة مثل أشجار الكينيا والورد الجوري واليانسون والدفلة التي لها مذاق سحري في الفم.

لم تستمر هذه المدونات البابلية طويلاً اذ سرعان ما تستيقظ راحيل فزعة. لم أستطع وأنا أمرغ وجهي في جسدها أن أقرأ أحلامها وكان ذلك شيئاً غريباً فعلاً، إذ أني كنت أسافر في أحلامها من قبل مثل طائر خرافي له ملايين الأجنحة الملونة وكانت هي تمنحني أحلامها لأرتشفها مثل دواء سحري يشفي من كل الأمراض.

أرتعب حينما تنهض وهي تصرخ بصوت مكبوت. أحس أن سقف الغرفة يتساقط علينا. من بكائها ينزرع الشوك البري ونبتات الصبار الخالد. حيات كانت تسير في أحلامها، لا بل ثعابين طولانية ذات أجراس تقرع للنهايات. لكنها لم تحدثني عما تفعله الثعابين في أرديتنا المموهة في الغابة المظلمة والتي نجتازها على أقدامنا سيراً وفي بعض الأحيان على أجنحة الطيور البرية ذات الألوان الذهبية.

في بعض أحلامي كنت أرتبط معها في عري غريب وفاضح. كانت أحلامي تتأجج وتتطاير وكأنما كانت هناك ملايين الإطلاقات المدفعية تدوي بصوت رفيع وممزق للسحر البشري. كانت تضع رأسها على يدها وتضمني. كنت أغزو عالمها الأخروي مثل حطاب يجد أن شجرة اليوكالبتوس جديرة بالتقطيع من أجل دفء الشتاء القادم.

نبتة الصبار تكبر في الصمت المطبق الذي كان يلفنا وتتحول إلى شجرة وارفة وعميقة الأثر بفعل الشوك الموخز لعيوننا. في ظلام الغرفة كنت أتحسس جسدها وتتحسس هي بدورها أصابعي وتعتصرها. عصرة الأصابع لها مذاق سحري وشيء خرافي يمنحك المواساة للشيء الغريب.

الصياد يريد الطريدة دائماً، أما أنا فكنت أبحث عن فمها لأزرع عليه قبلة رخيصة وكانت هي تبكي بخفوت ووجع. تنتهي الإجازة ونخرج من الغرفة، من المنفى الإجباري لبغداد المحصنة باللعنات. تعود راحيل إلى العمل. لكنها كانت تنهار كلما كانت تتلقى اتصالاً من أهلها. كل يوم تقريباً كانت هناك محادثة هاتفية.

عادت الأخت الكبرى لزياراتها الشيطانية. لن تستطيع الأخت الكبرى الصبر أكثر، زوجها يقول لها إنه سيطلقها إذا بقيت راحيل دون زواج. إنه الشرف، شرفي الشخصي. الأخت الكبرى حملت رسائل الأخت الأصغر أيضاً. هي كذلك سيطلقها زوجها بسبب عدم زواج راحيل. يجب أن تتزوجي. المرأة بلا رجل مصدر شهوة للرجال الذئاب والشرف كلمة سحرية تنطلق إلى السماء. الناموس بيدك الآن وحياتنا كلها بيدك.

لكن راحيل ترفض. تريد أن تبقى أرملة. اكتفت من هذا العالم الحسي المسود بغمامة سوداء أو رمادية. سيتعذب الصغير، تئن راحيل و تقول الأخت الصغرى. أرمه إلى جدته وابدأي حياة جديدة.

- لا أستطيع. تقول راحيل بقوة.

اللعنة على أزواجكن. وتثور الأخت الكبرى وتصفع راحيل وتصفها بالقحبة. القوادة. أم السوسنك. العاهرة التي تريد أن تسير في طريق القحاب. تخرج الأخت الكبرى سريعاً من الغرفة وهي تسب وتلعن بصوت عال. كانت تقول إنها ستنقل رفضها إلى الأب والأخوان. سيكون الحل معهم وبهم وحدهم.

تصمت راحيل وتنظر إلى الباب المصفوعة بقوة فيما أنا أعبث بلعب صغيرة على أرض الغرفة. التشوهات والتغضنات تملأ وجه راحيل. تملأ الزمن المتبقي والنافد والسائر والمسافر إلى الأكوان الأخرى في هذا الإعوجاج المسر والمؤلم. لو أن الله يحضر وعزرائيل معه ليخلصنا إلى الأبد من المشاكل.

في كثير من الأحيان كانت راحيل تعود إلى الغرفة بحالة عصبية. منذ اليوم الذي أعقب وفاة زوجها تحس أنها أصبحت لقمة تريد الذئاب امتصاصها والتهامها. سابقاً كانت تعمل بشكل عادي للغاية دون أن يتحرش بها البعض في المستشفى، أما اليوم فالأمر اختلف. كانت تتحدث معي في أحيان كثيرة لتصف الذئاب التي تحوم حولها. نذر العاصفة كانت تدور حولها من أجل إسقاطها في الهاوية. كانت تقول إنها لا تعرف إن كانت ستسقط أم لا. لكنها لا تريد الزواج مرة أخرى. أريدك أنت، كانت تقول وهي توجه الكلام إلى عيني وفمي وأذني وجسدي وبطني وأصابعي.

كلامها الرقيق لكن الباكي والذي تستطيع بكل سهولة أن تستشف منه الألم، كان يقول لي. إنك أنت الحقيقة الوحيدة المتجذرة في الهواء المحيط بنا. لكن العاصفة كانت تدق الأبواب بجنون. العالم تغير فجأة يا راحيل. لماذا كل هذه الوحشية ونظرات الالتهام السخيفة والمؤذية وهي تنطلق لتحط على سمائنا دون توقف.

نخرج من المستشفى. نصعد سيارة الموسكوفيج ونذهب إلى إحدى الصديقات. تترجل من السيارة بعجز كامل وتسرع لتفتح الباب ثم ترمي وجهها في حضن الصديقة. لا أستطيع الصمود أكثر. الآن بدأ الهاجس الكلي والكوني في التحطم. تعد صديقتها فنجان القهوة وهي تستمع إلى تراتيل راحيل.

- تقول الصديقة، هل جربت الصلاة إلى يهوه. الصلاة بعمق.

تقول راحيل إنها لا تحبه.

- لن يمنحني السلام.

تقول راحيل بيأس وهي ترمي برأسها إلى الوراء. تغني الصديقة تراتيل ومواجيد أليمة عن موسى وعن البحر وعن السلام الداخلي في بساتين الزيتون الأخضر المنبثق من أرض الرب.تقول راحيل بعد أن وضعت رأسها بين كفيها إنها تريد الموت. تريد الانتحار. ترتعش الصديقة ويهتز جسمي.

لم أعرف الانتحار لكني أعرف الموت الشبقي حينما يتلبس الإنسان من مكان مرتفع فيدفعه إلى الهاوية. لا تقولي هذا أرجوك. راحيل أنت لست قوية بما فيه الكفاية. فكري بيهوه، فكري بقدرته على مساعدتنا في الامتحان. تترك الصديقة راحيل وفيما كنا على وشك النوم والغفو تسمع راحيل صراخ الزوج وهو يطلب من زوجته أن تخرج هذه الشيوعية الكافرة من منزله، حتماً، الآن .

****

وحشة كانت هناك. ظلمة تشبه ظلمة القبور. توقفنا في منتصف الجسر المعلق. وأخذت راحيل تنظر إلى النهر. مر أحد المصورين. أصريت أن ألتقط صورة ثنائية تجمعني بها. يلتقط المصور التذكار، الصورة. البرواز كان مائلاً قليلاً ونحن غير مبتسمين. تقول راحيل أضحك قليلاً فأرتدي ملابس المهرجين وأصعد إلى سلك النهاية وهناك أرمي بروحي إلى الشبكة السفلية.

يمر شرطي نحيف فأختفي خلف جسدها. أنظر الي الشرطي فأضيع في نظراته إلى الأبد وهو يسألنا ما الذي نفعله هنا وفي هذه الساعة؟ أشعر بالتلعثم لكن راحيل تتحدث معه. يذهب وتنظر هي إلى النهر الكبير. دجلة عظيم وشهواني. كان يومئ لنا أن ننزل إلى عمقه الغائب عن الأنظار. الوحشة المزيفة كانت في عين راحيل وهي تأخذ آخر تذكار من هذا

العالم. تمسك بي وتنظر إلى الأسفل ثم تعاود النظر إلى وجهي. تنحني وتقلص عينيها وتريد أن تحملني لكن في اللحظة المؤاتية والفجيعة يظهر يهوه من خلال الزغب المطري الناحل ويلملم الشعث. تبكي راحيل. تنزلني وتبقى هي تتطلع إلى النهر. شعرها كان مسربلاً باللوعة. ترفع جسدها فجأة. تغمض عينيها، لكنها تتراجع.

قالت إنها كانت تفكر بي.

- انا أيضاً أفكر بك، أقول لها.

نسير بضعة خطوات وننحدر من الجسر. الظلمة عميقة جداً. أضواء الشوارع تضفي على وجوهنا مسحة سحرية خفية لكن الوجع كان يقلب وجهها. عدنا إلى السيارة بعد أن سرنا على الجسر مسافة طويلة دون أن نتحدث. السماء بدأت بالمطر. بلل المطر واجهة السيارة والنافذة. بدا كل شيء معتماً ولامعاً. أضواء الشوارع والسيارات كانت تتحول إلى نقاط لامعة ومبهرجة وعصية على النظر. تنظر راحيل طويلاً بدون حركة. كانت جامدة ثم قالت يا إلهي ما الذي كنت سأفعله. أدارت المحرك وانطلقنا مرة أخرى إلى التيه السماوي.

عدنا في تلك الليلة إلى المستشفى. ركنا السيارة في الشارع الجانبي ثم ترجلنا. حينما سرنا بضع خطوات باتجاه الضوء النازف والمتفجر من المستشفى. تقدم إلينا شخص. توقفنا برعشة خفية. قالت راحيل انتظر هنا. تقدمت وكنت أنا مشلولاً. قالت بصوت جريح إنه أخي. تقدمت بضعة خطوات أخرى. حينما اقترب الشبح من راحيل أخرج يده بسرعة و طعنها بمدية. صرخت راحيل بوحشية وصرخت أنا أيضاً.

انسحب الرجل بسرعة وركض في الشوارع الجانبية. غرقت راحيل في الدم وفورت أنا باتجاه المستشفى. بعد دقائق وضعوا راحيل على نقالة وركضوا باتجاه الضوء السماوي.

*****

دائماً هناك لحظات خفية مع كل حدث. لم أكن أعرف هذه اللحظات لكني كنت أتحسسها بوجع وخفية غريبة حتى على نفسي. بعد طعن راحيل شعرت بخواء عظيم وتوتر. إنها المرة الأولى التي أرى فيها راحيل تنزف. كانت السكين قد اختفت ولم ألاحظها. لم أكن أعرف إن كانت مع المجرم أم أن بعضهم حملها كدليل إدانة للزمن.

رافقت راحيل وهي على النقالة إلى داخل المستشفى. كان الجو بارداً وأنا ارتعش بخفوت وهدوء غريب، حتى راحيل لم تكن تتكلم. كانت تنظر إلى وجهي ثم إلى الوجوه العديدة التي كانت تحيطها. أخرجوني من غرفة العمليات وبقيت في العتمة الداخلية أحاول أن أقطف زهرات سوداء لزمني الغريب والمتواري خلف الأشياء العميقة الظلمة.

في العتمة مارست نوعاً من الانثيال الداخلي. الذوبان بدرجة أكثر مع الأضواء. كنت أذوب تلقائياً وأنا أنظر إلى بوابة غرفة العمليات لكن الدم موجود في الذهن. في الضوء كانت أحلامي هي الأخرى مضيئة لكنها مبقعة وملوثة بالماء المقدس الذي نزفته راحيل. قلبي يرتعش وحتى أسناني، ثم اكتشفت أني بلت في سروالي.

كنت أتبول دائماً في سروالي. منذ اليوم الذي حرقوا فيه اينانا والأيام التي بعدها. كان اللخم متورداً ومحروقاً وقطع الجلد تذوب وحينما كانت راعية الأبقار ترفع يدها كان الجلد يتدلى إلى الأرض. أحلامي كانت عبارة عن دم. بسرعة غريبة دخل دم راحيل مكنونات حلمي الحاضر فكنت أرى الكلاب تنهشني حتى عندما أحلق بعيداً.

حاولت أثناء انتظار راحيل أن أدندن بشيء ما. مر زمن تائه، زمن غير معلوم وعندما أخرجوك من غرفة العمليات. توسلت سريرك. توسلت الهتك. توسلت أي شيء في هذا الكون لأن تستمر حياتك. كان وجهك أبدياً. طباشيرياً وبدأ يفيق من البنج. البنج كان مكوراً في عصي ومطرقة كبيرة تهوي على رأسي. ماذا لو أنك مت. يا إلهي، أية أفكار خرائية

كانت تضرب رأسي. لا أستطيع تصور الفكرة الجهنمية عن موتـك. لـيس هذا لأني أحبك، إنما فكرة فقدانك كانت فكرة مرعبة للغاية وجهنمية وغير قادر على تخيلها.

فقدانك يعني أني سأموت أو أنتحـر مـن أي مكـان وأغـرق في كـل البحار والضفاف والمستنقعات. كنت وأنت نائمة في الصالة مـع العـشرات من المرضى والمعاقين والمجـروحين والمـستأصلين، أشـبه بتعويـذة سـحرية سرعان ما كنت ألمسها من أجل الشفاء. جلست قربك على الـسرير وكنـت أريـد أن أحتـضن جـسدك ووجهـك وشـفتك وأصـابعك البـاردة التـي أرعبتني.

بالقرب من سريرك كانت هناك مريضة تتلـوى ثـم فجـأة انقطعـت أنفاسها وأعلنوا ببرود وقذارة موتها. الموت الذي لم أفهمه على نحو واضح. كنت مشوشاً للغاية. ارتميت بعد أن ماتت تلك المرأة على جـسدك أمـسحه بالزيت وأعطره بالدارصيني والكافور، ثم أوقـد البخـور في اتجـاه قبلتـك الخاصة التي كنت تصلين لها. هل كنت تصلين فعلاً يا راحيـل؟ إنـه سـؤال استثنائي أود معرفته بصدق لأني اكتشفت ربما متأخراً أنك لا تعترفين بكل الآلهة. لذلك فإني اليوم خائف، أكثر من أي وقت مضى مـن أن لا يمنحـك يهوه بركاته ولا الله لطفه ولا ميكائيل ديمومته..

مشهد المرأة الميتة دمرني، في البدء لم أهتم لكن حيـنما حملوهـا مـسجاة على أكف الرجال والنساء شهقت وأنا أشاهد بهوس غريب صـورة المـوت المتجسدة. خفت عليك وجننت بك وصليت من أجلك لربي الخـاص. ربي الذي اكتشفته أثناء ترحالاتي في الشوارع والأزقة والجوع والابتراد والنـوم في الطرقات والتدفـء بحرق الورق وأغصان الأشـجار. اكتـشفت المـوت متأخراً لكنه هزني، وجعلني تائهاً أغادر الممالك السحرية للحياة لأعـود إلى التراب في رحلة قاسية وموجعة.

كل شيء يمكن أن يكـون، إلا موتـك. لـن أسـتطيع إذا مـا فكـرت

بالموت أن أحملك، لن أستطيع ولن أتمكن من ملامسة جسدك وسكب مياه البحر عليه من أجل غسل الأدران والذنوب والخطايا. لكنك يا راحيل بدون خطايا، بلا ذنوب، بلا عصيانات، بلا رغبات، بلا استباحات. أنت سر عميق وغامض لن يكتشفه أحد ما باستثنائي أنا الملك المتوج للعري والاستئصال والجوع والتغريب والاضمحلال.

سأبقى قربك أمحضك الحياة مثل قطة صغيرة وقط صغير أيضاً، وستدهشين وسأدهش وسيدهشون هم أيضاً وكل الملائكة من هذا الانبعاج في حياتنا- أنت وأنا- بعيداً عن العالم وبعيداً عن الأنهار وبعيداً عن منبع البحار والمحيطات والاقيانوسيات والنجوم والكواكب والأطعمة الباردة واللحم المسلوق والدجاج المشوي.

لم أفهم الموت، أعني لم أعرفه على نحو دقيق فما الذي يعنيه يا راحيل. أكاد لا أفهم هذا السر أو أني لا أفهمه حقيقة إلا بالشكل الخارجي له وهو تصحر الوجه وثبات العين وانغلاق الفم وإذا ما حملت الجثة ينفتح الفم وتبرز العظام والأسنان واللحم المتقصف والبهاء المتلجلج والدعة الغريبة والاستسلام المخيف.

ما الذي يفكر به الميت. إنه لا يفكر؟ ومن قال هذا. إنه يفكر بالسلام والسلام وحده وقد غرق فيه. ها هو يغادر العالم إلى الاستسلام الفظيع لله وهو يرحل إلى ملكوته في رحلة طويلة، عجيبة، مدوية، مرعبة. ولكن الآلهة تبصقنا يا راحيل. تتفلنا مثل تفلة حقيرة تسقط على تل الحياة الوهمي.

وجهك يا راحيل كان طباشيرياً ويبدو أن القمر نثر ترابه السحري على جبهتك وخدك في برودة الله التي يمنحها إلى العالم مجاناً. حينما تتأوهين أفزع، أرتعب، أتكهرب وأصرخ طالباً النجدة فتجيء الممرضات وأضيع بين الأرجل والسيقان والبصاق ورائحة السجائر والمشدات المتراخية.

يقول الطبيب إنها بحاجة إلى دم إضافي. دم، يا للرعب أيتها القديسة

وهو كل ما تحتاجه الآن. وأمد يدي ويأخذونني سريعاً، راكضاً، متعتعاً بالسحر ومخموراً بالهواء المعقم، منخوراً من الذروة إلى القاع، غاطساً في المتاهة اللولبية، منعشاً برائحة الدم ومخدراً بالفورمالين والضغط الجوي.

جسدك أمامي وأنا إزاؤك مثل صورة الله حينما يأخذ عباده السكرى بحبه. هناك يضيع الزمن والارتباك والمحنة والمغفرة والموادعة والتوسل وأتوسلك يا الله، حقيقة أتوسلك بكل قوة المتعة في هذا العالم. أتوسلك وأحبك بقدر السناجب في البرية حيث يصنع ارميا الحبال الطويلة وسمعان يصيد الحيتان في بحر غزة وبعلزبول يوزع مجانينه وشياطينه في أرجاء العالم. أمسك يدها الباردة جداً، المتخشبة، النائحة، المرمية بلا حركة كسمكة مقلية.

يدخلون الإبرة في وريدي ويتجمهر الدم مثل الشعاب البحرية. دم كبير وقاني وأسود وأحمر وأزرق. دم أزرق من سلالة ملوك الجن والشياطين الطائرة والزاحفة. دم ملون يشبه دم الصراصير وسائلها المخاطي.

أذرع بنظري الغرفة وأنظر إلى وجهك الشبحي. ريح القمر والكواكب الكبيرة والنائية كلها تنوح. كلنا كنا ننوح أمام الطعنة الهستيرية وفيما الدم يتدفق كنت أتذكر الطعنة. أتذكر يده الكريهة والمشعرة التي طعنتك مقابل ميراث العداء. الشرف، يا للكلمة التافهة. الشيء الميتافيزيقي الوحيد في هذا العالم الذي تسفح من أجله الدماء إلى الأبد. لكن ما هو الشرف بصدق؟ أجبني أيها الرب، أجبني يا يهوه وأنت في جبالك العالية في طور سيناء حيث تقبع مثل الغمامة.

يسير الدم، ألاحظه في الأنبوب يتمدد إلى جسدك الكهربائي، إلى جسدك المتخشب والطبيب يفحصك كل دقيقة من أجل الحياة. متى سوف تستفيقين من هذا الافتراء الغبي.

وفيما أنت في السبات الدموي، تحضر الشرطة وأتحدث لهم عن الريح

والعاصفة التي سبقت طعنك. أحدثهم عن الطيور الجارحة التي هاجمتك وأصف لهم الأخ وشعره ووجه وعظامه وأسنانه وفمه ودينه وربه وآلهته. أصف في البرد المرتعش الذي بدأ يصيب جسدي. كيف كانت الطعنة وأصف لهم لون السماء وقتها والكدرة والمطر والبرق والرعد والزمهرير وتقاويم القديسين.

أتخيل المدن السماوية والمباضع وابسو ونيامات وومومو ومردوخ وخالد بن سنان. أصف لهم بلباقة الاكتوديرم والميسوديرم والاندروديرم. ثم أعرج على التسوتيرم والغدة الصنوبرية والاكتوربلازم والهيض المعدي والجراثيم والصراصير. هل شاهدتم الصراصير والمردان؟ ويجفلون أمامي وينظر أحدهم للآخر بنظرة مغيبة الفعل الخلاق للدونية المتشابهة مع البط البري.

هناك دهون فسفورية تسيل على فخذي. لم أعرف من أين جاءت لكنها تسيل وتسيح فيما أنا مشلول بمنظر الدم السائر عبر أنبوبة بلاستيكية رفيعة. كنت مذهولاً وأنا أنظر إلى هذه الأنبوبة. كنت أتماوج وأنسحق وأدوخ وأتمرد ثم في النتيجة النهائية كنت أقعد على قدمي من أجل مشاهدة راحيل وهي تبدأ بالفوقان البطيء لكن الثابت.

قال الدكتور إن الأمور تتحسن لكنني أرتعش حقيقة. أرتعش لأن العالم كان يمنحني فرصة إضافية لحب راحيل. هنا الدم يمتزج، يتلاقح، يغور في تلابيب وأوردة سحرية ومغاور في جسدها الباهت. الوجه الآن يصبح أقل طباشيرية والقمر يرتفع من خلال النافذة المجاورة لرأسها. غدوت الآن أكثر وعياً من أي فترة سابقة. نشوء وعي حقيقي هي مسألة ليست بالهينة لكني بدأت أشاهد العالم بنظرة مختلفة وقاسية.

كنت أريد العودة إلى المجارير والطحالب والصراصير. أريد العودة إلى الزمن الخرافي السابق حيث آكل مع الكلاب وأنام مع القحاب وأتقيأ في الشوارع وأتبول على الجدران. انتهت عملية نقل الدم وسرت محاطاً بذراع

ممرضة. القاووش مطفأ الأنوار. قالوا إنه غير مسموح أن أبقى حيث النساء. أخرجوني من الصالة وبعد يومين تائهين استطاعت راحيل أن تقف وأن تسير وأن نشاهد العصافير المتقافزة في حديقة المستشفى.

قالت لي وهي تقرب فمها من فمي. يجب أن نرحل من هنا. المكان أصبح خطراً. سوف نسيح في الدروب إذن. وعيي الزائل والمحاط بالكائنات الفوقية والكئيبة بدأ يشرح لي ويريني التمدد الخفي لأجسادنا ونحن نغادر وبعد شهر استطعنا المغادرة لكن إلى لا مكان. أن ترحل إلى لا مكان يعني أنك لا ترحل.

جربنا أن ندور بسيارة الموسكوفيج في الشوارع ثم توقفنا مرات كثيرة لتناول الطعام. كل بغداد كانت شائكة. رحلنا إلى أطراف المدينة من أجل الوصول إلى صديقة قديمة لراحيل. توقفنا أمام دارها ثم دلفنا إلى الداخل. سمية متزوجة حديثاً وحكت راحيل المشكلة لها وأن من المهم الآن الاختفاء عن الأنظار بعض الوقت لأن العائلة تريد دمها. ارتبكت سمية بعض الوقت ثم قالت إنه بالإمكان البقاء هنا بعض الوقت.

كانت في البيت غرفة خالية ومنحتنا فراشا للنوم. في تلك الليلة حلمت أحلاما غريبة كانت فيها راحيل مطاردة من كلاب بلا وجوه. استيقظت أكثر من مرة ولم أستطع النوم بعد ذلك.

بعد منتصف الليل دخل الغرفة زوج سمية ورائحة العرق والسجائر تفوح منه ثم قفز إلى جسد راحيل. ارتعبت راحيل وصرخت بعنف ثم نهضت أنا ورفست الجثة الملقاة على جسدها وأضأت المصباح.

جاءت سمية هلعة ومن خلال ملابسها الشفافة كان يبرز جسد اسمر مثقل بكتل اللحم الثقيلة والعائمة على عطور جميلة. راحيل تصرخ وسمية تعربد بأشياء غير مفهومة. خرج زوج سمية من الغرفة مستنداً بذراعه إلى الجدران. راحيل ترتعش مثل سعفة نخيل تعوم على صفحة ماء. وجه سمية كان بارداً، ملعوقاً، خبيثاً، ثائراً، مستفزاً.

راحيل كانت شاحبة وبقيت لفترة طويلة ترتجف. أصابعها. مفاصلها. بصيلات شعرها، أسنانها، كفها التي تقدم بها القرابين لمملكة الموت. صوتها كان مبحوحاً من الصراخ العقيم والهائل. كان شيئاً خرافياً وهائلاً حط على الأرض بنقمة الملائكة الذين لا يستطيعون الفرار من هذا العالم. قالت سمية إنه يجب أن نخرج من البيت الآن، حالاً.

- ولكن، قالت راحيل، أمهلينا حتى الصباح.

لم تقبل سمية وزيادة في المناورة أخذت تصرخ ووجهها يتغير إلى مختلف الألوان. كان ضوء الغرفة أصفر وفيها كنت أشاهد العالم وهو يفقد أعصابه. لملمت راحيل ملابسها وملابسي ثم غادرنا إلى الأبد.

لماذا ينهار العالم أمامنا وتهرب الزهرة البرية والجوري والقرنفل من أفواهنا. راحيل تبكي. كانت مكتسحة وهشة. أثر الهجوم الذكوري كان لم يزل على وجهها وشعرها. نام العالم بهدوء وطمأنينة بانتظار صباح آخر لكنها لم تنم.

بقينا ندور في الشوارع. الأضواء الصفراء المميتة كانت تلتهمنا مثل أفعى الأجراس. الوحشة عميقة الأثر على وجهها. كنت أجري مقايسات وهمية للوجه، لاستدارته، لفمها. لأنفها الدقيق، لحبة بغداد التي أكلت جزء من خدها. متعبة ومستلبة وعارية في صخب مدو. ليس بالإمكان الحديث معها. فضلت أن أنظر لوجهها فقط. كانت تنظر الي بين الحين والاخر. لكننا لا نتكلم. صمت فقط يسيل مثل اللعاب على وجوهنا المصدومة بالزمهرير. البرد يلسع، يعض ويتآكل في أجسامنا التي تتحول إلى ورود الجيرانيوم والجوري.

قلت في نفسي إني أريد أن أقطف هذه الزهرات الخيالية وأقدمها لفمها المتعب. لم تقبلني منذ زمن بعيد وحان دوري لأن أقبلها وأمحضها الدف الذي يتسلل من بوابات عشتار باتجاه جسدها المتكور على مقود

السيارة. عندما بدأت الشمس بالشروق كنا قد اجتزنا الكثير من الشوارع قالت فلنذهب إلى المستشفى وأنها سوف تتحدث مع المديرمن أجل أن أبقى معها لأيام ريثما نتدبر الأمر.

في المستشفى لم يوافق المدير على بقائي واقترح عليها أن تذهب بي إلى مدرسة داخلية. مرة أخرى سوف نمارس لعبة الغياب والانحطاط الوهمي للعواطف. مسكتني بقوة من كتفي ونظرت إلى وجهي. كنت تائهاً في عوالم أخرى لم أستطع أن أغادرها.

بتنا ليلة واحدة فقط في مستشفاها ثم قررت الذهاب إلى عنوان المدرسة. صعدنا سيارة الموسكوفيج ودرنا في ازقة وشوارع بغداد. كنت أحمل متاعي. بقايا الملابس الرثة التي جلبتها جدتي معي وزوج حذاء مهترئ توقفنا أمام أحد المحال واشترت لي بيجامة وملابس جديدة وحذاء روغان يلمع تحت أضوية الشوارع.

صعدنا السيارة مرة أخرى وشاهدت العشرات بل المئات من الأضواء وهي تشكل مشهداً مدوياً ومليئاً بالضوء والرغبة في التقيء. لم أذكر كم هي عدد المرات التي درنا فيها في الشوارع لكني كنت أشاهد الضوء والظلمة، كلها متتابعة. كانت الظلمة تخترقنا فجأة مثلما يخترقنا الضوء أيضاً. انشغلت بملابسي الجديدة ولم ألاحظ أننا توقفنا بالقرب من السفارة الألمانية وأمام منزل كبير بطارمة وحديقة خارجية كبيرة.

أشارت راحيل أن استعد للنزول. قلت لها أين؟ قالت نزور أحد الأصدقاء. شعرها بدأ يكتسب لوناً غارقاً في الحمرة. البيت الذي توقفنا أمامه كان كبيراً وذا امتدادات طولانية. كان الضوء يخترق عيوني فلم أستطع مشاهدة العالم وهو ينحني لي إجلالاً من أجل أن أمنحه صلاتي الأخيرة في الضوء الذي يملأ المكان.

الفصل العاشر

ترجلنا من السيارة وسرنا. كنت أمسك يـدها المتعرقـة رغـم الـبرد. كنت أشعر أنها كانت تمنحني بعض الدفء كمنحة أبدية في أزمنة بلهاء نسير فيها وننزلق أشبه بالمسرنمين.

أمام البيت توقفنا وبرز من نافذة البيت وجه أسمر كبير. جاء الوجه وفتح لنا البوابة. سرت أحمل أغراضي مع لعبة جديدة اشترتها لي راحيل. دخلنا البيت الذي كان كبيراً من الداخل وبغرف كثيرة وصالة واسعة وضعت فيها حلقة للعب الأطفال الصغار محاطة بشبكة سلكية تمنع من الخروج.

قادتنا الفتاة صاحبة الوجه الأسمر إلى غرفة فيها طاولة وكراسي. أخذت فيما كنت ألتصق براحيل بتشمم المكان. كانت هناك رائحة خدرة، رائحة ليست شخصية. بعد دقائق من الانتظار طلبت من راحيل أن تسمح لي بالخروج من الغرفة والتوجه إلى الصالة الخارجية لمشاركة الأولاد ألعابهم.

خرجت فيما دخلت الغرفة سيدة ترتدي ملابس وقورة وبوجه صارم. بعد نصف ساعة خرجت راحيل بصحبة السيدة. قالت راحيل إنها سترحل وإني سوف أبقى هنا لبعض الوقت. شعرت بالحيرة تتسلل إلى

روحي. لم أفهم ما الذي أخذ يتحرك في روحي. لكني فجأة شعرت بالخوف والقلق والفراغ. الأولاد كانوا ينادوني ووجه راحيل يتأملني.

قالت راحيل إن السيدة التي بجانبها اسمها مسكينة وهي المديرة. سوف ترتاح هنا كثيراً. عقبت. لم أفهم. أرادت أن تشرح لي بشكل أوضح. قالت إن علي أن أكون مهذباً، هذه مدرسة داخلية. سوف أستمتع بوقتي هنا، فكرت. كنت أشبه بالغبي وأنا أحملق بوجه راحيل. نصف الحديث الذي قالته لم أفهمه. كنت مشوشاً ومرتبكاً ومنزوياً في إثارة عرماء أخذت تنزل إلى عظامي تدريجياً.

حملت راحيل حقيبتها اليدوية. سرت معها ومع السيدة مسكينة إلى الباب الخارجي. صعدت راحيل بعد أن قبلتني، سيارتها الموسكوفيج. حينما تحركت السيارة أحسست فجأة بخواء العالم والوحشة والضياع والتشتت والانبهار والخوف والتمرد.

مسكت مسكينة أصابعي وقرفصت أمامي. كانت تنظر في وجهي، تتأمله. تقرأه بنهم وديع. عين مسكينة كانت تشبه بحرا أزرق واسع لكن بلا قوارب لصيادين أو سمك طائر بأجنحة. لم أمسك يدها، لم اعتصرها. أردت فقط أن أرحل مع روحي التي غادرت المكان بلا هوية وطرقات. جسدي شائه أبدي في الريح والسماء والمطر الذي توقف فجأة مثلما بدأ فجأة.

قادتني مسكينة إلى الداخل. سمعت عواءاً في الهواء، سمعت نحنحات وبكاء وتصريف أسنان. شعرت أني أضعت قلبي إلى الأبد. الوحشة الغريبة جعلتني أصمت. كنت تائهاً. العواء مستمر، ضرب طبول وأصوات تقفز من كل الأماكن.

- أولئك هم أصدقاؤك الجدد، أنظر وابعث في المكان صوتاً جديداً ريثما آتيك بالطعام، قالت ثم انسحبت إلى المطبخ.

شعرت أني تائه مرة أخرى. نوع من العلاقة تشكلت معها منذ

اللحظة الأولى للاتصال الذهني. المطر الذي هطل في الخارج منحني بعض القوة الخفية. سرت في المنزل على استحياء مثل شحاذ قادم من مملكته الأسطورية. تذكرت نوفل والجوع المستمر إلى الطعام.

جاءت مسكينة بصحن معكرونة طويلة. جلست مشوشاً وهائماً ومع تذكر نوفل والضياع في المطر والبرد التهمت الطعام بإرادة قاتلة ووجع دفين. كنت ألتهم بتدفق وأمعائي تتلوى هاربة من الجسد الناز عرقاً خفيفاً ومقرفاً وسائحاً إلى الأرض والبلاط والسجادة الممرغة بشعر كلبة صغيرة اسمها جوني. الخادمة كانت تسير بشعر طويل يصل إلى الخصر. شعر أسود فاحم لا اثر فيه للنجوم.

جلسنا سوية أنا والكلبة أمام عتو كبير لرياح في الخارج تضرب البوابات الكبيرة للقلعة. بعد الانتهاء من الطعام طلبت مني الخادمة أن أسير خلفها بصمت واجتهاد إلى المغسلة. كان صوتها خشناً. رجولة كبيرة تتخلل ملامحها. شعر أسود دقيق يملأ الربلتين والركبتين. ثمة قسوة أخرى تبرز من وجهها. لم أحبها. كرهتها. حاولت وأنا أسير خلفها أن أتشمم رائحتها. اقتربت أكثر من هفيف ثوبها القطني والشعر في الأثر يرحل متماوجاً مع اهتزازات الجسد النحيل والغض والخشن والمتمرد.

لم أتشمم رائحة خاصة. كنت بحاجة إلى الرائحة بشكل شبقي ومجنون. العالم أمامي كان عبارة عن روائح أستطيع من خلالها إجراء مقايسات البعد والحزن والتماهي مع الآخرين. قرب المغسلة استطعت أن أشم بعض الرائحة، كانت رائحة نفتالين خفيفة مهيجة لذكريات قريبة مع جدتي.

- قالت بخشونة، إغسل فمك.

ارتعبت، الصوت مائل إلى جهة انحدارية. شعرها حينما انحنت قليلاً لتناولني الصابونة بدا مدوياً وظلمة عميقة تنبعث منه. ضعت للحظات في

الشعر. الضياع كان كبيراً وصرخت في ذهني أن ابتعدي عني. جفلت، تقلصت عيني وأنا أضع الماء على الفم والصابون تالياً بانزلاق مرن.

قمت بحركة الضياع التائه. كل ضياع هو تيه لكنني لم أعرف هذه المعادلة إلا معها. مع نوفل كان الضياع يكتسب عمقاً آخر وشكلاً مختلفاً. الضياع في الشوارع هو ممارسة للحرية الأبدية وأنت تجول مع الكلاب والجرذان في المطر والبرد والارتقاء المعرفي نحو التيه الإلهي والذوبان مع القدرة الخارقة للذات. هنا تذوب الذاتية معلنة الانحطاط الهش للروح.

سمعت كلامها وطبقت تمارين غسل الفم والوجه. ألبسوني بعد ذلك بيجامتي. كانت الغرفة التي سأنام فيها مكونة من أربعة أسرة. أربعة تائهين مثلي في ظلام طويل ودموي. شعرت بعري خفي يهاجمني. جلست على سرير مخصص لي. ثم جاء الأولاد الثلاثة. الأول طويل والثاني بدا أن له ثمة شارب يتباهى بخفوت.. الثالث كان قصيراً جداً، سميناً بعض الشيء وببشرة بيضاء نقية.

منذ اللحظة الأولى اعتبرته صديقي المفضل، وجهه كان نقياً من الزغب وثمة أنوثة طاغية في صوته الناعم والذي يمنحك شهوة عارمة. قال لي إنه مسيحي. لم أفهم كلماته على نحو دقيق. كان يضع صليباً على صدره المملوء باللحم. الآخران جلسا إلى سريريهما ثم تاها بسرعة في غابة النوم.

جلست مع المسيحي على سريره، منحني بعض الألعاب الصغيرة. طوال فترة جلوسي معه لم يحرك ساكناً. كان يجلس إلى سريره مقرفصاً، تائهاً في ضوء الغرفة الأصفر والموضوع في منتصف السقف. كانت في الغرفة لوحة لمريم العذراء مع طفل صغير تحمله على صدرها. ثمة هالة من الضوء تحيط بالرأس. فوق باب الغرفة، صليب صغير معلق.

– متى، قال، هذا هو اسمي.

بلباقة وإنفة وانزياح عن المكان لفظت اسمه، كررته مرات عديدة.

كان يبتسم. أصابعنا كانت تتلاقى ونحن نعبث بالألعاب الصغيرة التي كانت موضوعة على سريره. اكتشفت حينما كنت جالساً على سريره رائحة خدرة تتسلل إلى الأنف. إنها رائحة المسيح. المسيا القادم مع لفافات الفراش والقطن. لكن المسيا لا رائحة له. قلت له إن رائحة فراشه تعجبني. ابتسم.

انحنيت قليلاً ووضعت فمي في تلابيب الفراش واللحاف والشرشف الأبيض. طهر خفي يختبئ عميقاً. نهضت وتشممت فراشي. لم أجد رائحة معينة. قلت إني سأملأه ضراطاً وفسواً وبقاً وبراغيث، ضحك متى ثم تمدد على فراشه. قبل دخوله الفراش جلس أمام لوحة أم الرب يتلو صلاته بصوت دفين وناعم. صوت القراءة ليسوع كان جميلاً. الصوت يأتي متسللاً من بين الأضلاع والحنجرة والأوتار الصوتية ثم يضيء فجأة نوراً عميقاً في الوجوه. شعرت للمرة الأولى بإلفة عميقة مع التراتيل التي قرأها. إلفة غريبة وهدوء أخاذ مسربلاً بالحنين الخفي إلى لا شيء.

انتهى متى من القراءة. انحنى قليلاً، برز جزء يسير من مؤخرته. كان أبيض وهو يتماهى مع البيجاما. فجأة وأمام منظر اللحم غادرني السلام المقدس الذي عشته لدقائق. جاءت مسكينة ونظرت إلى الداخل. أطفئ النور ثم تلاشى كل شيء في ظلمة ممزقة بالضوء القادم من النافذة.

لم أستطع النوم في تلك الليلة. كانت الليلة الأولى في عالم جديد كلياً. من خلال الباب الموارب لمحت ضوء السلم على الحائط الذي تشكلت عليه ظلال خفية وغير مفهومة. بقيت فترة طويلة أتقلب في الفراش ثم أراقب ضوء السلم والظلال المتحركة. حاولت أن أفسر تلك الظلال وأستنبط المعاني الخفية منها على طريقة التوراة القديمة والموضوعة نسختها في درج طاولة قريباً من رأس راحيل.

راحيل لم تكن تقرأ التوراة وكانت تقرأ في كتاب آخر عليه صورة شخص غاضب، اسمه لينين. حكت لي راحيل عن هذا الاسم. نوع من

القداسة كانت تهيمن على قراءتها وهي تحاول أن تشرح لي مضمون الكتاب. لم أعجب بشخصية لينين، كما لم أعجب بعد ذلك بالثورة الحتمية وانتصار البروليتاريا ونمط الإنتاج الآسيوي وباقي الخرائيات. غالباً ما كنت أفكر بشيء مغاير هو أن هناك ربّاً آخر هو غير الموجود في أذهان الناس.

على خلفية الضوء المتسرب من الباب، فكرت في متى ثم نوفل وسرقاتنا الكثيرة والمتعددة. كنت أسير جنب نوفل وملاصقاً له مثل فرخ بط أتدحرج وأتمايل وأنسحق بصوته وهو يسأل الفروخ المنتشرين في البتاوين عن مغامراتهم الشبقية. كانوا يحكون لنا وتحديداً لنوفل عن غزواتهم الكبيرة.

مع الفرخجية والمناويك في هذا العالم الغامض والملهم والمترع بالجوع والشهقات. في الخوف المتموضع في جسمي الهش كنت أرتعش هلعاً كلما كان ثمة برق ينفجر فجأة وأنظر إلى متى النائم بعمق ملائكي. لقد صلى صلاته. صلى لربه الجميل ولنبيه الأكثر جمالاً ومنحه ذلك الرب طمأنينة عالية وكبيرة ومتسعة. كان يحلم حتماً بالملائكة والمسيح والعذراء، أما أنا فكنت أغرق في الخراء.

كنت أكثر الناس امتلاكاً للآلهة وبالرغم من هذا لم أشعر بالطمأنينة التي يغرق فيها متى. كنت أحسده بعمق شهي ومجنون لأنه ينام مسترخياً فيما أنا تتآكلني الأحلام والكوابيس. رعب شهواني وحقارة مدوزنة وأنت تتصارع مع الملائكة والشياطين والآلهة والأرباب والملكوت وكل الماورائيات. شاهدت في سريري رؤى شيطانية. كل الآلهة كانت حاضرة في تفكيري وأنا أفكر بنوفل وأقول ماذا عساه أن يفعل إذا ما شاهد اللحم الأبيض لمتى النائم. لو كان نوفل هنا لـ....

استطعت النوم بعد كثير من الفوضى الدماغية والبكاء والخوف. تسلل صوت من مكان ما واستيقظت مرعوباً وجسمي ينز عرقاً بفعل كابوس مدمر. فتحت النافذة القريبة من سريري وتسلل إلي صوت آذان

الجامع. كان الصمت كثيفاً وكأن المكان مفرغاً من الهواء.

صوت الآذان كان عميقاً جداً. لفحتني البرودة المتدفقة من الشباك وصرت أصغي إلى القراءات الهادئة والعميقة التي كانت تسري في سماء بغداد. شعرت بالتوحد مع الصوت ومع اسم الله. الله الذي كان مهيمناً على الكائنات بخيوط الفجر السحرية وهو يؤرخ للسلام والمحبة ويغسل الجسم من اللوثات والأدران. فجأة تفجر فيّ حب هائل إلى الله. حب مسرنم وقوي ومتدفق ومنبهر مع الملكوت الذي كان يغطي بغداد حيث اكتشفت الزمان والفناء من جديد.

كان هو، هو وكنت لعبة يحركني إلى كل الاتجاهات. من شآبيب التلوع انتقلت إلى عناقيد الرحمة ومن عناقيد الرحمة دخلت إلى سرادقات الوداد ومن سرادقات الوداد جثوت على أبواب قصور الإنس ومن القصور طرت إلى خيام المحبة ومن خيام المحبة إلى غرف النور حيث الرحمة والطمأنينة والغياب والحاضر والزمن والوقت واللوعة والجبروت والرحمة والاشتياق والذوبان.

صوت المؤذن كان صوتاً إلهياً، هادئاً، منغماً يتسرب من خلال النخيل في حديقة المنزل. النخيل المتراص والمتمايل والمنبعث من الأساطير الكهنوتية.

ثمة إحساس بالنقاء والسلام فجرته كلمة الله، دخلت في نوبة بكاء وحشرجة. ليس خوفاً، إنما تلاشياً في الله، رحت أصغي بقوة وولع وتمرد وانزياح إلى صوت الرب الذي شعرت أنني ابنه، ملاكه المهيمن والغارق في جو من البياض الشفاف. أردت أن اقبله، أبوسه، أشمه، أمسح بوزي بنعله وهو يسير فوق الغمام وفي ضوء الفجر شيخاً حانياً وبملابس صوفية بيضاء. كانت هناك طمأنينة عميقة واستسلام مروع للصوت، شعرت أن مفاصلي كلها مفككة لكن جسمي كان يتجمع بعد تناثر وضياع في الأرض ومراتب الوجود.

من أي اتجاه كان يأتي الصوت؟. من الجامع القريب، لا، لم يكن من الجامع إنما من مكان سري وخفي. تذكرت سيدي وقرة عيني الشيخ عبد القادر. حلاوة صوت المؤذن كانت عميقة وساحرة وذات ترددات عميقة تصل إلى أدق خلايا الدماغ فتثير السيروتونين وباقي السوائل والغدد بالاضطراب فتغرق في لذة حسية هائلة وكأنها كنت تشرب من قنينة عرق إلى ما لا نهاية. آه، قلت، لكن سكرة العرق لم تكن بها لذة، وهذه مجبولة وغارقة ومترعة باللذة والصعود والاسترخاء والطمأنينة والسلام الداخلي.

كانت هذه المرة الأولى التي يغزوني هكذا شعوربخدر عميق وبقيت حتى اليوم التالي أعيش لحظاته المذهلة والسحرية وأنا أسير في حدائق البيت وأروقته مثل مأفون. كل شيء كان دافئاً ومنعشاً. عشت أزمنة طويلة مع هذا الإحساس. أزمنة طويلة جداً، لكنها قصيرة في عرف البشر وسيطرت فكرة عميقة على روحي التي كانت خفيفة ومتماهية مع الأشجار والمخلوقات. كنت أشعر أن كل شيء يتحدث لي وكنت أسمع الأحاديث وأبتسم لأني أعرف لغة الأشجار والحشرات والحيوانات والبغال والسعالي والورود والهواء والعصافير والبلابل، كل شيء كانت له لغة خاصة والكل يسبح في سلام عميق وطمأنينة كبيرة.

عشت بعد صوت الله، الحلم، في سلام داخلي كبير. لم أبك مرة أخرى لعدم وجود راحيل التي كانت تزورني مرة في الأسبوع وكنت اقبل المقعد الذي تجلس عليه بعد أن تغادر المدرسة. كانت رائحتها قوية، عطرها أخاذ لدرجة أنه كان يبقى أسبوعاً كاملاً على المقعد وكنت كل يوم، آتي وأقبل المقعد وأتشمم العطر وأمرغ وجهي على قماشه.

متى شاهدني واستغرب ما أفعل. جاء وتشمم المقعد لكنه لم يجد شيئا، وقال إن لا شيء هناك سوى رائحة القماش. لا أصدق ما يقول، لأن الرائحة كانت مترعة وتغرق المقعد وكل أجزاءه من الخيوط والقطن والإسفنج.

أصبح مروري كل صباح وتلمس المقعد وتقبيلـه نـوع مـن الطقـس البدائي أمارسه باتقان وخشوع ورهبانية. متى كـان يجلـس قبالـة أم الـرب وأنا أجلس قبالة المقعد وكلانا كان يـمارس طقـسه الخـاص. كنـت أسـمع حينما أضع فمي ثم أذني على المقعد، كلام الخيوط والإسفنج والجلـد وكـل واحد من هذه المواد كان كائناً منفصلاً وله قـصص مختلفـة ومتجانـسة مـع روحي. لا يفهم متى ولا الآخرون الأسرار العلية والفهم الغائب في الحقيقة والحقيقة المغيبة في العدم..

في أيام أخرى وتحديداً أيـام الآحـاد كانـت الـست مـسكينة تأخـذنا بصحبة ممرضة المدرسة الإنكليزية إلى إحدى الكنائس. كانت كنيسة رائعـة. صور القديسين تنتشر في المكان. تمثال سيدتنا العذراء كان يقف في المقدمـة. كنا نحمل شموعاً طويلـة ونـدور ثـم نـضعها تحـت أقـدام العـذراء. جـو قروسطي يهيمن على المكان مع موسيقى حالمة. أستغرق طويلاً وأنا أنظر إلى تمثال العذراء مع الطفل بين ذراعيها. الانحنـاءة البـسيطة للعـذراء فتلتنـي ونظرتها الحانية والرقيقة كانت تمنحني سحراً وهياماً كبيرين.

متى كان يغرق هو الآخر في الصلاة. كان مؤمناً أن هذا التمثـال هـو الله وأن الأم هي أم الله. بعد عودتنا مـن الكنيـسة كنـت أشـعر باسـترخاء. نتناول طعامنا الذي تعده الخادمة ثم أدخل في لحظة إشراق داخلي. المـسيح كان شيئاً ملائكياً يختلـف عـن الآخـرين. روحـه وإشراقـه وزهـده وحبـه للبشرية جعلني أتحسس آلامه العظيمة وهو يسير في درب الجلجلـة حـاملاً صليبه من أجل الحزانى والمرضى والأرامل والمساكين والأطفال.

لم يمنحني موسى حينما تقرأ لي راحيل عن أسفاره وغزواته ومعاركـه شيئاً مشابهاً. عيسى كان الوحيد الذي لم ينـشـر الجيـوش ويحـارب ويقتـل بسيفه ويغتصب النساء والجواري. في الكنيسة ومن خلال الطقوس أعدت اكتشاف ذاتي وأعدت اكتشاف يـسوع بآليـات جديـدة في التفكـير وصرت بسبب هذا قريباً جداً من متى الذي أحببته.

ذكرياتي عن نوفل كانت تنمحي قطعة إثر قطعة وتشردي في الشوارع كان يمسحها يسوع. مرة واحدة خرجت في القسم الداخلي عن الإطار اليسوعي في الحياة حينما قتلت قطة السيدة مسكينة. لم أكن أعرف لماذا قتلتها لكنها كانت لحظات مفاجئة من القسوة. بعد أيام من قتلي القطة حدثت متي عن الموضوع. ارتعش ولم يحرك ساكناً. لا بل شعر بالخوف مني وأراد أن يخبر المديرة لكني توسلته وقلت له إني أريد فعلاً أن أعترف بالخطأ الكبير الذي وقعت فيه. لكن الاعتراف هو له فقط وليس لأي إنسان آخر.

بسبب هذه الحادثة صار متي يخافني بالرغم من أني كنت أؤدي صلاتي كل ليلة أمام المذبح الموجود في القسم الداخلي لكن ثمة شيء ما تحطم، انكسر، تبعثر. الأيام التي أعقبت موت القطة كانت تجري برتابة كبيرة. كل صباح كنا نستيقظ ونتناول فطورنا ثم يبدأ أولاد آخرين بالوصول إلى المدرسة لتبدأ دروس اللغة الإنكليزية ومحاضرات عن يسوع والسلام والتضحية.

كانت الروح الشريرة تكبر في أحيان كثيرة لكني كنت أسيطر عليها بقوة غريبة بالرغم من أني أجد صعوبة في هذا. يوم الخميس من كل أسبوع كانت تزورنا ممرضة المدرسة الإنكليزية، كانت تجري فحوصاً على أجسامنا وكان يحضر معها ابنها الذي يكبرني بسنوات. كان ولداً متعجرفاً وكنت أكرهه بسبب تعاليه علينا. كان الحقير يمتلك الكثير من الألعاب ويرتدي غالباً بدلة إنكليزية مع ربطة عنق ويضع الزيت على شعره.

في أحد الأيام جاء و معه لعبة جديدة، طلبتها منه لكنه لم يعطني إياها وقال أنت عراقي قذر. لم أفهم ما قاله لكن بدني اقشعر وأحسست أنه وجه لي إهانة قاسية. ضربته على بطنه ثم سقط على الأرض فانحنيت عليه وأوسعته لكماً. كنت أقول وأنا أرفسه بقدمي، هذا هو العراقي، العراقي ينتصر. ملأت الدماء وجه غريمي. تبعثرت تسريحة شعره الأصفر ومزق قميصه.

جاءت الممرضة تركض تتبعها السيدة مسكينة وبصعوبة بالغة استطاعوا إبعادي عنه. كان جسمي يرتعش وفمي يزبد. كررت مرات كثيرة أن العراقي هو الفائز. لم تقل الممرضة شيئاً وأخذت ابنها بعيداً بعد أن تفحصت وجهه. كنت أتصور أني سوف ألقى عقاباً جراء ما فعلت.

أجرت السيدة مسكينة تحقيقاً في الأمر. أعدت عليها ما قاله ابن الزنا. أخذت تنظر في وجهي وثمة ابتسامة غريبة ومتطامنة أخذت تعلو وجهها. منذ ذلك اليوم أخذت السيدة مسكينة تنظر لي بشكل آخر يختلف عن الآخرين. أخذت تصحبني إلى المسبح حيث تذهب للتسلية وفي أيام محددة كانت تأخذني معها للتسوق.

أتاح لي الخروج من المدرسة بصحبة السيدة مسكينة، فرصة لرؤية العالم من جديد. بعد حادثة المشاجرة أخذت تسمح لي أيضاً بالخروج من المدرسة للسير والتنزه على أن لا أبتعد كثيراً. في محاولاتي العديدة لاكتشاف المكان، اكتشفت جامعاً قريباً من المدرسة. أصبحت أزور هذا الجامع دون أن أدخله. كنت أتأمل منارته الطويلة وقبته الموشاة وغالباً ما أسمع الآذان فيه.

فكرت بالدخول ووضعت أول خطوة على باب الجامع وهاجمتني مجموعة مجهولة من الأحاسيس المرتبطة بجدتي. لماذا جدتي؟ وجهت السؤال لنفسي فيما كنت أسير متداخلاً مع ضوء الشمس والألق الفضفاض لتعريشة ذاوية وذائبة في محيط الجامع.

كان دخولي الجامع وحيداً، لم يكن معي نوفل ولم يكن هناك شحاذون أبرياء من هذا العالم لاستجداء وجبة طعام أو قطعة من النقود. مشهد الجامع منحني قدرة توصيلية عالية لذوبان جسدي ومن ثم فمي وعيني.

كان الجامع فارغاً من البشر لكنه مملوء بأشياء كانت ضمن خيالي الكبير والمتسامي. فجأة أطل أمام الجامع ووقف أمامي. كان شخصاً غريباً

وأعـور. قـررت منـذ اللحظـة الأولى أن أقـف دون أن أتقـدم أو أن أقـدم جنودي إلى الحرب.

- اقترب وقال: لا يبدو أنك شحاذ.
- نعم، لست كذلك.
- ماذا تفعل هنا إذن؟
- لا شيء محدد، لقد أعجبني المكان.
- ليس هذا مكان للعب. إنه جامع للصلاة. أخرج لعنك الله.

*****

مرت الأيام مسترخية وبطيئة في المدرسة الداخلية. علاقتنا كأصـدقاء متى وأنا، أصبحت قوية، بل ازدادت قوة وأصبحنا قريبين من بعضنا أكثر. منحنا هذا القرب أن نكسر زجاج أحـد النوافـذ كـما منحنـا فرصـة أكـبر لعمليات سرقة كنا نجريها للصمون خاصة في الأيـام التـي تكـون الـسيدة مسكينة غير موجودة وحيث تقوم الخادمة بسرقة نصف طعامنا.

انتقاماً من الخادمة استطعنا في أحد الأيام أن نفاجئهـا وهـي تـستحم وسرقنا لباسها الداخلي. تعرضـنا إلى عقوبـة شـديدة ومنعنـا مـن حـضور الصلوات في الكنيسة. كنا نقرأ كل ليلة قبل أن نذهب إلى السرير أبانا الذي في السماء ثم نختم كل هذا بدعاء إلى سيدتنا العذراء.

كنت أشعر بكره للطقوس الدينية ورتابتها التي كانت تجري، أما متى فكان يغرق مثل الحمار في هذه الأدعية مستمراً بصلاته بالرغم من أني أقنعته أكثر من مرة أن نعبد الله الآخـر الجديـد. كنـت أشـعر أني بحاجـة إلى ديـن جديد أو أني سوف أصبح نبياً في المستقبل. تسلطت هذه الأفكار علي بقـوة وجعلتني أتخيل رؤى كثيرة وأبتدع أدعية كنت أقرأها عـلى رؤوس المتعبـين وأصحاب وجع الرأس من تلاميذ المدرسة.

المدهش في كل هذا أن كل أصحاب الأمراض الذين عالجتهم تماثلوا إلى الشفاء. كنت في كثير من الأحيان أحضر نوعيات خاصة من الأدوية هي عبارة عن خراء الكلاب ممزوجاً بالفلفل الأسود أو البهارات وكان الطلاب يشفون بمجرد ابتلاعهم لهذا الدواء. الأنكى من كل هذا أن الخادمة صارت إحدى زبائني وأصبحت علاقتي بها قوية جداً وكانت تشتكي من آلام الظهر واستطعت أن أشفيها.

بعد هذا كانت الخادمة تستمع إلى نصائحي مثل المجنون الذي يغطي الزبد فمه. شعرها شعث وعيونها تقدح شرراً ولمعاناً غريباً وكانت تقول لي إنك مبارك فعلاً. نبي بلا نبؤة ولا كتاب خاص به ونبهتني إلى هذه النقطة الخطيرة بالرغم من جنونها الذي نحن سببه. لم أفكر سابقاً في كتابة كتاب مقدس خاص بي وذلك لأني لا أعرف الكتابة أصلاً وما تعلمته في هذه المدرسة هو بعض اللغو بالإنكليزية. اللغة التي كرهتها لأنها ارتبطت في ذهني بابن الممرضة الإنكليزية.

طيلة مدة مكوثي في المدرسة لم تحضر جدتي لزيارتي بالرغم من أني كثيراً ما كنت أحلم بها. أحلم بأصابعها ووجهها وصدرها وعباءتها السوداء. كنت أشتاق لجدتي وكثيراً ما قلت هذا لراحيل إلا أن راحيل لم تعقب على كلامي سوى أنها لا تعرف عنوان جدتي بعد. كانت راحيل تصحبني كل يوم خميس إلى المستشفى لأبيت هناك ليلة واحدة وتعود بي مساء الجمعة وكانت العودة تمثل لي شيئاً مخيفاً ومؤلماً.

غالباً ما كنت أبكي وانهار حينما تغادرني راحيل، بالرغم من وجود متى وبقية الأولاد إلا أني كنت أتألم بشدة حينما تتركني وكأنما لمصير أسود. كنت أبكي بحرقة وعصبية وتنتابني حالات من الهيستيريا والإغماء لم تكن تتوقف إلا بمجهود كبير. كنت في حالات الهيستيريا تلك أضرب نفسي وألعن كل شيء. حالات الجنون كانت تنتابني بقوة وهي نوبات مرعبة كنت أغادر فيها كياني الأرضي وأحلق في عالم غريب مملوء بالألم والبكاء

والتمرد والتقلص والزبد المتراكم على فمي.

في بعض الأحيان كانت تنتابني حالات كآبة حادة وتشنج. أنزوي بعد توقفي عن الصراخ في أي زاوية أو مكان في المدرسة وألعق جسمي مثل كلب وكنت أفكر أن لا أتكلم نهائياً مع أي كان. في تلك اللحظات كنت أسير على الأربع وأنهش أي شيء أمامي بمن فيهم السيدة مسكينة والخادمة ومتى الذي كان يهرب مني إلى الطابق الأعلى.

تستمر الرغبة في العواء عندي ثلاثة أيام تقريباً وفي اليوم الرابع أكون في حالة لا بأس بها وترتاح الخادمة من عوائي والسيدة مسكينة من كلب جبار بمثل حجمي وقوتي. حالة الكلبية التي كنت أمر بها كانت تجعل عيني متوهجة وحمراء وفمي يرغو بالزبد والبصاق ولساني دائماً خارج فمي أما أنفي فإنه يتحول إلى كرة سوداء صغيرة ولامعة.

في اليوم الرابع أعود تدريجياً إلى ممارسة عادات الأكل مع البشر والصلاة قبل النوم والذهاب إلى الكنيسة وقراءة التراتيل والدوران بصحبة الشموع. باختصار كنت أعود إلى حالة هي ليست حالتي الطبيعية إنما أخضع إلى إجهاد ذهني وبكاء صامت وقوي. كنت أذرف الدموع بشكل متوحد ووحدي دائماً ودائماً في غرفة النوم قبل الذهاب إلى النوم.

بعد تكرار حالة الكلبية التي كانت تتقمصني طلبت السيدة مسكينة من راحيل أن تأخذني معها إلى الأبد واعتذرت كونها غير قادرة عن منعي من عض الآخرين وصناعة الأدوية المسمومة وتكسير الزجاج وأنها اكتشفت أني كنت من حاول قتل جوني وهي تخاف من أن أرتكب حماقة أخرى وأن أقتل أحد الطلاب أثناء نوبة مدمرة من النوبات التي أمر بها. وضعتني راحيل في سيارتها وفي اللحظة التي كانت تريد الخروج من شارع المدرسة لمحت جدتي بصحبة إحدى القريبات.

توقفت راحيل وهي تشعر بظلام عارم يغلف كل حياتها. قبلتني جدتي بقوة وضمتني إلى جسدها. كانت جدتي منفعلة وتتكلم بعصبية

واضحة. قالت راحيل لجدتي إنها ستضطر إلى الزواج بعد أن هددتها عائلتها بقتلها مرة ثانية وأنها سوف تأخذني معها إلى بيت الزوج الجديد. مثل الأهبل كنت أنظر إلى المحادثة القائمة بين جدتي وراحيل. كنت أراقب الهمسات والتوجعات والآهات والسخرية والتوجع والانهيار الكلي لراحيل عندما أبلغتها جدتي أنه من المستحيل أن تجعل ابن ابنها أسيراً وعبداً ذليلاً عند رجل غريب.

- اذهبي وتزوجي عليك اللعنة أما ابن ابني فسآخذه ولن أموت جوعاً. دائماً كان هناك الله والله سيرزقنا حتماً. اذهبي إلى الجحيم أنت وزواجك. لن أغفر لك ولن يغفر لك هو أيضاً. لقد اخترت عليه الرجل. سوف لن تريه بعد الآن.

وتبكي راحيل وتنشج وتتألم وتتلوى مثل شخص يأخذ الهيروين بكميات إضافية لكن هذا الهيروين كان يجعلها تبكي أكثر وبرغبة قوية في تحطيم كل شيء.

- لكن الأهل يطاردونني، وتكرر هذا لجدتي وتقول إنها مضطرة وليست راغبة.

لم تسامحها جدتي وتأخذني من يدي بقوة وتتشبث بي راحيل حتى النهاية. في المحصلة نترك راحيل واقفة. لم تغادر مكانها وكنت ابتعد عنها. ابتعد عن آخر الأحلام الزرقاء والبيضاء مثل شراشف المستشفى. نبتعد وراحيل لم تزل واقفة أشبه بمخبولة وأشبه بشمعة ذائبة. نصعد الباص وأشاهد الوجه لآخر مرة. كل النمش على وجهها كان يبكي. كل نأمة وذرة متكومة في جسدها كانت تغني أغاني الفجيعة والاندحار والتملق والتودد والاستهتار.

نصعد (الباص) وأبقى مكبلاً بنظرات راحيل. كنت أخرج من العالم لعالم أكثر توحشاً. لم أعرف هذا العالم الجديد لكنه حتماً ملوثاً بالخراء

والتوسل والبهجة القتيلة. سار الباص وراحيل لم تزل واقفة وكأنها تنتظر قراراً مفاجئاً.

لم أشاهد جدتي مثلما كانت عليه اليوم من قسوة. لقد شحنت كل أجزاءها بالأسلحة القاتلة والمسمومة والمرعبة. أسلحة مصنوعة من اللحم والشحم والذاكرة والانحطاط الجسدي والعري في عالم ملوث بالغائط والخراء والبراز والبصاق والتهاب القصبات الهوائية والتدرن الرئوي والسل والمتلازمات الدهنية. أتبرز على العالم والكون الكلي المشلول بنظرات راحيل ببكائها الحسي والمكتوم والمتوعد.

استسلام همجي لرغبة جدتي وهي تؤرخ للفصل الأخير في مسرحية لعينة. طلبت من سيدي وقرة عيني عبد القادر الكيلاني أن يكفكف دموع راحيل، أن يطوع القسوة القاتلة لجدتي ولتسمح لراحيل بعدئذ أن تراني. لم أعرف إن كان قد استجيب للنداء الوحشي في الغابة الوحشية أم لا. لم أعرف ما يدور في معادلات العالم المتنمر والقتيل وهو يسفك على قارعة الطريق، لكن الباص يبتعد، يناور في مساحة الشوارع ويدوس على آخر الأحلام، أحلامي حينما تموت الزهور والدفلة واليوكالبتوسة الوحيدة في هذا العالم وعندما تطأها الخنازير البرية الراكضة بسرعة من خلال حياتي.

المياه كانت تندلق من السماء، كل جسد راحيل كان مبلولاً. كانت بحاجة إلى الدفء والخشب والفحم والمدفأة من أجل إزالة الأدران عن جسدها البلوري الذي لوثته الأمطار. كانت السماء تمطر علينا فقط أنا وجدتي وراحيل..

الفصل الحادي عشر

طريق طويل وعواء يشبه عواء الذئاب حينما تجوع ولا تجد فرصة لالتهام السخام والشحم البري والأوز والخرفان. طريق طويل يمر عبر مقابر الشيخ معروف والأنسنة الميتة والبول البري وهو يرشرش القبور الآيلة إلى الانحطاط.

يسير بنا الباص في غائية مدوية وألتف على عباءة جدتي مثل نسناس صغير. أصعد إلى الرأس واستقر هناك وتقول لي إهدأ يا ابن الكلب فالطريق طويل والزاد قليل ونحن في البدايات الكونية الأولى لرحلة الألف ميل.

يمخر الباص بحراً متلاطماً من البؤس والفقر والجوع والعري والاشتهاء لقضم كيكة صغيرة. اشترت لي جدتي سمسمية وسميط مدور. كنت آكل وألتهم الطعام بشهوة غريبة لا تعادلها إلا شهوة الموتى من أجل أن يتبرز الآخرون عليهم.

زرنا في ذلك اليوم أبي في مقبرته. انحنت جدتي وبكت بمرارة وفي الأرجاء رجال يقرأون القرآن وآخرون يتبرزون أو يبولون بمحاذاة القبور. عالم من الصمت لا يمزقه إلا الدوي الروحي لنا ونحن نلتف على أجسادنا العارية مثل نبتة برية. دوي ملهم أيها النائمون في ارتخاء العيون والجفون وأسبال الوجه البري.

كانت جدتي تبكي فيها أخذت أنا أتلمس القبر. كنت أبحث عن الأب المتخفي عميقاً في التراب. يا لها من سخافة عارمة أن تموت. تلمست الموت للمرة الثانية في حياتي وكان موتاً غائياً وغريباً وملهماً. لم أكن أحس بأبي ميتاً، إنما يقبع هناك. كان السبب في خروجي إلى العالم القذر والمتوحش. رماني في بوتقة الصهر الكوني ومنحني البكاء والألم والرغبة في الانتحار.

كثيراً ما كنت أفكر بالموت. لم أكن أشعر برهبته العظيمة والمدوية. كان الموت يلتف حول جسمي في أماكن وأزمنة عديدة. أزمنةغريبة ليس فيها ساعات ولا دقائق ولا لحظات. أن تعيش في الزمن المتوقف فتلك مأساة لأن الوجع سوف يستمر والاختناق يبقى يتصاعد إلى النهاية ولا يريد التوقف. كنت أتحول في المقبرة إلى كائن غريب في هذا العالم.

استمر في خلوتي الشخصية. استمر في الحياة بدفق غريب منحني إياه الموتى والمجروحين والمرضى المصابون بالسفلس والدزنتري. كل بغداد كانت تعاني من الدفق الحلمي فوق المقابر، لكن أبناء القحبة (الفيترجية) كانوا يتبولون على القبور ويخرون خرياتهم الكبيرة أمام الشواهد. جدتي بعد أن فرشت عباءتها ونظفت الشاهدة من كتلة براز أحدهم. تنوح، يا للنواح الغريب، يا رب يعقوب والأسباط. وتستمر في دفع الدموع متسلسلة وطويلة وعقد من العقارب تلسعنا كل لحظة.

(اذا ضاقت الصدور عليكم بزيارة القبور). أحببت القبور. أحببت هذا الصمت والرجال الذين يرمون بهرموناتهم إلى الأرض. كانت المقبرة وكراً سرياً للفرخجية والفروخ والدودكية. القبور عالم وثني متعدد الانحناءات والمساحات والقدرة الوحشية على ابتلاع كل شيء. لذلك يتبرز الفيترجية هنا وكل أبناء السبيل و يسكر الفقراء. رجال الدين يقرأون الآيات على القبور أما الفرخجية فيأتون في الليل وفي النهار من أجل إفراغ شهواتهم.

أعجبتني حياة المقابر. أعجبني أن الجميع يتحرك دون مساس بالآخر وبصمت وتؤدة خشية إيقاظ الأموات من السبات لا الموت. كنت أتلمس قبر أبي لكن دون أن أحنو عليه. لا أدري إذ أني لم أشاهده. لم أشاهد الأبوة بمعنى الكلمة وما تعنيه. عالمي كان متكوناً من جدتي وراحيل. إلا أني كرهت الأب الذي قذفني في هذا العالم. كان يريد أن يستمر في الخلود، في الرغبة العوراء للاستمرارية الحيوانية بأي حال وشكل.

رماني نحو الموت الجذري الذي ينام في عروقي الوثنية وأنا أهبط السلم الوحيد في هذا العالم، قبره والأرض التي أكلته بصحبة الديدان. كانوا يقولون لنا، كلنا سنموت وكلنا سيأتينا منكر ونكير وعذاب القبر. يا للعنة إلا يكفي عذاب العالم الأعلى. أبصق عليكم أيها الملاعين والملاحدة والمناكدة والمبعوصين والرزامية والحلولية والخصونجية واللمبجية، فأنا الوحيد الذي أعلن تمردي على الموت بالرغم من أني أشتهيه بقوة ولعنة أبدية.

توحد غريب وفوضوي وأنا أمسح القبر. لم أكن أفهم الموت بالمعنى المتعارف عليه. كنت أفهم أنه ليس انقطاعاً ماساوياً عن التكوين الحياتي للمجرات. كنت شيئاً كونياً، لا إنسانياً وأبصق على الديدان التي تريد التهامي وكأنني وجبة من المعكرونة الطويلة الممددة على الأرض. سخافة كبيرة وملعونة وأنت تتآكل في داخل التراب ثم تشتم جيفتك وتهتكك وضراطك ودمك المتخثر.

لم أفهم الموت بصيغة الماضي ولا الحاضر. لا أفهم الموت نهائياً إذ لا أستطيع التصور أنه يمكنني أن أموت. لا. لا يمكنني البتة الانتظار حتى الساعات الأخيرة من اهتزازي الكوني من أجل أن اموت وتموت خلاياي وأصابعي. لا أستطيع التصور أنه يمكن لي في يوم ما أن أنام مثل هؤلاء الكلاب.

سأعترض وسابصق في وجه ذلك الأرامي وأقول له ابتعد أيها القواد لأني أرتعب من الموت ويقشعر جسدي مثل زهرة. مثل سوسنة مثل شجرة

يوكالبتوس وسوف أسافر في أرجاء الكون بسيارة الموسكوفيج وأمنح العاهرات ألقاباً تفخيمية لأنهن الوحيدات في هذا العالم اللاتي يمتلكن الحصانة البرية والموت شبقاً إلى وجهك يا أبي النائم في الأرض وبين التراب واللحم المسلوق وقطع الخبز.

تخرج جدتي بعد نوبات البكاء الهستيري والمسعور قرص خبز المريس وألتذ بطعمه الحامض والجبن الموشى على الوجه. آكل بنفس مفتوحة وأبول على كل المقرئين في المقابر الأسطورية لأني الوحيد الذي يمتلك إحساسه بالفراغ والزمن والتمرد. كنت أشتهي أن أتحدث معك أيها الأب لكن الكلاب تعوي والأرانب تتقافز وفي يدي صقر أفلته باتجاه السماء وأبقبق مثل ضفدعة هشة وميتة على أبواب العالم.

انتهت جدتي من البكاء، أكلنا كل قطعة المريس ثم مسحنا أفواهنا بطرف العباءة وسرنا بين القبور. كنت أريد أن أخري على القبور وعلى الشموع الموقدة في النهار الشاحب. لكن جدتي منعتني إكراماً للآخرين. من باب مقبرة الشيخ معروف انسللنا إلى علاوي الحلة ومن هناك أخذنا الباص الذي استغرق فينا الزمن الفائض إلى بيت عبد الرحمن.

ارتعشت في سري للاسم. أصابتني قشعريرة صغيرة لكنها حاسمة واهتز كل كياني المتوحد فوق شواهد القبور الحية. كنت اشتهي الزمن والفراغ الكلي ونظريات الانحطاط البدني والعقلي. مرة أخرى إلى بيت عبد الرحمن، يا للعنة. وصلنا البيت. دخلت جدتي وسلمت على العائلة. جلسنا في المطبخ ورائحة الدجاج المقلي تنهشنا من كل جانب.

كنت أعوي مثل كلب على العصافير في الحديقة الصغيرة. كل أبناء عبد الرحمن كانوا حاضرين وأختهم السمينة ولحمها المتهدل يذوب مثل شمع البرافين. صبوا لنا الطعام. أكلت مثل مشوه، مثل قارئ مناقب ضرير. بحثت عن اللحم في المائدة والصحن والليل والبهرجة الخفية لفمي الملوث بالمرق. جدتي لم تتناول لقمة واحدة.

جاء عبد الرحمن بعد انتهاءنا من الطعام. أخذت جدتي تحدثه عن أن لا مكان يلمنا إلا بيته. كان أرعناً وسفيهاً عندما رفض الحب، رفض الاستئناس المقتول والمبرمج والملتاع أبدياً. رفض عبد الرحمن الذي كان يضع قدماً على قدم، بقاءنا.

أخت جدتي توسلت به. جدتي صارت تبكي بأنين ملهم ومتواصل. البعد الرابع للنظرة المتوحشة البادية بخفوت على وجهها كان يتلوى بأجنحة الأرخبيلات البحرية وأشجار النخل والسمندرات.. كانت تبكي بصمت وانهمرت وأحنت رأسها لتبوس يده، رجله، نعله. كانت تتوسل السقف واللقمة وأشياء الدفء وآلياته في المكان.

- تقول لقد تعبت من الترحال بين المدن. تعبت من الاستضافات المشوشة في مراقد الأئمة والزيف الحاد لعينيها المليئة بالدموع.

عبد الرحمن كان يجلس مترفعاً. قدماً على قدم وصدره مرفوع ووجهه يشبه النعال البلاستيكي. هناك كانت مرحلة للالتياع وكنا نجتازها بأصابع وأقدام هشة. قلبي لم يعرف سبب الخوف من الأشياء المحيطة. ترتشف جدتي من استكانة الشاي المعد على الفحم ثم تكمل مشوار عرضي للكره.

عبد الرحمن كان حاداً، ثمة قسوة مرة وملهبة للقلب ونظرات خرائية تنتقل من عينه إلى وجوهنا. غاب القمر فجأة، ضعنا في المساحة المتبقية من الزمن والفراغ. قلبي وقتها كان هلعاً، لا يمكنني تصور اجتراحنا العذاب مرة أخرى. اكتفيت من هذا العالم ببكاء وتوسلات جدتي.

قال عبد الرحمن بعد مرأى البكاء المسفوح والمتعلل بالمطر والدمع الآسن القادم من المحيطات المجهولة، إنه سيقبل بعيشنا معهم. ليس معهم تماماً لكن في البيت، ليس في البيت تماماً لكن خارج البيت، ضمن السياج الخارجي للمنزل. قد يكون المكان نسبي وملتهب، ربما تحت مطر هائل كان يقرقع على شفاهنا المتيبسة والمجروحة.

كنت أكرهه من أعمق أعماق روحي، هذا العبد الرحمن قال بزمجرة ذكرتني بقصص الكلاب الهاربة في البراري إنه بقسوة سيمنحنا المكان فقط. أما المعيشة والمصاريف فهو لن يساعد جدتي بفلس واحد، رغم أنه كان من أغنى أغنياء بغداد وقتها. فرحت جدتي بالسقف الأخير في هذا العالم. سقف؟ يا للعنة. حبور عميق. على الأقل توفر لنا سقف من الهشاشة إلا أنه يبقى في كل الأحوال شيئاً رائعاً.

كنت أراقب جدتي. أراقب وجعها المزمن وهو ينحت آخر التعرجات على وجهها. بتنا ليلتنا الأولى في المطبخ، إذ لم يمنحونا غرفة. علينا تدبير أنفسنا في أرجاء البيت بأية وسيلة. كان لعبد الرحمن أربعة أبناء وابنة واحدة بالإضافة إلى الزوجة أخت جدتي.

بقلب مكسور وهوس ارتجالي نمنا. في منتصف الليل كانت الفئران تجول في المكان بالإضافة إلى الصراصير الحمراء. منظر الصراصير كان يؤلمني، يمزقني. من أكثر الأشياء التي احتقرتها في حياتي هي هذه الصراصير الملعونة التي كانت تحيل دفء المكان إلى قشعريرة. لم أشعر بإلفة مع المكان،. قلبي وحبي كانا يمنعاني من النوم وأنا اتذكر راحيل وقداسة المستشفى التي كنت أبيت بها والخالية من الصراصير والبق والفئران.

المطبخ بالرغم من كل شيء دافئاً.. شكت أخت جدتي بعض الهواجس والقلق لجدتي، عن الأبناء وبعثرتهم للنقود في البارات والمقاصف والقحاب. عالم غارق في السكر والاسترخاء على أفخاذ القوادات والعاهرات المترنحات. الأب نفسه كان ذا ماض هو الأشنع. كان سائق شاحنة ويمضي جل أيامه مع العاهرات في البصرة والناصرية والعمارة وملاهي بغداد. في بعض الأحيان كانت أخت جدتي تبكي لكنها تبكي بتعال.. كانوا عبارة عن جثث هي وأولادها، من الأصغر إلى الأكبر وعبر الابنة السمينة التي تشبه كركدن أو وحيد قرن بأنفها المعقوف.

الابن الأكبر هو الوحيد الذي كان متزوجاً. لزوجته التي لاحظت منذ

البداية في عينيها، هوساً خفياً وإرخبيلياً لشيء ما. كـان اسـمها عاطفـة. شيء مذهل وغريب يتفجر من عينها وحتى أنفها المعقوف قليلاً كـان يـشبه النبتـة الخضراء في عري وقحولة المكـان. منـذ اللحظـة الأولى كـان هنـاك تعـاطف غريب معها. إحساس ينبني بين الضلوع الهشة وهي تـتحطم أمـام النظـرات الأولى. هي كان من يساعدنا. قدمت لنا الطعـام والـشاي واللـبن والعطـش الشبق المخبوء عميقاً بين عينيها. كان هناك بحر غريب، بحر مملوء بالـضباب والكثافة البخارية يؤطر وجهها الأبيض وشعرها المائل إلى الصفرة.

كنت في داخلي أرتعـش ارتعاشـات متتاليـة ويبقـى حمـضي النـووي متناثراً في كل مكان. مـع الحمـض كانـت الخـصية هـي الأخـرى تـرتعش بأصالة وألم غريب، وبالرغم مـن عاطفـة، فقـد كرهـت هـذا البيـت وكـل الأشياء السخيفة التي تضمه بدءاً بالأب وانتهاءاً بأخر عضو جنسي فيه.

لم أهرب إلى المتاهات بعد لكن الآلهة كانت قد هربت وغادرت العالم من أمد بعيد. كنت أتوسل روحي أن تعتاد المكان. المكان ضـيق رغـم كـبر البيت وتطاول مساحاته. بيت كبير لكن ضيق من الداخل بممرات مفتولـة وحيطان مطلية بالأصباغ الخرائية. كل ضحكاتهم كانـت صـفراء وهمجيـة بمن فيهم الشيطان الأكبر، الأب وكل الأبناء والابنة باستثناء عاطفـة. ربـما لأننا الغرباء وسط هذا العالم الشـرس الذي يشبه الكوسـج البحـري وهـو يلتقط بقايانا ليحيلها إلى أمعائه ومصارينه، يا للهول.

للمرة الأولى في هذا العالم أكتشف حيـاة ليليـة غريبـة تجـري في هـذا البيت الملعون. الابن الأكبر غزا زوجتـه عاطفـة في منتـصف الليـل. كنـت أسمع النبضات عبر سقف المطبخ. الـصراصير والجنـادب والفئـران وكـل العالم كان ينـصت إلى الـرهس والـضـربات واللوعـة المـشفوعة بالأسـى. تضمني جدتي إلى قلبها الحار والواجم وجوم الخراتيت وهي تعـبر الأنهـار الاستوائية. حب مسربل باللؤم الخبيث وازدراء العالم الغفـل وأنـت تطيـل النظر وتسمع آخر الرفسات. قلت لها في تلك الليلة:

- ما هذا يا جدتي، هل المطر يضرب السقف أم شيء آخر.
- قالت إنه الشيء الآخر.

وبقي هذا الآخر شيئاً سرّياً وغائماً وملتفاً بحواسي وجنوني المضطرب.. أخذتني عاطفة بعد أيام من تواجدنا معهم في البيت، إلى الحمام، نزعت كل ملابسي. خجلت وتواريت خلف البخار المتولد من أرضية الحمام. أمام طاس الماء الحار وتختة متهتكة جلست في عريي الغريب.

كنت أموت وأنا أمام الانسلاخ من العواطف وتشكل انتباهة الورد الملون على عقصة شعرها. ينكشف جزء من فخذها، فخماً وأبيضاً مثل الحليب وسكر القند، مثل حلاوة طرية ودبقة بفعل الفراغ والبخار والماء المندلق من الثريا. حليب في كل أرجاء الحمام. اختلست نظرات عميقة إلى البياض لكن عضوي لم ينتعض ولم يرفع هامته.

تمد عاطفة يدها وهي تمسك (الليفة) وتمرر أصابعها على أعضائي. الدهشة تداهمني واللعاب يخرج من فمي مثل مصاب بداء الكلب. أخرج من الحمام وأستقبل عالماً مذهلاً يختلف كونياً عما كنت أشعر به قبل دخولي.

مع عاطفة تشكل شيء ما. شيء غريب. أخذت تسرق من أجلنا، في بعض الأحيان، قطع لحم مطبوخ تلفّها بكيس من البلاستيك وترميها لنا فيما نحن نجلس في الطارمة الخلفية تحت اضمحلال شمس الشتاء. مذاق اللحم كان رائعاً ومدهشاً. تطلب منا عاطفة أن نتخلص من الكيس بأية وسيلة وأن لا تتحدث جدتي عن الموضوع لأي كان.

عيون جدتي مليئة باللوعة. لم تأكل اللحم. عاشت حياتها كلها طولاً وعرضاً مع الألم حتى أصبحت لا تتخيل عالماً من غير وجع وتوجع ولؤم وألم ومحنة وموت وبكاء وروح خفي يجول فوق رأسها يمحضها الصبر. كانت تقول أن الرب كتب عليها أن تكون حزينة طيلة حياتها. قسمة ونصيب. يا للعنة، كنت أخاف القسمة وهذا النصيب، لكنني أغرق فيه الآن. في بعض الأحيان تسأل جدتي الله، لماذا يسلط عليها العذاب وحدها

دون العالم. يبدو أني اشتركت معها في هذا المصير وأصبحت مشاعري هي تركيبة غريبة من الوجع والغصات والاندياح بعيداً في عالم الأحلام.

أحببت عاطفة بشكل جنوني، مرعب، مخيف. صرت كثيراً ما أزورها في الأحلام. نسيت لبعض الوقت راحيل. نسيت في سخافة ودفء المكان والصراصير، عينيها اللتين كانتا تقولان لي اهرب في كل الاتجاهات. حينما نمنح بعض الخبز والشاي الساخن وإن كان من فضلات الآخرين، كنت أشرق بهيجان متورد. أسخن قطعة الخبز على المدفأة وأحلم بأشياء مجنونة.

لاحظت في أيام تالية، بقعا تلون وجهي. لم تأخذني جدتي إلى طبيب. لم نكن نملك المال الكافي. أرادت جدتي الاستدانة. في الحقيقة أرادت شحذ المال من عبد الرحمن. لكن المنيوك، رفض بحجة أنها لا تملك مورداً لتسديد الدين. سرقت عاطفة بعض القطع النقدية وأطلقتنا في الغابة مثل عصفورين مبللين بحماقة الزمن وغائيته.

قررت جدتي أن نذهب لا إلى المستشفى ولكن إلى السيد قمر فعلاجه أرخص. بعد أسابيع من النوم في المطبخ ضجر منا عبد الرحمن وقرر أن يبني لنا سقيفة خارج المنزل- فوق (السبتتنك)-. كان كوخاً من صفائح ألمنيوم الشاحنات الفائض عن الحاجة. وضعنا في البوابة بطانية عسكرية لكي نتقي البرد. أما النافذة الصغيرة والوحيدة والمرتفعة، فكانت تغطى بورق المقوى.

في العاصفة، الريح تجتاح وجوهنا وأحلامنا وفي المساء تخربش الفئران بحثاً من أجل اكتشاف الجنون. لم يزرنا أحد في هذا الكوخ. حتى راحيل لم تأت. أخت جدتي هي الأخرى لم تأت ولا أبناؤها. كنا مثل شيء مقزز ننام مع الصراصير الخارجة من فراغات السبتتنك لكن الإنفة الجبارة لجدتي كانت هائلة وتكيفت بسرعة مع المكان. كل ليلة كانت تغزونا الفئران والصراصير الحمراء. كنت أبكي بحرقة وأنا في فراشي. حتى الحشية كنت أحسها مملوءة بهذه الحيوانات والحشرات وغادرتني الأحلام.

قضينا بقية الشتاء في الكوخ مع الوجع والترهل لمشاعرنا واندياح الريح فوق رؤوسنا لكن جدتي لم تستسلم. كانت تغسل الأواني في الكوخ ونطبخ ونأكل ونغسل وجوهنا بماء تسخنه جدتي على (لمبة) من صنع الصين. صارت حياتنا في ذلك الكوخ مكورة ومتجمعة في مكان واحد. كنت حينما أنام أغرق في هلوسات غريبة. مرات عديدة شاهدت الملائكة وهي تحلق أو تقف فوق رؤوسنا. كانت تحمينا من البرد والجوع واللؤم في هذا العالم.

مع بداية الشتاء الجديد أدخلتني جدتي إلى الروضة بعد أن استطاعت الحصول على بعض المال من صبغ العباءات بلون (الجويت). كانت سيارة الروضة تأتي كل صباح فأصعد (الباص) وأنا متلفع بملابس كبيرة القياس اشترتها جدتي من البالة. كنت أحمل في يدي دائماً كيس الطعام الذي غالباً ما يكون قطعة من الصمون معبأة ببيضة مسلوقة. كان الأطفال في السيارة غالباً ما يسرقون طعامي وكنت أنزوي في آخر الحافلة وتحديداً في الفراغ المتكون بين ظهري كرسيين.

عندما اكتشفت هذا المخبأ غدا العالم أكثر صغراً وأكثر جمالاً. تعرفت بطريقة ما على آنسة صغيرة تدعى ياسمين. صرنا أنا وهي ننزوي دائماً في المخبأ السري. القبلة الأولى في عالم التوحش كانت رائعة. لا أدري كيف انحنيت ووضعت شفتي على وجهها. في المخبأ السري بين الكرسيين والسماء المثلثة والظلمة الضعيفة والإنارة الأخف، منحتني ياسمين شكلاً آخر لعالم الانحطاط والترفع. كنت أذوب في سحر عينيها الغريبتين. لم تكن خضراء ولا زرقاء ولا سوداء إنما شيء يمثل جوهرة مكتشفة فكنت أرتاع وأنا أنظر إلى العالم عبر تلك العين.

كل صباح كنت أنتظر ياسمين وأنا بحالة من السبخ والمطر والبلل والانبهار والتبول من الرعشة السرية وهي تضرب كل مساند خيمتي الهزيلة، خيمة الرعاع والرعاة. حينما تصعد (الباص) كنت أتلقفها مثل زنبور

يطن ويدور حول زهرة أو كيس من العسل. أمسك أصابعها التي تمنحني إياها ونركض سريعاً إلى المخبأ. هناك كنت أكتشف العالم وهو مليء بأزهار ملونة. نسيت الأصحاب والضحكات وكانت ياسمين تقشر لي برتقالة كل صباح من أجل أن لا يسقط المطر ذلك اليوم. ملابس ياسمين كانت رائعة دائماً، لها أب وأم حقيقيان ولها مرحاض لا تخرج منه الصراصير.

كنت أكره وثني لكني نسيته وصرت أتعبد في محراب ياسمين وأنثر النذور والتقدمات لربها الجميل الذي يمنحها كل يوم برتقالة ووجبة شهية وقليلاً من العسل مع القيمر. تذوقت (اللفة) الشطيرة، الشهوة والخبال وأنا أمسك بها. كنت أنظر لها وأصابعي تذوب في الصمونة وحينها تنغرس الأصابع كان القيمر يقفز خارج النص وخارج إطار الصمونة فألحسه وألتهمه وأتمضمض به كما يفعل المؤمنون حينما يتناولون العرق لأول مرة.

اللحسات الكثيرة كانت تمتد ليس على الصمونة فحسب إنما لأصابعي المليئة بالرائحة الخدرة. كنت أتشمم أصابعي وأغرق إلى الأبد في تهويماتي العجيبة وأتخيل روحي تطير نحو ملاقط النور والبهجة. مع مرور كل يوم كان يكبر كيس ياسمين ويمتلئ بالحلوى والتفاح إضافة إلى البرتقال ولفة القيمر. ومع تلك اللفة كنت أكبر وأنهار وأتلعثم وأرتعش وأتخضب وأتلوى وأتساقط مثل أحجار الدومينو.

نسيت في ذلك الارتعاش وجه ياسمين ووحشتها وهي تراقبني وأنا ألتهم اللفة بقوة ملائكية وجبروت محير. لم تكن تتكلم، كانت تمنحني نفسها بسهولة. لم أعرف لماذا كانت تلتصق بي وتتماوج وترتعش حينما ألمس أصابعها وأنا أتناول اللفة منها. أعجبت كثيراً برب ياسمين، أعجبني كونه ليس أنانيا وليس مثل هذا العالم الذي أماتني من الجوع والبرد ولم يمنحني إلا الملابس العتيقة والكبيرة القياس. فكرت فعلاً أن هناك أكثر من رب، ربما واحد أو اثنان وربما ثلاثة، وأن بين هؤلاء الثلاثة من هو مختص بالبائسين مثلي، لكن هناك ثمة شيء مغاير.

كنت أشعر بالاختلاف بالمغايرة. لم أكن أشبه العالم ولا العالم يشبهني. بعد تناولي اللفة كنت أقدم قبلة مزبدة إلى ياسمين. كان يعجبها أن أقبلها وكنت أضغط فمي على وجنتها وأحياناً كنت أقبل شفتها. لم أعرف كيف تكون القبل لكنني كنت أبوس الوجه والفم والشعر والرقبة في دهشة غريبة وكانت ياسمين تمثل ذاتها بالأم وأنا الأب والأطفال.

بعد وصولي إلى الروضة كنت أشعر بالطاقة في جسمي. نافورة من التهيج والمشاكسة تملأني، فأضرب الأصدقاء وأخرب الصف وأبعثر الأقلام. في إحدى المرات أردت أن أطعن أحدهم بقلم الرصاص لأنه أهان ياسمين، لكن الكلب هرب فلحقته وحينما صار خلف واجهة زجاجية حملت كرسياً صغيراً وقذفته باتجاهه فتهشمت الواجهة وتبولت في بنطلوني. كان قلبي يرتعش والزجاج يغطي الأرض والكلب يصرخ برعب وقد انزوى متحجراً على نفسه.

جاءت المعلمة وبهرت حينما شاهدت الخراب الكبير وبقع الدم فانهارت إلى الأرض. تبولت مرة ثانية وساح البول على الأرض. جاءت المديرة والفراش وسائق (الباص) والجنائني وكل الهيئة التدريسية. جاؤوا كلهم، بقضهم وقضيضهم مسرعين، هائمين، مشوشين، مضطربين وحينما اقتربوا مني صفعني الجنائني والمديرة ومرشدة الصف. كنت أتبول واقفاً. ليس من الخوف إنما من الوجد ومن أجل قرص وجه ياسمين.

كل المساحة التي أحاطتني كانت مليئة بالبول وأردت أن أخري أيضاً لكن القبضات التي مسكتني منعتني من الاسترسال في مشاهد الوجوم. في غرفة المديرة وجهت الي الصفعات مرة أخرى من كل جانب وبعد يومين من الحادث طردت من الروضة وتبدد آخر حلم جميل برؤية ياسمين والتهام أصابعها المليئة بالقيمر والعسل والحب.

بعد طردي بكت جدتي، بقوة الوحدانية والتبدلات السماوية والأرض التي تمنحنا الحب لأول مرة. بكت جدتي بعاطفة الاشتهاء

والانزواء والتبعثر والتعطش والشلل والرغبة المطوطة من أجل مستقبل باهر. كنت أقول لها دون أن أتكلم. بئس ما انتظرت يا جدتي، لأني لن أستطيع التحليق مثل طائر العقعق ولا الفخاتي و لا الطيور الداجنة. كنت دجاجة متهرئة ومسلوخة الجلد، والريش تبعثره الرياح الشتوية المجنونة وهي تضرب سقف كوخنا الذي يسميه عبد الرحمن بـ (الكنج).

كنجي الوحيد في هذا العالم الذي يجرى دائماً على رؤوسنا مطر وبق وذباب نائم. كنت هزيلاً ومشقق الأصابع ومهترىء الأشواق. كنت أحمل كل همساتك يا جدتي. همساتك وبردك وقشعريرة المرض والارتحال في المنافي الأرضية من أجل أن تشتري لي حقيبة مدرسية كنت أمزق منها كل يوم جزءاً.

مرت عدة أيام لم أشاهد فيها ياسمين. هربت من المنزل تائهاً في الشوارع القريبة محاولاً استنطاق التذكرات المتقطعة من أجل معرفة بيتها. أتذكر أن منزلهم كانت تحيط به أشجار النارنج والعرموط والسفرجل والفالوذج، وعيني تحيط بها أول رغبة حيوانية في اضطراب التمثلات الإلهية. جنس مرغوب ومكتشف حديثاً وفم لم أشاهد مثله في العالم الغريب، فمها مثل شطيرة المربى شهي وفاتر، وعيناها مثل قطة صغيرة أضاعت المواء في طرقات العالم المتسافحة.

من أعلى شجرة حياتي يقطر شيء ما لم أعرف ما هو لكنه يشبه الرعشة السرية للسمكة حينما تتلوى أمام صياد ماهر. لم أعرف عنوان البيت بالتحديد. سرت في الشارع الطويل الملاصق لكوخنا. هجرات الطيور كانت تمخر السماء وهي تتجه إلى أفلاك الكواكب، برد جاف يجول في السماء ويكتسح العراق. في البحر المتلاطم الموج، كنت أنا النوتي الوحيد الذي يحمل مشعل النور إلى الآلهة العراقية المتراقصة على نار التدفىء.

حاولت ونجحت في تذكر سير الحافلة. سرت في الطريق وفي النهاية فوجئت ببيتها. رعشة كبيرة هزت ساقي، رعشة لذيذة وأنا أكتشف البيت

بعراجينه وسحره والتواءه واستمالته. فوق البيت كان يرقص البوم والحمام والحيوانات الذكورية كلها. مررت من أمام المنزل سريعاً، مخضوضاً وخائفاً وبعد ابتعادي بخطوات عدت مرة أخرى. بقيت زمناً لم أعرف قياساته ودقائقه وأنا ألف مثل شيء جريح يريد البلسم السحري من ربته الخاصة، لكن الربة كانت قد غادرت عبر الموانئ البحرية وضاعت في طرقات المياه والأنهر والبحار والمستنقعات.

كنت مشبوكاً بوهم التذكر. كل لحظة تمر وأنا على بابها، مثل حيوان رضيع أضاع حشفة الأم. أمضيت أمام منزل ياسمين الكثير من الوقت. تأملت أشجار حديقتهم وخراءهم وبولهم وسبتتنكهم و(أنتين تلفزيونهم). الأخ الأكبر لياسمين كان مصابا بالصرع والجذام وكانت الأم تدفع كرسيه فهو بالإضافة إلى الأمراض الآنفة الذكر كان مصاباً بشلل الأطفال. الأخ الصغير كان هو الآخر مريضاً وكان مرضه يتعلق باندفاع بيضاته خارج كيس الصفن، حاولوا أكثر من مرة إجراء عملية جراحية له من أجل إنزالها لكنها وفي كل مرة تفشل، فصار يزحف على أربع وفي أحيان كثيرة، يصرخ بشكل مفاجئ ويريد أن يلقي بنفسه في السبتتنك.

كانت العائلة كلها تعاني من الأمراض إلا ياسمين، الوردة المزهرة واليافعة والمضطربة في هذا الهوس القصديري. كنت أشفق على ياسمين، لا بل أتعاطف معها. في الحقيقة لا أدري إن كنت أتعاطف معها أو أشفق أو أني أحبها. كانت تمثل لي شيئاً كبيراً. حارة، ساخنة دافئة، ملتهبة وكنت أتقزز من قبلاتها وبوسها الكبير بفمها الذي تفوح منه دائماً رائحة السمك. ذكرى ياسمين انمحت فجأة.. بعد نسياني لها، أخذت أذهب إلى بيت جارنا حيث تعرفت على الابن الذي يصغرني بسنوات، كان اسمه إبراهيم. له أختان، الكبرى اسمها ساهرة والصغرى تدعى هادية.

هادية كانت مغرمة بحكايات الأشباح والجن وكان شكلها بالرغم من جماله الفاتن ينطوي على شيء ملغز ووثني. شيء يمكن أن نطلق عليه

لمحات وشظايا أفكار شيطانية. قلبي وقتها كان فارغاً من الحب ومتوحداً. لم أذهب لبيت جارنا من أجل البنات- بالرغم من أني كنت أشعر بتوحش الوحدة التي كانت تهزمني كل يوم وكل ليلة- بل من أجل إبراهيم. في اليوم الأول سرت في منزل العائلة وشاهدت الأختين. كانتا تعملان في المطبخ الكبير وتعدان الصحون.

رائحة الطعام كانت محفزة للعقل، مدهشة وأنا أقترب محاذياً الرائحة والبق الشتوي والأنامل الطويلة التي تعد الطعام وتحضره. المنزل المبهم مليء بالعاطفة السمجة والانثيال البراق، لعبنا أنا وإبراهيم لعبة المصارعة. كان ينبطح دائماً على بطنه وألوي ذراعه وأضعها خلف ظهره. بقينا نلعب حتى وقت متأخر ثم جاؤوا بالطعام.

الدهشة كانت كبيرة وأنا أرى الكم الهائل من الطعام واللحم الذي كان يرتعش بيدي فيما أصابعي تنغرس في الشحم المطلي بلون الصنوبر. أعجبني المنزل كثيراً، كان واسعاً ومدهشاً وتتوسط سقف غرفه ثريات كبيرة وملهمة. التأجج العاطفي لي كان يتولد من هذه المشاهد. كنت اختلس النظر إلى الأختين بين الحين والاخر. ساهرة بدشادشتها المصنوعة من قماش البوبلين وهادية بثوب طويل مصنوع من القطن لكنه مشقوق من الجانب.

أحببت هذا المنزل وأحببت ما يساعدني على الإلهام والتماثل والتمظهر والانسحاق الكلي في الجو المليء بالتفاهم والنظافة. كنت أبحث بعيني عما يمكن أن اسميه انثيال العاطفة والذهن. الدفء كبيراً. المدافئ تنتشر في الغرف والممر الداخلي، ويتحول كل شيء إلى ثيمة روحية ليس بالإمكان التخلص منها حتى وإن غادرت إلى النهاية.

أخذت أشعر بالحسد من إبراهيم إذ منحه ربه كل شيء. الطعام وعدم رؤية الصراصير والجنادب والبق والبرغوث والظلام والشهقات والالتياع. كان له حضن دافئ يتشكل من الأم والأخوات، حضن واسع

وعميق يمكن أن يمنحك الدفء. حضن يمنع عنك تيارات الهواء الباردة واللغو والاضطراب والعدم والتيهان في السماء بحثاً عما هو كائن جميل له فراء القطط الناعم.

أخذت أقضي معظم وقتي في بيت إبراهيم. كنت أصحو باكراً وأذهب إلى بيتهم حيث تفتح لي هادية الباب فيما نعاس الصحو من النوم لم يزل يحيط وجهها وكل كيانها. كانوا ينامون إلى وقت متأخر كل يوم وكانت هادية تدخلني إلى الصالة الداخلية وتوقد لي المدفأة ثم تغادر مع هالة من السراب الفضفاض والعاطفة المتأججة في روحي.

أصبحت هادية تشكل بالنسبة لي هاجساً مبكراً. أخذت أتذكر وجهها دائماً حينما لا أكون في منزلهم. كانت رقيقة للغاية، عذبة، مضطربة وشعرها مائل إلى الحمرة وفي الشمس يتحول إلى احمرار فاتن. في أحيان كثيرة كانت تمنحني- هي- للحظات فرصة أكثر ثراءاً من دقائق طويلة من الحديث. لم تكن تحب اللعب حينما كنت أدعوها إلى البقاء في الصالة. كانت تقف عند باب الغرفة وأثر من ابتسامة تائهة تضيع في الجو المشحون بخراب روحي.

كنت أنتظر ساعة كاملة أو ثلاثة ريثما يستيقظ إبراهيم وفي أحيان كثيرة كان الأب هو من يصحو مبكراً ويشاهدني مع اضطرابي. كان يتفاءل بوجودي كون أول وجه يشاهده هو وجهي. وجه يتيم. اللعنة. لكن وجهي كان يغرق في التماهي والضياع والابتعاد عن ذاتي حينما تضيع في أسئلة الأب الموجهة لي. كنا نعقد صفقات سرية للغاية وشخصية أنا والأب. أمنحه وجهي باعتباري يتيماً مقابل أن يسمح لي بالبقاء حتى وقت متأخر.

أصبحت جزءاً من البيت، جزءاً من مشهد العائلة والثريات والتحف والمزهريات وباقات الورود وصور الزعيم ومجلات نائحة ومتناثرة. أخذت أخرج معهم في نزهاتهم. تفاؤل الأب بوجهي كان

يمنحني فرصة أكبر للغرق في أحاديث العائلة. حينما يكون الأب في المنزل تنزل قشعريرة في بدني، قشعريرة كبيرة ونوع من الخوف والرهبة والابتئاس. كانوا يخافون الأب. أما أنا فكنت أشعر بالضيق يخنقني. عندما يخرج الأب يتبدل العالم. الظلمة والنظام والهشاشة المصطنعة كلها تنقلب إلى حيوات متداخلة أستطيع في تلك اللحظات أن أتلمس طريقي نحو هادية، نحو صفحة الكف البيضاء المشربة بسمرة خفيفة. حتى الشعر الفاحم والمنسدل إلى الأسفل دون عقصات ودون انبهارات كنت ألمسه بجنوني المرعب وأنا أغار من التشيء الواحد الذي يرين على روحي.

مرة واحدة حاولت الاقتراب منها. كنت أريد أن أتشمم رائحتها. رائحة الإبط القوية غير الملوثة بالهرمونات الأنثوية. عري يديها كان يوحي لي برغبات دفينة. حشرجة تصعد إلى فمي بقوة مرنة وفعالة. أردت أن أجعلها جسد مقدس. وجهها كان مملوءاً بأحاديث غير مترابطة لكني كنت ألمح في هذا البحر رغبتها السرية في تكسير الأشياء بما فيها أوانيها الفخارية والأقداح الملونة الموضوعة في خوان بيتهم.

حينما يغادر الأب تتحول هادية إلى هوس كبير. أرنبة تفر في الغابات المظللة وأنا صياد بائس ومرتاع أحمل الجنون إلى هدوء الغابة الكبير. في تلك الغابة كنت أتعثر بخطواتي وكانت هي تضحك من جهلي الكبير. كانت مملوءة بأشياء لا أعرفها لكني أحسها بقوة جبارة ومتمردة. التمرد كان صفتها العليا والهواجس تقطر من شابيب روحها المستنفر. روحها متفردة، صلبة، عنيدة. بارزة، ناهدة، كاعبة..

أخذت مع الوقت تقترب مني. الاقتراب شكل بالنسبة لي دخولاً إلى عالم آخر هو عالم الإيماءات والحركات السرية والغمزات. الملامسة الخفية لأطراف أصابعها أو ملامسة كتفها. منذ تلك اللحظة البائسة والمتوردة ابتدأ عالم آخر. خرجت من عالم إبراهيم إلى عالم الأسكفة الجديدة. عينها كانت تتحدث بلغات كثيرة. بالرغم من أني من برج بابل المقدسة لكن

الآلهة حجبت عني لغات البشر والحيوانات والمخلوقات السماوية.

كنت أريد أن أتذوق بعض الزهرات البرية النابتة على ساقها وفخذها ولسانها وأنفها، لكني أضعت فمي فجأة ضمنه طبعاً اللسان والأوامر الحسية المنطلقة من الدماغ.

مع الوقت أخذنا نقترب من بعضنا، هذا الاقتراب كان مقدساً، ليس هو اقتراب بالمعنى الجسدي للأشياء، إنما هو اقتراب فموي ولساني ومفصلي وشفوي. كانت مفاصلها تئن مثل عجلة مسننة، كوعها عبارة عن لحظة زمنية تائهة في مجهول كبير. في إحدى المرات العارية من الأشخاص، في الحديقة الخلفية لبيتهم. قريباً من قن الدجاج، بعيداً عن التنور، ملاصقاً للصراخ والظلمة والانبعاث، قبضت على يدي فجأة ووضعتها على فرجها.

الفصل الثاني عشر

الجنون ليس علامة على الموت حتماً، أما الموت فهو حسب تعريف الحكماء ضربة مجهولة في المصير أما أنت فلست إلا رقما هزيلا ضمن أكوام الأورام الحميدة والخبيثة.

كنت أرتعش فيما هي تعصر أصابعي. شعرت بالهلع والاضطراب. سحبت يدي بقوة وهرولت إلى بيتنا. في تلك الأمسية أخذت حرارتي ترتفع وشعرت بهلوستي تنطلق إلى العالم الواسع فيما موسيقى الكواكب تعزف اللحن الأخير لنهايتي.

أن تمنحك امرأة متاهتها الكامنة بين الأفخاذ فإن هذا لا يعني الحالة الفيزياوية لها ولا يصفها. إذا أردنا أن نصف تفاصيل العملية فيمكننا أن نقول إنها عملية بيوكيميائية و هذا يتطلب منا أن نراعي درجات الحرارة واتجاه الريح ومحاق القمر وسرعة المد والجزر وفي النهاية، القابلية التطبيقية لفن مجهول حتى الآن اسمه، لمس المتاهة. هكذا تصورت النهاية إذن.

الآن أمتلك وقتاً إضافياً لأصف كومة المشاعر والأحاسيس التي تناهبتني وقتها بالرغم من أن الزمن لم يتعد لحظات قليلة لكنها لحظات مشبعة بكل شيء ضمناً طبعاً الجو البارد والدشداشة التي كانت ترتديها ونوعية اللباس.

هي لم ترفع دشداشتها. وضعت كفي وضغطته على.... ببراءة كبيرة. نوع من الحرارة كانت تنطلق منه. أحسست أن يدي تغوص في هضبة مرتفعة ولينة دون رايات تستقر عليها وأن الزمن يتراجع إلى الوراء والعالم يحتضر. عيوني كانت هي الأخرى ترمش. تخيلت أني أعيش في أوقات الضياع والهزيمة. لكني انتصرت على إحساسي بالتوحد. كان إحساسي هو الآخر يرتعش، يهتز وكأنها سعفة مقطوعة من نخلة برية وحيدة في مساحة الجفاف الكبير.

لم أشعر بثنيته كما لم أشعر بالتلافيف والشفاه والهضاب البرية. كان كائنا مغلقاً، متوحداً ومهزوماً بانتظار الفاتحين والمحاربين الأوائل، حواريو الزمن حيث شدتهم وطعنهم بالرماح لا يوازيه شيء آخر.

مرت أيام عدة دون أن أذهب إلى بيتهم. في النهاية انتصر الحب والملامسه والـ... بكل جلاله القوي. ذهبت إلى بيتهم شاعراً بالخجل لكن الخجل كان يخفي تحته تصميماً قوياً على غزو البحار والغوص إلى الأبد في مزرعة التيه الأبيض واللزج. لم أشاهد.... من قبل بهذه النعومة وحينها لامسته تشكلت في ذهني صورة غريبة عنه. لم أفهم ارتفاعاته ولم أفهم انثناءاته وخطوطه وانزياحاته وآلامه وابتعاداته وحرمانه. لم أفهم هسيسه، دبيبه. حواراته، لغوه، ثرثرته. رسائله، هلوسته، وجعه، انسحاقاته وحتى تنمله السري حينها لامسني بغته وانتقلت الرعشة مثل تيار كهربائي إلى وجهي وباقي عظامي.

قررت بعد أن ذهبت إلى بيتهم أن أعيد الكرة. أن أطلب منها أن تمسك أصابعي وتضعها عليه مرة أخرى.لن أكون هذه المرة جباناً. أشجع الرجال ينهارون حينها يرونه وقررت أن أكون أقوى الرجال وأشد الفتيان وأكبر الشياطين في عالم اللذة الحسية والتأمل والملامسة والانصهار.

أردت أن أذوب فيه مثل قطعة سكر، مثل فرخ بط بري يعالج من أجل الطيران المائل في دنيا عشتار. لم أفكر بالكائنات، لم أفكر باهتزازي

البريء و القلق وتبلد الحس العقلي وأنا أتحرر من آخر الانثيالات وألتصق به. أردت منها حينما لعبنا مرة أخرى لعبة الاختباء أن تعيد الكرة، أردت أن أتنفسه وأشربه وأرضعه وأحفره وأتلولب معه وبه.

لم أفهم لماذا كنت أرتعش من ذكراه. أتحوصل واضطرب والتف حول نفسي مثل أفعى خائفة من التهام التفاحة المحرمة. بدأنا اللعب ثم هربنا سوية واختبأنا في قن الدجاج. طلبت منها أن تمسك يدي مرة أخرى وأن تضعها عليه. نظرت في وجهي ودون انتظار رفعت دشاشتها وطلبت أن أنظر له، أحملق فيه. تملكني الارتباك. مددت يدي، لامست بأرق أصابع، قبته المدورة وخطوطه الطولية وانحناءاته العرضية.

ليست المشكلة في النظر إليه. كانت المشكلة في التحرر من الإرث الأخلاقي. كان قريباً مني جداً لكني كنت أفكر في ملايين الدقائق الكونية. سيعاقبني الرب. سيرسلني إلى جهنمه التي سأغفو فيها للأبد. ترددت ولم أحرك يدي لملامسته. أصبح وجه هادية عصبياً. سحبت يدي ووضعتها على بطنها الدافئ ثم دفعت بيدي نحوه. أخذت أنظر فيه وأعبث معه وألعب كل ألعابي المحرمة.

لم نعرف كم من الزمن أخذتنا الآلام، والانصهار. طلبت مني أن أتشممه. انحنيت، وضعت ركبتي على الأرض. قربت رأسي منه. بدا لي كبيراً وضاعت قبته المدورة مثل عرائس البحر حينما تهرب إلى الأعماق. كان أرخبيلاً من البول. أشحت برأسي جانباً لكنها عادت وسحبته ثم دفعته إليه. ضاع الخوف فجأة، أخذت ألويه وأقرصه ثم طلبت مني أن أعضه بهدوء.

وبهدوء بالغ وترقب وصبر وانهماك وتربص وخشية. مددت طرف لساني. في البدء لامست الشفاه ثم انزلقت إلى الأسفل حيث ملايين الزغب النافر. كان أشبه بقطة صغيرة تموء وبحاجة إلى التمسيد. داعبته بلساني. أغرقته في بحار الود والنورانية والتوحد، رفعته إلى جبال الخيال والتماهي

مع الذات الكلية. كان يقطر إحساساً. صغيراً وبسيطاً وناتئاً وغاية في الدقة والروعة. جباله كنت أداعبها بطرف لساني. وهجوته مثلما يهجو شاعر بدوي عدوه. كنت أبحث عن أشياء أضاعها الزمن في فتحاته. في الانحناءات والارتفاعات والمدارات الإهليلجية. الكواكب كانت تنحر على مشارف بيته. الأبطال يتساقطون صرعى على بواباته. كان وعيي ينسحق ويتمرد ويتماهى ويضيع في ملايين الزغب النابت أصفراً، ممسوساً بالريح، والعاصفة تدفع التراب والمياهِ والبحار والدجاج لأن يغرق إلى الأعماق المجدلية.

كان ميخا يحدثني بأحاديث خفية خشية إيقاظه من السبات الكبير. وكانت هي تنظر إلى رأسي وتقول أفعل بأقوى ما استطعت فأضغط رأسي أكثر. أغرق في اللحم والشحم والدهون واليرقات البحرية والحشرات المتطايرة والفراشات الهاربة إلى الضوء الخشن والمتلألأ.

مرة أخرى تقول أنظر له، إلعب معه. كان طفلاً غجرياً تائهاً في أرض الله. الأرض التي بحاجة جدلية إلى الحب والتماهي والمطر. نظرت فيه وإليه ومنه وعليه. كان نائماً على الأرض مثل جنين ابن عشرة أشهر. يتلوى ويرتعش حينما يسمع الموسيقى ولأنه جنين فقد استحق تأويلاتي واستحق حناني وملامستي الرقيقة له. لم أشاهده وهو يثور ولم ألمحه وهو يتدحرج لملامستي إياه. كان يغفو بصمت فيما صوت الموج يضرب الناصية البحرية والسفن الساكنة تداعب آخر أضوية الفنارات الحزينة.

سمعنا صوتاً يقترب منا. لبست لباسها بسرعة ومسحت فمي من حالة الإرضاع الطفولي. لم تزل كفي ملوثة برائحة البول. لم أشم فيه عطر الأنوثة بعد بالرغم من أنه كان متماهياً إلى الخارج ونافراً ببزوغ مزدوج. كرهته وأحببته ويدي لم تزل تحمل اصفراره واحمراره وهوسه العطري.

تكرر اللعب مرات كثيرة. في كل مرة نلعب فيها لعبة الاختباء كنا ننهار مثل الصرعى والمخبولين ونحن نضيع، ونحن نبحر ونحن ننساق في

تلافيفه المندائية واضطراباته الخجولة. صرت أراه في كل أحلامي. في اضطرابي وولعي به، أشاهده وهو يكبر ويبتلعني ويحولني إلى فطريات.

تكررت احتلاماتنا المزدوجة، أنا وهي. غدونا شيئا واحدا تماماً ولم أعد أحس به شيئا قادما من الكواكب البعيدة إنما شيء حزين وأرضي تماماً. بالرغم من الاحتفال الذي نعلنه في كل مرة، استمر هو يمثل لنا قطة صغيرة بحاجة دائماً إلى الرعاية والملامسة والانثيال والتماهي به. أصبحنا قريبين من بعضنا بشكل جنوني. أخذنا نستغل أية فرصة ممكنة لنخرجه إلى العالم، وفي كل مرة كنا نكتشف أشياء جديدة وملهمة..

استطعنا في مرات كثيرة أن نتجاوز أمر انكشافنا وكانت تعرف كل دقائق بيتهم وأحلام أبيها وأمها وأوقات نومهم. أردت في إحدى المرات أن أرى أشياء أختها الكبيرة. لم تزعل وخططنا سوية من أجل عري كبير واحتفالي.

اتفقنا أن نصعد السطح في صباح صيفي فيما تكون الأخت الكبرى نائمة. قالت هادية إن ساهرة حينما تستيقظ فإنها تذهب لتبول خلف حاجز خشبي. كمنا هناك. ارتعشنا، قبلتها، امتصصت فمها بانفعال وأنا أنتظر استيقاظ أختها. بعد نصف ساعة تقريباً نهضت ساهرة وتمطت في فراشها وذهبت خلف الساتر الخشبي. شعرت بالدهشة والارتباك حتى اليوم. لم يكن لأختها فرج، إنما زائدة دودية صغيرة. رغم أنها تزوجت بعد ذلك وصنعت الكثير من الأطفال.

*****

سجلتني جدتي في مدرسة الامين الابتدائية للبنين. منذ اللحظة الأولى شعرت بكره غريب لهذا العالم. الكثير من الأولاد كانوا جوعى. البعض كان يأكل البيض المسلوق وفي الصف كان يفلت فسائه وتعم رائحة خانقة كل شيء.

كان البرد من الأشياء المرعبة في المدرسة. غالباً ما تكون النوافذ بلا زجاج. في الأيام الباردة كنا نتقلص وكثيراً ما يكون إخراج الكلمة أو الإجابة من أفواهنا صعباً فكنا نتلقى العقاب المروع الذي كان عبارة عن ضربات بعود شجرة رمان طويلة. مع مرور الوقت أخذنا نعرف كل أنواع العصي، هناك المسطرة الصينية وهي الأكثر إيلاما والمسطرة العراقية الهشة والتي كانت تتناثر من أول ضربة، ثم هناك عصا الخيزران المرعبة.

كل معلم كان يمتاز بساديته الخاصة. ساديته التي ليس لها شبيه. كان الأكثر رعباً بين المعلمين هو مدرس الحساب الضخم جداً. حينما يقف إلى جانبنا كنا نبدو بائسين للغاية وصغار فيما العملاق ينهال علينا ضرباً. الصفعة الأولى التي تلقيتها كانت لسبب سخيف، هو أني لم أعرف كم يساوي واحداً زائد واحد. قلت له يساوي ثلاثة فانهال علي ضرباً ثم، صفعني بتلك القوة الجهنمية التي أحسست بعدها بلحظات أن العالم كله يئن وحرارة مخيفة تصدر من وجهي. كرهت الصف، كرهت كل الطلاب الذين كانوا يتقاتلون دائماً من أجل إلقاء إجاباتهم الصحيحة وكان المعلم الحيوان، يطبطب على ظهورهم ويمسد شعورهم وكأنهم حيوانات أليفة.

كرهت درس الحساب، مقته، لعنته، نثرته على مراحيض المدرسة المملوءة دائماً بالخراء من المدخل حتى فتحة السيفون. في الأيام الباردة كنت أشعر بملابسي الصوفية خشنة ومؤذية وتوغزني بثبات دائم ومتصل وكأنها تريد الانتقام مني. وحينما يسألني معلم الحساب كنت أتبول على نفسي ويضحك التلاميذ والمعلم.

كان العالم كله يرفضني ويبعث بي إلى مجهول غريب وغير معروف الملامح. لكنني كنت أنبثق مثل الفراشة من حلزونية ابتدائها الحيوي. كانت مدرسة الأمين الابتدائية للبنات ملاصقة لمدرستنا. استطعت بمجهود إضافي أن أجمع بعض الطابوق وأجعله على بعضه خلف المراحيض ومن هناك وعبر تسلق بسيط كنت أتلصص على مدرسة البنات.

عالم البنات عالم سحري وجميل وأخاذ. كان يمكن أن تسمع أحاديثهن وتنظر بعيون مليئة بالدهشة إلى شعورهن الموضوعة بعقصات وشرائط جميلة وملونة. أحببت ذلك العالم. صرت أقضي فيه كل استراحاتي بين الدروس. نوع من السلوى والحبور والهروب إلى عالم شفاف ورقيق وغير ملوث بالعصي والضربات والتبول اللاإرادي والبرد. كنت أشعر أنهن دافئات جداً وأجسادهن تنبعث منها رائحة فضفاضة وخدرة.

في الصف المجاور لصفي كان هناك تلميذ ضخم اسمه جمال. كان سياسياً وأعور ويسير محني الكتف وشعر رأسه طويل وذقنه غير حليقة. كثيراً ما كان جمال يضرب من قبل المعلمين. كنا نسمع في كثير من الأحيان صراخه وهو يتلقى العقاب، ثم يتلو الضرب ضحكات رنانة وقوية للتلاميذ. عين جمال الوحيدة كانت تحمل تحت جفونها عالم من الخبث والرعب. كنت أخافه ومثلي بقية التلاميذ. جمال كان كبيراً في السن و دخل المدرسة متأخراً. العين الوحيدة له كانت تمده بالإثارة والعبث والقوة والتسلط.

في كثير من الأيام كان يقف وسط الساحة بعضلاته المشدودة ووجهه الخشن. و يصرخ، لم أفهم صرخات جمال لكن التلاميذ الأكبر سنا يلتفون حوله، يشكلون إطاراً يحميه. كان يخطب ويعربد بأشياء غير مفهومة. بحيوية كان يقول (هلهولة للبعث الصامد) بعد ذلك تعلو الهتافات والصراخ والضرب على الحقائب.

نقف حينما تكون بؤرة الزنابير كبيرة وتلف كل طلاب المدرسة، أمام غرفة المدير الذي كان ينظر إلينا صامتا، هو وبقية المعلمين وأمام الصراخ والهتافات والفوضى وضرب الحقائب والتلويح بالأكف وضرب الأرجل بالأرض تفتح البوابة الرئيسية ونخرج إلى الشارع. صخب، عنف. اضطراب، هلع، تمرد، انحطاط، فوضى وجمال الأعور محمولاً على الأكتاف أو وسط الزوبعة يزيدها ألقاً وتمرداً. نسير بضعة أمتار ثم نتجمهر أمام

مدرسة الأمين الابتدائية للبنات. تهرع الفراشات وتغلق بوابة المدرسة.

نضرب البوابة بأكفنا وجمال يهتف هلهولة للبعث الصامد. كنت أرتجف من كلمة البعث، تلك الكلمة السحرية التي كان جمال يلقيها على مسامعنا، شعرت بفعل الفجأة وهو يسيح داخلي شططاً وإلهاماً وبؤساً في النظرة إلى العالم. مع كل صرخة وهتاف من جمال كنا نضرب بوابة المدرسة، نحطم هشاشة العالم، نحول الرغبة الدفينة فينا إلى عشق التفلت والانحدار إلى الدرك الأسفل أو إلى نار مشتعلة.

بؤس حالنا ونحن بملابسنا القديمة كان انهياراً للعذاب ونحن بإزاء مدرسة البنات البيضاء ذات الخطوط الزرقاء. نضرب الجدران ثم نحمل الحصى ونضرب المدرسة. أحجارنا تبدأ بالتحيطم و(هلهولة أخرى للبعث الصامد) ونحطم الباب ونتدفق إلى الداخل مثل كومة من الأفاعي، مثل مجموعة من القرود تتشبث بأي شيء من أجل الدخول.

كنا نزحف إلى غرفة المديرة التي ترتعب من البعث فتخلي لنا الطريق. نتدفق مثل المياه الغازية ونتجمع في ساحة المدرسة وحينها لا تخرج الفتيات من الصفوف نطلق لأصواتنا الهتاف القصديري. اختلس النظر إلى صفوف الطالبات وأتقدم قليلاً ثم أصرخ بأن يأتوا قربي وتميل المظاهرة نحوي وجمال في الوسط يشبه التكوين الأولي للعاصفة.

ندور مثل كومة الزنابير حول النحلات العاملات. أحبهن، أعشقهن وأجد نفسي فجأة أمامهن عاريا. وسخا، ملوثا ببصاق جمال المتناثر من فمه الذي لم يغسله أبداً. وجوههن تلمع في الصباح البارد ورائحة الورود والعطور والسلام الأبدي يرين عليهن.

كن خائفات، لكنهن واثقات من أنفسهن برغم صراخنا ونحمل الأحجار ونضرب أبواب الصفوف وتضطر المعلمات لإخراج البنات. بهاء أخاذ وبؤرة من الجمال الذي يتشتت في الأرجاء. نخرج كل الطالبات ويهربن من عاصفتنا وجمال الأعور يدخل الصفوف الفارغة ويحطم المقاعد

ونحطمها معه. نمزقها وأحمل بيدي عصا كبيرة وأحطم الزجاج ويقربني جمال منه. أشاهد انفعاله وهلهوله للبعث الصامد، الهتاف الوحيد الذي يعرفه. أسمع نبرات صوته المبحوحة والانثيال والتمضرط والانفعال الشرس على محياه. وجهه يشبه وجوه القراصنة بالرغم من أنه ابن بائس لعائلة مجهولة الهوية وقادم من اللامكان. لم نعرف لجمال منزلا قريبا منا وكان يأتي من منطقة أخرى، منطقة بعيدة عنا لكنه كان يحرضنا ويدمرنا وينعشنا ويستغلنا من أجل أن نخرج كل يومين تقريباً في مظاهرة عارمة.

شغلني البعث. شعرت مع الهتافات أن هذه الكلمة تخترقني، تمزقني، تعبث بكياني الرقيق والعصبي. كانت كلمة ذات ألق خاص شعرت للمرة الأولى بأني أتبع شيئاً ما في حياتي. حينما خرجنا في المظاهرة وداهمنا مدرسة البنات. انسل الكثير من الطلبة إلى خارج المظاهرة وهربوا. زميلي في المقعد الدراسي اسمه فقير كان الأول الذي يترك مظاهراتنا ويهرب إلى البيت. كرهت فقير بالرغم من أني أحبه. كان هناك صراع خفي مع روحي التي أحبته وعقلي الذي يكرهه لجبنه وخذلانه وانبطاحيته وشروده.

فقير كان يستفزني دائماً في الصف عبر الإجابات الصحيحة للأسئلة وكان محبوباً من قبل المعلمين وخاصة معلم الحساب. لهذا السبب ولنحافته وبعده عنا كرهته وشعرت أنه يجب أن يدمر. في إحدى المظاهرات تربصت بفقير. كنت أراقبه وحينما تجمعنا أمام غرفة المدير وفيما نحن نهم بالخروج من المدرسة بدأ فقير محاولة الهرب، تركت المظاهرة واعترضته، حاول مشاغلتي لكني كنت قوياً وسريعاً وعالجته بعصا على رأسه..

مع مرور الوقت أحببت جمال الأعور. في إحدى المرات حكيت له عن مغامراتي عبر سور المدرسة للتلصص على البنات، أعجبته الحكايات وأراد أن يشاهد العملية كلها. سرنا بهدوء إلى السياج القابع خلف المراحيض وبدلاً من أن نرتقي السياج وجدنا أحد تلاميذ الصف السادس يحاول إقناع تلميذ من الصف الأول بنزع سرواله. هجم جمال على التلميذ

من الصف السادس وأشبعه ضرباً وهرب تلميذ الصف الأول وهو يجر بنطلونه. هذه الحادثة جعلتني أقترب من جمال أكثر، أقدسه في داخلي واعتبر كلماته شيئاً مقدساً.

في أحد أيام الشتاء وبعد يومين من خروجنا في مظاهرة عارمة طرد جمال من المدرسة. لم يستسلم للأمر وأخذ يحاول الدخول إلى المدرسة تحت أي مبرر لكن فراش المدرسة ومعلم الرياضة أوقفاه. كان مثل ذئب جريح. أكثر من مرة شاهدناه أمام بوابة المدرسة يأكل العمبة بالصمون وينظر إلى المدرسة وإلى وجوهنا. كان جريحاً ومألوماً وأصبح انتظاره أمام المدرسة نوعاً من الصلاة يمارسه كل يوم.

*****

لا أعرف كيف انسحب جمال الأعور من حياتنا. ربما بمرور الزمن وربما لانشغالنا بالدوام وربما أيضاً بكمية العلاقات البائسة التي كانت تحدث بيننا باعتبارنا تلاميذ شبيهة بالنعاج تمارس الحضور كل يوم تحت سلطة المعلمين والإدارة اللعينة. هلهولة للبعث الصامد اختفت من حياتنا الدراسية وعوضاً عن تذكر جمال صرت أتذكر صورة البعث الذي منحني قوة متسلطة وعنفواناً كبيراً باتجاه الآفاق.

عرفت في مرحلة متقدمة من الدراسة الابتدائية أن معلم التربية الوطنية كان بعثياً. أخذت أنظر لهذا المعلم نظرة خاصة. كنت أتابع كل همساته، حركته البطيئة والواثقة في الصف، قراءته لكتاب في سبيل البعث، شروده وهو ينظر من النافذة إلى الآفاق، وإلى الغيم المار الذي كان يلوح من النافذة. كان معلماً كتوماً واثقاً. يسير في الصف بروح غريبة لكنها أليفة وممعنة في المسؤولية. أثار كل هذا إعجابي.

في روحي الداخلية ثمة استنباط أجريه لوجهه وحركاته وأصابعه التي تمسك الطبشور وترسم لنا دائماً خارطة ويقول لنا هذا هو وطننا

العربي. بمرور الوقت صرت أحب خارطته هـذه، أعـشقها وهـو يتحـدث عن مقدار القوة التي ستكون لدينا لو أننا توحدنا. أصـبحت أحـب بتزايـد مستمر درس التربية الوطنيـة والتـاريخ. غرقـت في أسماء الآلهـة والمعابـد والزقورات. كنت أتمثل التاريخ في روحي التـي تنطلـق دائماً وتحلـم بهـذا الوطن العربي الكبير والتاريخ العميق والغائر في القدم.

كنت حينما أسـير في الـشارع أو حيـنما أجلـس إلى منـضدة الدراسـة أستلهم العنفوان المرن والفعال والجذري لتـاريخي. نـوع مـن التماهـي مـع التاريخ كنت أضيع فيه إلى الأبد. فقـير كـان يكـره درس التـاريخ والتربيـة الوطنية. أصبحنا الآن في خلاف مستمر برغم صداقتنا التي تطورت بفعـل معرفـة عائلتـه لراحيـل وانـتمائهم الـسابق والمـشترك للحـزب الـشيوعي العراقي. لم يمنع هذا فقير من التبول على التاريخ، تاريخي الحاسم والمتبلـور مثل شعلة نار ملتهبة تمدد على الزمن.

كانت إسقاطات فقـير هـي إسـقاطات نرجـسية. كـان يتعـالى عـلى التاريخ الشخصي للأمة العربية. لم أتحمل الهـزء ولا الكلـمات النابيـة بحـق كلكامش ولا نبوخذنصر ولا باقي الآلهـة الطيبـة والعظيمـة. تـاريخي شيء حاسم وأمتي من أروع الأمم في التاريخ، هكذا كان يتحدث معلـم التربيـة الوطنية الذي أصبح بالنسبة لي نبياً يحمل مشاعله التنويرية في أرجاء العالم.

قال لنا المعلم في درس الوطنية وفي انفعال جذري وحيوي إن البعث يعني أن ننهض من جديـد. ألا تريـدون أن تكونـوا مثـل الأجـداد عظامـاً تحترمكم الأمم. وأذوب في هذه الفكرة. أن تنفخ في فتحة الكور مـن أجـل نيران جديدة هي فكرة مقدسة.

راقبت بعض رفاق البعث أثناء اجتماعـاتهم في مدرسـتنا بعـد انتهـاء الدوام. في إحدى المرات اقتحمت إحدى هذه الاجتماعات وقلت:

- أريد أن أكون بعثياً.

وبرغم الابتسامة كان هناك هلع غريب و متجذر من انفتاق السرية وتقحم البعض- أنا- وخرقي لهذا السور المحصن. كنت روحاً متقحمة. شيء داخلي كان يغلي ويتناثر. اللعنة كانت تطاردني وأنا مشوش البال والفكر والضمير. في هذا الهلع كررت:

- أريد أن أكون بعثياً.

قلت بقوة، ياللهول ويبتسم الحضور. يبتسمون من الدهشة والانبهار. يقول لي المسؤول:

- كم عمرك.

- وأقول له أنا في الصف الخامس الابتدائي.

ويسحب نفساً عميقاً من سيجارته التي أعجبتني جداً ويقول متمتماً:

- أنت لم تزل صغيراً.

تتحطم طاقتي. يحطمني بغير محبة، طاقتي تتسرب إلى الأرض وكأني أتبول في بنطالي.

- أريد أن أكون بعثياً ولو للحظة واحدة، أرجوكم.

وأنسحب. وأتمرض، وأنهار في ملابسي من الحزن. أسحب اقدامي الذليلة وفي روحي تصميم غريب أن أنتمي إلى البعث. لن أدع الله يأخذني بعيداً عن أن أكون شيئاً كبيراً ومهماً. وأقول الحكاية كلها إلى هادية. أقول لها أيضاً إني سأصبح عضواً في القيادة القطرية. يا للجنون. لكنها لا تهتم وتريد أن أعبث بذاك فقط والذي تفوح منه رائحة البول بالرغم من أني قلت لها ضعي البودرة عليه ونشفيه وإذا أردت الحقيقة اسكبي عليه قنينة عطر كاملة.

وفعلتها المجنونة. فاحت الرائحة المخلوطة بزناخة البول وتشممتها أمها وأنزعتها ملابسها واستحقت صفعات كثيرة وضرب على المؤخرة والقفا والتهديد بأن تقول كل هذا للأب. ربـاه. كل شيء ممكن لكن أن

تقول الحكاية للأب فهذا هو الأمر الملعون والكارثة والبلوى التي ليس لها أول أو آخر.

جاءت هادية وبكت أمامي بقوة وقالت إنه يجب أن نتوقف عن اللعب لأنها خائفة ومرعوبة. تكلمت مثل اتام بلعام وقلت لها أن لا تخاف وأن تطمئن لأن الأم لن تشي بها للأب. ولا أعرف كيف تحدثت بهذا الشكل رغم أني لم أكن أعرف حقيقة ما إذا كانت الأم ستقول للأب أم لا.

في كل الأحوال أردت أن أجعل هادية تسكت وأن تمنحني بعض الوقت لأني أريد أن اكتشف ثمة مسألة خاصة ومهمة متعلقة بـ..... قبل أن تحجبها أمها ولا تستطيع اللعب معنا وهو ما كنت متأكداً منه. ويسير كل شيء نحو الكارثة، إذ خابت توقعاتي وقالت الأم للأب أن ابنتك وضعت عطراً على ذلك الشيء وأن هذا الشي هو ما يبعث الرائحة الأسطورية في المنزل. وحتى حينما أرادت الأم غسله من أجل التخلص من العطر، فشلت وانهارت وأخذوها إلى المستشفى وهناك اتصل بهم أحد الأقارب مستفسراً، ثم انكشف ما حاولت الأم إخفاؤه ودب الهرج والمرج في البيت والعائلة والعشيرة والفخذ.

كان الأولاد واجمين والأخت الكبرى تحديداً تعرف المشكلة الحقيقية لكن الأم أصابها الخبال ووضعوا لها المغذي وأدوات التنفس وحقن شرجية. كنت أرتعب وأنا أسمع هذه الأخبار. أرتعش مثل سعفة كبيرة آيلة إلى اليباس. ما الذي سوف يحدث وهي لها أبناء عم وعمات وخالات وأقارب إلى الدرجة السابعة وكلهم يتحدون الخطر واللؤم والشناعة.

لم أجد مكاناً جيداً في البيت للاختباء. كنت مهزوزاً من الأصوات والليل والانبهاتات القصرية التي كانت تأتيني بين اللحظة والأخرى. صرت أخاف الذهاب حتى إلى الغائط. بعد انقضاء أسابيع من القلق، مررت من أمام البيت. كنت أريد سماع الأخبار، أية أخبار حتى وإن كانت سيئة وتخيلت أن يأتي أحد ما من طرفهم ويروي لي كل شيء. يروي المصيبة

والبلوى والرعب إذا ما هادية انهارت أثناء التحقيق وأخبرتهم بتنظيماتنا السرية وأماكن اجتماعاتنا والأسماء الحركية للـ.... التي نسجناها سوية ضمناً طبعاً ما قلته لها بخصوص أنه يجب أن تغسل البظر والداخل وتتخلص من رائحة البول والعفن والالتهابات المهبلية والسوائل السيبيائية والكورتزون والحشيشة والسكر والعربدة والاعتداء على المواطنين.

بعد هذه الحادثة صرت أقضي أيامي في البحث عن أعقاب السجائر خلف سكة القطار المارة بالقرب من بيتنا، اكتشفت هناك مكاناً خاصاً وبنيت مخبأ سرياً قررت أن أهرب إليه في الأوقات الحاسمة مثل ملاحقة جدتي لي وتهديدها بالنعال. في هذا الملجأ الذي كان عبارة عن أغصان أشجار تشكل أشبه ما يكون بغرفة وحشية وسط الغابة والسحر والروعة والابتكار الأخاذ، أخذت أجمع الجرائد وأوراق العنب وألفها وأدخن وفي الأيام الباردة كنت أشعل ناراً صغيرة للتدفئة والسرحان والتيهان في سماوات الله.

بعد حادثة العطر وبمرور الوقت صرت أحب هذه العزلة. كنت أحس بالمكان واسعاً وكبيراً والأهم أنه يتسع لأحلامي وبكائي في أوقات كثيرة حينما كنت أشعر بالشوق والحب والتمرد لرؤية راحيل التي قالت جدتي:

– ليس من السهل بعد الآن رؤيتها، لأنها تزوجت وتركتك.

تلك الكلمة الغريبة والمؤلمة التي لم أستطع تصورها. أعرف راحيل وأعرف دفء لحمها وجلدها وشعرها الأحمر الذي يمحضني دائماً السلام الكوني. لكن راحيل لم تحضر لزيارتي من أمد بعيد، وهذا يعني أن كلام جدتي حقيقي. شعرت بانهيار عصبي. انهيار الزمن وتبعثر الآلهة وانثيالها في أرجاء الكون الواسع. كنت أهرب إلى المخبأ السري وأغني أي شيء ودائماً أبكي في نهاية الأغنية.

وجدت في وحدتي خلف سكة القطار قنينة عرق تحوي القليل.

شربتها وشعرت بخدر وخفة لذيذة. في تلك اللذة العارمة أخذت أشاهد الوجوه وهي تمر على ذهني في تهويمات وتهتك. شاهدت راحيل تهرب باجنحة نورانية إلى بؤرة السماء. شاهدت هادية وراعية الأبقار وجمال الاعور وكل الاصحاب في بيتنا القديم حيث جدتي وانين الوجع الخالص والمر يسيح من وجهها مثل دهن التقدمات، مثل زيت التتويج الحر للملائكة وانصاف الالهة. في الركن القصي كنت أشاهد عصفور هادية وهو يبتلعني وكنت ابحث فيه عن الثقوب العشرية والتنزهات الملكية لكن رائحة العوز المناعي والعاطفي كانت ترصدني فتأخذني بعيداً إلى الذئاب المحيطة بدوائر السحر والسحرة.

راحيل لم تأت، راحيل لم تزرني وكنت ألتاع وأنضغط إلى نقطة صغيرة في هذا العماء المخيف. أن تفقدها فهذا يعني أشياء كثيرة، واحدة منها الانحطاط العاطفي وتبعثر المشاعر بدل تذكرها والهوس بذكرى فقط من أجل استمرار الحياة. لكن لماذا أستمر في الحياة أصلاً؟ فكرت أكثر من مرة أن أشنق نفسي في مكاني هذا وتفحصت الأغصان والفروع والآفاق لكن كل شيء كان ترفاً وليناً لا يتحمل ثقل جثتي المألومة. أريد أن أبكي إلى النهاية وكنت أبكي فعلاً موتي الافتراضي. أفكر بالانتحار وأبكي عمري القصير الذي أمحضه الألم دائماً.

أصبحت أقضي أوقاتا طويلة في الوكر. العش السحري للايائل البرية والثلوج والصحراء والابتراد. دائماً أجد كومة من الأخشاب العيدان اشعلها وأكتشفت النفط الذي صرت أسرقه من بيت عبد الرحمن وأوقد شعثي وأخشابي وفحمي وبراءتي من هذا العالم. كنت أتمنى أن تكون هنا ياسمين وهادية وكل النساء اللاتي أحببتهن بعمق ومودة وانثيال وانصهار وأنانية مفرطة. كنت أشعر أن هادية بالرغم من ابتعادها عني، قريبة جداً وتسمع ثغاثي الطفولي وكانت هي الأم التي ترضعني سوائلها المتقيحة.

كتبت في ورقة الامتحان حينما أنكرني الرفاق في اليوم الذي اقتحمت

فيه اجتماعهم. كتبت لمعلم الوطنية أني أريد أن أكون بعثياً. وقع كلمة البعث كانت ترفعني إلى لذة عارمة. كنت أتحسسها وهي تثور في عقلي وأحلامي. كثير من المرات حلمت بأنهم سيقبلوني في صفوفهم. انتمائي لهم كان بالضد من انحطاطي الكلي و تبعثري وانثيالي في الكون المستوحد. الانتماء كان شيئاً هائلاً ومخيفاً بالقدر الذي يكون فيه أليفاً ومحبباً.

بعد يومين جاءت ورقة الامتحان وقد كتب عليها المعلم بخط أنيق ومليء بالانحناءات التي أحببتها بشكل عارم. انتظر قليلاً حتى تبلغ المدرسة المتوسطة وهناك سوف تصبح شعلة أخرى في لهيب البعث. يا لها من إجابة مدمرة، سائلة، ذائبة. شعرت بالدهشة والتعجب من الخط الجميل. انحناءات الخط كانت تمنحني ألق عميق. احتفظت بالرسالة بين كتبي وأيامي ولياليي المنبعثة من الأسطورة الحية وأغاني المساء وفيروز وهي تغني بغداد.

أصبحت الآن بلا صديق. فقدت فيما يبدو إلى الأبد هادية. فقدت عصفورها وأصابعها الصغيرة والعبث المرن بجسدها ونحن نلعب لعبة (أبو بيوت) ونمثل هي وأنا دائماً دور الأب والأم. كانت أماً رائعة تعد الطعام وتعري ما بين الفخذين وتحلم بالزفرات والشهقات لكنني لا أعرف كيف أفعلها، فهرب شيطاني وعادت الملائكة ترفرف على وجوهنا المبللة في يوم ممطر خلف البيت في غابة اليوكالبتوس الشهي.

مضى أسبوع وأسبوع آخر ولم أستطع أن أذهب إلى بيت هادية. لم أعد أشاهد ساهرة أو هادية تلعبان أمام المنزل. فقط لمحت هادية وهي تكب الزبالة في الخرابة المقابلة لبيتنا. أردت أن أنتظرها هناك بين الروائح المنبعثة من أكداس النفايات. في تلك البقعة وأثناء انتظاري اكتشفت أشياء جديدة في النفايات. كل كومة زبالة توحي بسلوك ذلك البيت. وجدت خرق الدم ولفافات الطمث. عبثت بتلك اللفافات الطويلة بعصا ثم أحرقتها وتشممت رائحة الدم المحترق. الدم كان حاداً للغاية وهمجيا حينما هاجمني بغتة وأنا أنتظر أيامي المتوحدة والبائدة والمنحرقة.

أصبحت أقضي أوقاتا طويلة بين أكوام النفايات، صرت أكتشف عالما آخر مصنوع من بقايا الطعام والورق والرسائل التي كنت ألتقطها وأذهب إلى الوكر حيث أمارس عليها طقوسي الوثنية. بعد تلك الأيام من الوحدة والضياع العاطفي والمزيج الغريب من الخوف والبهتان ونزف العاطفة أصبحت أشعر أني تغيرت كثيراً. أصبحت نظرتي واثقة للأشياء. الروح التي أحملها كانت قوية لكنها منطوية. اسم الله كان يأتيني في تلك الخلوات الغريبة التي كنت أصرم الكثير من الوقت فيها.

كان هناك ثمة هاجس يطاردني دائماً في نومي ويقظتي وانثيالي ونزوحي وهجراتي.. عدت أزور فقير في بيتهم الذي تفوح منه دائماً رائحة الزنخة والسمك والبط المشوي في تنورهم. أصبحت زياراتي لفقير يومية. نقضي أوقات طويلة ونحن نحلم بأشياء مضحكة مثل أن تكون لنا شجرة تخرج نقوداً بدل الفاكهة، زرعنا عشرة فلوس في الحديقة الخلفية لمنزلهم.

كنا مولعين بجنون التاريخ. فقير كان مثلي يعشق التاريخ لكن ليس تاريخ الوطن. دفنا في الحديقة الخلفية الكثير من القناني المملوءة برسائل وهمية كتبناها بأخطاء إملائية ونحوية. اكتشفنا أنا وفقير الكثير من الأشياء وشدتنا صور الممثلات الرائعات وهن يتغنجن في ملابس البحر. فقير كان ينظر إلى الصور بروح غريبة وملهمة ومع استمرار علاقتنا أخرج لي صور لنساء عاريات. شعرت بالدهشة المرة وبالانسحاق.

كان مثلث فينوس في الصورة بارزاً لكنه مليء بالشعر. اقترحت على فقير أن ينتمي معي إلى الحزب. في البداية اعترض إلا أنه وافق بعد ذلك. أخذنا نذهب إلى المدرسة بعد انتهاء الدوام الرسمي. وبعد خروج الفراش كنا ندخل صفاً ونقلد البعثيين. لم نعرف بماذا نتحدث إلا أني شعرت بروح الوطن وهي تنساب داخلي ثم تزهر زهرات ملونة بأريج غريب وجميل.

في تلك الجلسة كنت أتماهى في روح العراق. العشق الأبدي له. لم أفهم الوطن على نحو واضح إلا أن الحب كان يسيل من فمي ومن بقية

أجزاء جسمي مثلما يسيح الدهن والكافور من الآلهة الكبيرة. عراق. أشعر بالسحر من هذه الكلمة. حروفها كانت ملساء وكبيرة وتتضخم بقوة. الاندهاش كان مصيرياً وروحي تحلق بترددات كبيرة. التماهي بالوطن له سحر خاص، سحر غريب ومهم ومدوي تعرفت عليه بشكل أوضح في درس الوطنية. حبي للعراق والأمة العربية كان هائلاً ومشوشاً ومدمراً. أدخلني هذا الحب في متاهات عميقة. لم أفهم لم هذا التشبث بروح العراق. التوله ببهائه. كنت أراه شيئاً عميقاً وجذرياً. كل حبي كان عبارة عن أرض مزروعة بالشهوة في تقبيله أو النوم داخل ثراه أو في تشمم رائحته طينه وسبخه وصحرائه وجباله ووديانه وعصافيره. شعرت أني تائه بدونه لكن وعي الحاضر أعادني له.

ضحكنا أنا وفقير من مغامرتنا الجزئية. المغامرة المنسحقة بالبهاء لروحينا ونحن نريد تأسيس حلقة حزبية. شعرت بفقير أنه لا يحب هذا العراق. يحبه بشكل آخر ليس مثل حبي. ليس مثل تشوهي. ليس مثل انسحاقي. في بيتهم أراني فقير مرة أخرى صور النساء العاريات. شعرت بلهفة وعطش لرؤية هذه الصور التي أحسست بالانسحاق أمامها. الأثداء، اليد المرفوعة. شفافية الشعر الأشقر والبني.، هذا التماهي والانبعاث لأوروك وهي تتلبس غطاء الرأس. وحشة الأفخاذ أخذتني إلى مديات عميقة الإحساس. كنت أتحطم أمام الصورة. الانبهار الكلي إزاءها وتولد العطش.

أعجبني الفرج، أكثر الأشياء إنسانية وحناناً في المرأة. بقيت أحدق فيه وبه وإليه وعنه ومنه. لم يكن يشبه ما عند هادية وكأنه عظاءة. كان وثناً ركعت أمامه وأنا أقرأ تعاويذي وأبطل سحر الكهان والمردة وأبعد الشياطين عنه.فجأة سحب فقير بنطلوني. وقفت أمام هوسه وأنا أرتعش. جسمي كان يتلولب ويندفع إلى الخلف بدرجات متتالية. لم أعرف ماذا أقول. لكنه أخذ يتوسل أن أنام فوقه..

داهمني وأنا استمع لتوسلاته، تيار من الوعي بعد شرودي المحض..

- قلت له، لا أريد. إني خائف. ربما ستأتي أمك.

ابتسم. أسنانه الصغيرة وكفه المليئة بالأكزيما تسبب لي التقيوء. بدأت القشعريرة ترتفع إلى جسمي من منطقة المؤخرة. شعرت بزغب بطني ينهض ويعلن حرباً غير منظورة على الافتتات. القشعريرة تصل إلى ظهري وتتمدد إلى رقبتي. في لحظة جنونية، أمسكت رأسه ودفعته. هجم مرة أخرى مثل ضبع يعرف أن الضحية هشة ومتناثرة. قررت المغادرة. تمدد على السرير وبدأ بالبكاء.

*****

في خريف آخر من عام جديد انتقلنا فقير وأنا إلى الدراسة الثانوية. هو ذهب إلى ثانوية المأمون وأنا اخترت متوسطة الوثبة. حينما اقترحت عليه أن نعقد اجتماعاً حزبياً جديداً، رفض بقوة و قال إنه سيكون شيوعياً. لا أدري لماذا شعرت بالاهتزاز من كلمة شيوعي. ثمة كره كان ينحشر في فمي ويخرج على هيئة رغوة مشابهة لرغوة المصاب بالصرع.تركت فقير وهاجرت إلى البحر. لم أعد أراه حتى في أحلامي.

بعد فقير كان هناك بؤس غريب يلفني.. لم ألتق راحيل منذ زمن بعيد. كانت قد انشغلت بزوجها الذي صرت أشعر تجاهه بكره عميق. كانت قبل الزواج تزورني مرة في الأسبوع. بعد زواجها أصبحت زياراتها متباعدة ورخيصة للغاية. كانت ملابسي تتمزق وفي المدرسة منحوني والفقراء قميصاً جديداً وبنطلوناً استطعت أن أحتمي به من البرد.

كان مدرس اللغة العربية عراباً لي. أحببته وشعرت بالتصاق ذهني معه. لم أعرف انتماءه السياسي لكنه كان مشوباً بالعاطفة والذكاء.

كنت أبحث عن شيء خفي لم أعرف ما هو، لكنه شيء يعوضني

فقدان راحيل وابتئاسها ومرارتي. زرت راحيل في يوم لم أتذكره إلا أنه كان شتائياً. قالت لي لن تستطيع أن تنام بجانبي وارتني في غرفة جانبية، سريرا متواضعا. حينما دخلت الغرفة وغادرتني هي. شعرت بكره يلف قلبي. جلست على السرير في الغرفة المطفأة الضوء. كنت أتصور أنها سوف تجلس إلى سريري، تتحسسه وتدخل فيه وتدفئه ثم تمنحني قبلة شائهة أسمع صوتها في ازدحام الغرفة بالملابس وسقط المتاع.

في تلك الليلة الداعرة بكيت بتشنج. كتمت البكاء إلى الحد الأقصى. كرهت زوجها بوحشية مدمرة. شعرت بحنين مفاجئ لشجرة اليوكالبتوس القديمة في بيتنا الأول. كنت أريد أن أتحرر من هذه الغرفة وبردها. غطيت رأسي وبدأت أنفخ، لكني لم أدفأ. تركت الغرفة و مشيت حافياً، متهالكاً. حينما وصلت باب غرفتها. سمعت الهسيس والضحك واللغات المتنافرة والكلمات المبعثرة مع زوجها. بعثرة الكلمات بعثرتني أنا الآخر. لم أجرؤ أن أمد أصابعي من الظلام لأتقصى أكرة الباب.

كنت أبحث فعلاً عن الأكرة لكني كنت جباناً ورعديداً ومسحوقاً ومتهالكاً مثل مركب أو سفينة جانحة إلى الخراب. لم تبك راحيل على حزني. كانت هناك خلف الباب وأنا أشاهد ظلمتي تنداح عميقاً في السغب والعطش والجوع والعري. قميصي الوحيد الذي منحتني إياه المدرسة مزقت أطرافه، عضضت بقوة الشيطان على أطرافه. أقضم منه أجزاءاً وأرفع رأسي شاهقاً الجفاف والتبتل والقهر المتواري خلف الباب. أخذت أتصور راحيل وهي تكشف عريها له. العري الخاص بي وحدي. جسدها ملك له الآن. يمتص أزهاري وصباري ومأتمي وأحزاني وبعوضي والهرش المستمر لظهري.

أردت أن أموت ألف مرة. ألف لعنة، ألف شهقة. أغنيات تجول في ذهني. أغنيات وألحان كلها تبكي عيوني وفمي وأعضائي وعظامي. جربت أن أفتح الباب لكني ارتعبت. يا للهول. لماذا لا أستطيع أن أدير الأكرة

وأمزق الليل والوحشة وزوجها. جبنت وتهالكت على بواباتها وأنا أشعر بالفقدان. فمها الذي قبلته مئات المرات يندثر، يتآكل. ها هو الآن ملك غيري. زوجها الملعون خارج من أساطير التوحش ولويثان تتبع خطواته والجن يسير برفقته.

تعجبت من جبني. من ارتعاشي. لم أستطع أن أدفع الباب وازيح الظلمة من أمام عيني لأني كنت كتلة من الخراء والبول السائح في ممرات المراحيض. تصورته إذا ما فتحت الباب أن يهجم على وجهي بعد أن يكون قد افترس أجمل وردة في العالم. بكيت أمام الباب بصمت التوسل وببهاء الله وببذرة الانسحاق. تمنيت حينما سمعت صوتها تضحك أن أموت. أن أشرد، أن أختفي. لا يكفيني الموت إذ أني سوف استمر في تحمل الألم في الحياة الأخرى. سيبقى الوجع والذكرى. والألم والتهالك. ستبقى كل الأشياء.

إلى أي مدى سأبقى متحملاً ذلك الارتعاش والبكاء. تمنيت أن لا تكون هناك حياة أخرى. كفرت بالبعث وتمنيت بتوسل إلى المسيا أن لا يمنحني الحياة الأخرى. أردت أن أدخل القبر وأن يشارك الجميع في مراسيم ابتهالاتي وانحناءاتي وتضرجي بالدم. أخذت أتصور نفسي وأنا أموت وأحمل على الأكتاف وأبكي موتي. أبكي راحيل التي فقدتها إلى الأبد وارتعش من كوني سأموت بعيداً عنها وفي أرض غير هذه الأرض وأرحل إلى تراب غير هذا التراب. أردت الهرب إلى لا مكان ولا زمان. أضيع في الأرض وأعيش متوحداً في جزيرة حبي ونجومي وبحاري وخلجاني. أرحل إلى الاقيانوسات الذهبية. إلى الله، الشيء الوحيد في هذا العالم الذي سيمحضني الحنان.

تركت الباب وذهبت إلى المطبخ، أخرجت سكينة وأردت أن أطعن نفسي لكني جبنت وبكيت وتأملت المطر، والبرد توسلته أن يمنحني آخر فرصة لأقبل راحيل رغم دناسة جسدها. أسمع صوتها الموسيقي، صوتها

الذي كان عبارة عن جرس صغير أو آلة هارموني أو هارب كبير تعبر الريح أوتاره فيتألم ويعتصر نفسه وروحه. هربت من البيت. فتحت البوابة الحديدية وانسللت إلى العاصفة الشتائية الرابضة أمام باب الخطيئة.

بخفوت ونشيج متعثر يمزق حنجرتي مشيت. ذهبت إلى لوحة الكهرباء وقطعت التيار الكهربائي ثم عدت بسرعة إلى سريري الملعون والبارد. كانت ظلمة وكانت عاصفة وكان صوت زوجها يتسلل من أرجاء البيت وهو ينظر من خلال الشبابيك إلى البيوت المجاورة. ثم يكتشف اللعبة. لعبتي القذرة والمتأملة. يذهب إلى لوحة المفاتيح ويصل الكهرباء. ثم يعود إلى المخدع. الوكر، الزريبة ليلحس راحيل. ليمتص لبائها وجنوني وجسدها ورعونتي.

مرة أخرى اطفئت الكهرباء وتعثرت في البرد فسمع زوجها صوتي وخرج بسرعة ليكتشفني بذهول. كنت أريد البكاء بأية وسيلة. البكاء كأنه الشيء الوحيد الذي يهزني بعمق. قلت له وهو يقف فوق رأسي. أكرهك حتى اللعنة وضربني. راحيل كانت تنظر فقط. مهزوزة، مبعثرة، متأملة أحقر الرجال في عالم الموت يمحضني الضربات. لم أبك. توسلت روحي أن تبكي. اختنقت وغامت الدنيا أمام عيني. كنت أريد أن أطعنه، أمزقه، أجعله مجرد لحم متكوم على الأرض.

شهوة غريبة أخذت تلتئم في داخلي، تثور، تتمرد. أريد أن أطعن أي شيء بسكين المطبخ. أمزق، أنثر، أعلن دماري الكوني وارتحالاتي المسبولة على خيط الرغبة القتيلة. أردت الموت ألف مرة. لا تكفيني طعنة واحدة. أريد المزيد. أريد الكثير، أريد العديد، أريد اللحم. مهم جداً بالنسبة لي أن أرى الدم. الأعصاب والعضلات والعظام تتكوم كلها أمامي. لكن المشكلة هي كيف سأتخلص من جثته العارية إلا من لباس بكيني أبيض.

حلمت بأن أقطع عضوه وأجعله على راياتي السود. أمشي في الطرقات مبهوراً بالاستقبال الحافل الذي صنعته البشرية لجنوني المتبلور

مثل وردة شتائية، مثل قرنفلة مهزوزة من المطر الربيعي. أين سأضع جثته. بحثت في ذهني عن أماكن عديدة. لكن ماذا سأفعل براحيل. تفجرت في رغبة وعطش رهيب للقتل.

في صباح اليوم التالي تركت البيت وذهبت إلى جدتي. صممت أن أقتل زوجها في أقرب فرصة لكن روحي كانت جبانة وأصابعي لم تتعود الطعن أبداً. كان ذلك شعوراً غريباً لكن ترددي في قتله وعدم تنفيذ ما برأسي جعلني أشعر بحالة ارتداد غريبة. أخذت أخرج من بيت عبد الرحمن بأوقات كثيرة. كنت أقول لجدتي أني ذاهب للدراسة مع فقير لكني كنت اكذب حيث كنت أدور في الشوارع.

عادت إلي مرة أخرى حمى الذهول و الإحساس بالضياع. كنت تائهاً، وهذا التيه كان يولد ثمة اهتزازات روحية في داخلي. تعرفت إلى ابن الخبازة في المنطقة وأخذت أتردد عليه. كان يكبرني سناً. أردت أن أتحطم وأنتقم من الجبن الذي كبلني ليلة مبيتي في بيت راحيل. لم أعترض حينما مس فخذي. حينما شاهد صمتي وسكوني، طلب مني أن أنزع البنطلون.

ذهبنا خلف التنور وهناك مارس اغتصابي. كانت لعبة لا أعرف لها طعم لكني في النهاية أردت أن أقتل جبني بأية وسيلة. قلت له أفعل بقوة. أخذ يدفعه بشكل كبير. أحسست بألم فظيع لكن الوجع في داخلي كان أكبر. أخذنا نمارس الحب عدة مرات في الأسبوع، وفي كل مرة كنت أشعر أني أنتصر على شيء غريب وغير مفهوم.

أصبحت أتردد كثيراً على السوق. طلبت جماعة من أصدقاء ابن الخبازة أن يمحضوني الحب أيضاً. ذهبنا إلى خرابة بين البيوت وهناك مارسوا الحب معي. لم أفكر بالنقود. كنت أريد شيئا غريبا وغير مفهوم. أصبحت بعد تكرار العملية الجنسية أقل إحساساً بالألم سواء كان داخلي أم خارجي.

كنت أهيم في الشوارع ولا أعود إلا في وقت متأخر. في إحدى المرات قالت جدتي إنه يجب أن أنتبه إلى صداقاتي وأن لا أسيرمع من هم أكبر مني سناً- لأنهم سيغتصبوك-. نظرت في عين جدتي المتعبة وهززت رأسي طائعاً لكني في الحقيقة كنت ازداد انحطاطاً وتراجعاً. لم أعد أفكر براحيل. التفكير فيها وبزوجها كان يسبب لي ألماً فظيعاً. أردت فعلاً أن لا أعود إلى البيت، أهرب إلى أي مكان.

ثمة شعور بالفقدان كان يحطمني. أبصق على كل القيم الروحانية التي كان العالم مشغولاً بها. في إحدى المرات دخلت كنيسة قرب نفق الشرطة. شعرت مرة أخرى أني أتجه إلى الله. لكن شعوراً داهمني، إنه لن يهتم بأشياء تافهة مثلي. جثوت أمام المسيح وأمه. دققت في ملامح وجهيهما. الطفل يشرق بنور الإضاءة القوية المسلطة من ضوء جانبي. أوقدت شمعة. كنت أريد العودة إلى الله فعلاً. لقد تعبت وأنا أجري في هذا العالم وحدي. كل يوم كان العالم يزداد وحشة. تفو عليكم يا أبناء القحبة.

توسلت أمام الصندوق أن يميت الله زوج راحيل. بكيت بغصص وشهقات. توسلت الله، تضرعته. ناجيته، قبلت يده وشاربه ولحيته الطويلة. أريد شيئاً لكني أجهل هذا الشيء. الإحساس بالضياع كان صعباً ومخيفاً. خرجت من الكنيسة وأنا أحس بالبؤس وأن الله طردني من حضرته ونوره. الأشياء الغامضة تزداد أمامي وكلما أنام أكثر مع الأصحاب الجدد الذين أتعرف عليهم كنت أبتعد موغلاً في ظلام عميق ودهشة مرنة. لقد كان هذا خياري، لكنه خيار بائس وصفيق. ما الذي سأفعله. كيف سأنتقم من زوج راحيل. لم أكن في الحقيقة قادراً على الانتقام وهو ما كان يحطمني أكثر وأكثر.

في بعض الأحيان حينما أخرج مع بعضهم ونبحث عن مكان لممارسة الجنس، كنت أفكر بها. أفكر فيها، أفكر في الحالة الحيوانية التي أعيشها. بقيت على هذه الحال فترة طويلة، أصبحت أذهب إلى منطقة أبعد من

البيت. تعرفت على المطيرجية وأبناء الخبازات والقوادين الذين اقترحوا علي أن أعمل معهم مقابل أجر مالي. لم أحب المال. كرهت النقود. كنت أريد فقط أن أمارس الحيوانية بدرجاتها العليا. أبحث عن التسامي الخلاق لكني على العكس كنت أربض في الانحطاط. تعلمت السرقة. أخذت أسرق أشياء بسيطة بصحبة بعضهم. سرقنا دجاج وخيار وبرتقال وتسللنا تحت المطر لسرقة النارنج من أشجار البيوت. بعضهم اقترح أن نعمل على سرقة البيوت لكني فشلت في التجربة الأولى. أصبحت أكثر معرفة بآفاق السرقات.

كنت أمارس عبثية مهينة وتكرر غيابي عن المدرسة. الوكر الذي عملته خلف سكة القطار، وضعت فيه بعض الأغراض وأردت أن أعمل له بوابة لكني فشلت. أخذت أجلب الأصحاب والمعجبين بي إلى الوكر وأدعهم يمارسون الحب معي. تحول الوكر إلى عالم ايروتيكي، صرت أقضي الكثير من الوقت فيه. أقضي كل الصباحات التي أقول فيها لجدتي إني ذاهب إلى المدرسة لكني كنت أذهب إلى الوكر، العالم، الضريح المقدس، ببغاوات إفريقية وخشب من جاوة وبخور من الهند الصينية.

الوكر كان صغيراً جداً، لكنه كان كافياً من أجل أن أسرح فيه طيلة النهار وكان العراة يتقافزون إلى البركة النجسة. كانت الرائحة في الوكر هي رائحة الخراء وبقع الدم والمني والبول السحري وهاربات وثنية تطنطن بأغان وألحان الشبق الأخير. لم أكن شبقاً لكني أردت كل العالم أن يغتصبني، كل الرجال حيث رغوة الشراب ورائحة العرق والويسكي. كنت أسكر حينما يجلب بعضهم قنينة عرق ونعربد سوية. انتبه إلى الوكر أحد البيوت وفي ليلة كنت أوقد فيها شموع الكنيسة. جاء أحدهم وأحرق الوكر، الكوخ، البيت والبهاء المتعجرف على مسارات النجوم والكواكب. بعد أن احترقت آخر الأشياء في الوكر غادرت العالم لاصطدم بعالم أكثر بؤساً.

أخذ بعض سواقي التاكسيات يأخذوني في مشاوير إلى الكاظمية وهناك وفي بيوت سرية هي عبارة عن فنادق غير مرخصة كانوا يقبلون مؤخرتي ويضاجعوني. لم آخذ نقوداً. كنت أريد من العالم أن يعيش بعيداً عنها. لم أعرف لماذا كنت أكره النقود والهدايا. كانوا يقدمون لي الكباب فقط وقنينة الكوكا كولا وكنت آكل بنهم ووحشة ظاهرة ومكتومة. ليس البهاء ولا السفن البحرية كانت تأخذني إلى الأماكن البعيدة. إنما اللغة المشوهة لسواقي التاكسيات وأصحاب محلات تأجير الدراجات الهوائية.

بعد الانتهاء من ممارسة الجنس كانوا يعيدوني إلى البيت. لم أكن أعرف كيف انتهى كل شيء لكن جدتي ربما علمت شيئاً بعد أن اتصلت المدرسة بها وأخبرتها عن غيابي المتكرر. أرادت أن تحقق معي وضربتني بنعالها البلاستيكي الأسود. تحملت الضرب والخوف لكني لم أعترف على أحبائي. لم أعترف لها أني كنت أبحث عن شيء وهذا الشيء كان سراباً ودجلاً وتمرداً ورغبة عميقة في تحطيم روحي، آه يا ربي ما الذي كنت أفعله.

شعرت بيقظة مفاجئة حينما أخذتني جدتي إلى المقبرة لزيارة أبي. وقفت أمام القبر تائهاً وأنا أفكر بالرعب الحاصل من انثيالي وتشتتي واندحاري. كنت مثل بندقية افرغت آخر اطلاقاتها لكن القتيل ليس شخصاً آخر إنما أنا كنت ذلك الموؤود والشارع والابنية والمتاهات والبرق والرعد واخر الأحلام القرمزية. كنت أحلم أمام القبر بالعصافير المجنحة وقوقئة الدجاج. المقبرة صامته صموتاً مدوياً وكانت جدتي تبكي وتمسد القبر كأنه حيوان أليف. كانت تقبله وترمي جثتها عليه وعباءتها تغطي الشاهدة. لكني كنت غريباً عنه، لم أعرفه ولم أتماه معه مثلما كانت جدتي تفعل. كنت عاراً أزلياً وعاراً ديماغوجياً وبروليتاريا رثة مكونة من القوادين والقحاب وسواقي التاكسيات وأبناء الخبازات واللمبجية وصانعي الخبز وأصحاب الأفران حيث كانوا يغتصبوني تحت السلم وفي مخزن أكياس الطحين.

كانت القحاب الشيء الأجمل في هذا الكون. كن يتمتعن بروح غريبة وعاشرتهن لبعض الوقت. كن هاربات ومطلوبات للقتل. كن يمنحن العالم المتعة والترف واللحم والأثداء وكان العالم يدير ظهره لهن ويقتلهن ويلاحقهن إلى أبعد من البحار والمحيطات. القحاب كن أكثر رأفة بي من بيت عبد الرحمن. عشت بعد أن علمت جدتي بغيابي المتكرر عن المدرسة، في جوع روحي. أخذت أشعر أني بحاجة دائماً إلى شيء ما لكنني لم أعرف هذا الشيء.

الابن الصغير لعبد الرحمن كان يكبرني بنحو خمسة عشر عاماً. حاول أكثر من مرة اغتصابي. في النهاية استطاع وهددني بأن يقول لجدتي كل الحكاية. حادثة اغتصابي جعلتني أعيش نوعا من الهلوسة. شعرت بالكره الشديد لبيت عبد الرحمن. عدت إلى الانتظام بدوام المدرسة. كنت أحمل كل يوم حقيبتي وأرحل أغلف النجوم بمسارات العروش الضبابية. العودة مرة أخرى إلى المدرسة منحتني بعض الاستقرار النفسي. كان هناك مكتب للاتحاد الوطني لطلبة العراق. هرعت إليه. قلت لهم إني أريد أن أكون بعثياً. عملوا لي أوراق الكسب الحزبي بسرعة ودخلت أول اجتماع. الانتماء إلى الحزب منحني أشياء جميلة. شعرت بأن قوة جبارة تريد الخروج من جسدي.

أخذت أعمل في الاتحاد الوطني بالإضافة إلى الحزب. الطاقة المشلولة داخلي غدت أكثر من شيء رومانسي. رومانسية الحزب والكلمات المقروءة في الاجتماعات كانت تمنحني حياة من نوع آخر. غرقت في النشاطات والاجتماعات وتمت ترقيتي إلى درجة حزبية أكبر.

صرنا في المدرسة نشكل تكتلاً قوياً. المسؤول كان يأتي من مدرسة إعدادية وهو أكبر منا سناً. قلت لراحيل حينما زرتها لساعات فقط أني أصبحت بعثياً، دهشت. جاء زوجها وجلس أمامي وأخذ يسألني عن طبيعة الاجتماعات وما نقوله فيها. لم أفش أسراري حتى حينما أصرت راحيل على معرفتها.

منذ تلك اللحظة كان هناك شيء مرير أخذ يتولد داخلنا، أنا وهي. أصبحت علاقتنا متأرجحة، ملغومة. كلما أزورها كنت أطلب منها أن تنتمي إلى حزب البعث، في النهاية قالت لي إنها شيوعية. انبهرت. أحسست أن حاجزاً تكون بيننا. الآن اضطربت البركة وحتى السماء لاحظت أنها تغيرت. ما تبقى من الحب دمرته بيديها، نثرته على امتداد مساحات شاسعة، لم يعد بالإمكان أن أجمع هذا الحب وألونه وأخضبه بروحي.

أصبحت زياراتي بعد هذه المحادثة روتينية جداً. كنا نلتقي مثل غرباء في محطة معزولة عن العالم، كنا نضطر مراعاة للشكليات أن نتحدث. كيف تسير أمورك في المدرسة؟. كيف جدتك؟، وحينما يصل الحوار إلى البعث والشيوعيين نكون قد فقدنا آخر الأشياء الجميلة في حياتنا. أصبح الحزب أباً جميلاً لي. كل ما أفكر فيه، أجده في الحزب. أخذت أمسك الخفارات في غرفة الاتحاد بعد انتهاء الدوام المدرسي. أول خفارة تسلمتها جعلتني أتأخر في العودة إلى البيت.

جاءت جدتي إلى المدرسة تبحث عني وحينما وجدتني ضربتني أمام رفاقي بنعالها البلاستكي الأسود ثم جرتني إلى البيت. قلت لجدتي أني أصبحت بعثياً. ضربتني بقوة مرة أخرى. قالت إنها لا تريد أن تفقدني كما فقدت أبي. السياسة خراء. لكن إصراري على البقاء في الحزب كان قوياً. حطمت نصائح جدتي وحطمت رفضها وفقاعات البصاق المرتجف في ثنيات شفتها. كنت أشعر أني مندفع بشكل جنوني في حبي للبعث.

لم أكن قادراً على وصف الحب لجدتي ولا لراحيل. كان شيئاً مختلفاً. من أجل الذوبان في الحزب أكثر، سألت المسؤول أن يمنحني سلطة دخول كل الاجتماعات وكان يحدث دائماً أن أذوب في المطر وفي النقاشات المدوية عن العروبة واليمين واليسار في الوطن العربي ومعركة المصير. علمنا المسؤول الأول معنى التماهي مع الحزب، الذوبان فيه وبه. هناك رسالة خفية وسرية وكلمات أكثر تأثيراً من أي شيء آخر عن الانبعاث من

الانحطاط والانصهار في الاهداف. أحببت الوحدة. ليست الوحدة التي أعاني منها، إنما الوحدة التي تعني الانصهار المعرفي والنفسي والروحي.

لم أحب الحرية والاشتراكية. بهرتني الوحدة العربية فقط. كان المسؤول يقول تخيلوا هذه الوحدة. وكنت أتخيل، لا بل أحلم روحياً. أننا أمة مقهورة، مجزأة، منخورة وكانت الأيدلوجيا واليمين واليسار وكلمات القائد المؤسس ومنيف الرزاز تمنحنا قدرة عقلية على محاربة الذين يريدون لنا الانحطاط.

التقيت بفقير أكثر من مرة. كانت لقاءات سريعة. لم نعد نشعر بأننا أصدقاء. فقير أخذ يعني لي أشياء جديدة. أشياء نقيضة لأهدافي. ملأت الكوخ الذي ننام فيها أنا وجدتي بشعارات الحب والحزب. ملأت كل انتفاخ وكل قطرة من الماء تسيل في أيام المطر بألوان الحب والوحدة والشعارات. ليست الوحدة أن نتجمع فقط، هكذا كان يقول المسؤول إنما أن نكون شيئاً أمام العالم.

هجرت كل شيء وتمسكت بالحزب لم يعد لي أصدقاء خارج إطار الحزب والأمة. خارج الوحدة القومية والأيدلوجية الثورية للحزب. كرهت أي شيء خارج الانثيال والذوبان أمام الأهداف. كرهت نزوعي الشخصي والرغبة الدفينة في الطفولة واللعب في الشوارع. نسيت هادية والغراميات الأسطورية. صرت أفتش في الحزب عن نفسي.

كان الحزب شيئاً صوفياً وبهاءاً كبيراً يغرق أعضاؤه فيه إلى الأبد. نوع التطهر الروحي الذي كنا نمارسه، كان عميقاً. اشتركت من أجل أن أذوب بشكل أكبر، في منظمة الطلائع والفتوة. صرنا نتلقى تمارين الحرب بأعمارنا الصغيرة، كنا نسير في الشوارع- بملابسنا الزرقاء- نهزها، نكسرها بضربات أقدامنا. حبنا للحزب والأمة كان يسيل على وجوهنا مع كل قطرة من العرق. حبي كان يشبه الأرخبيل حينما تدخله السفن المجهولة وترفع رايات القراصنة فوق المدافع المبلورة والمصنوعة من سبائك الضباب. هل

شاهدت الحب سابقاً.؟ هل عرفت ما الـذي يعنيـه أن تغنـي الببغـاوات في الجزر السحرية وبين الأشجار المدارية؟. اؤكد لـك أنـه شيء مختلـف. شيء من هذه الدنيا الملونة بدائيات الكلاب والافتراسـات العجـلى لـذئاب الـبر الوحشي.

كان عرقنا ينثال، يتأرجح، يتساقط، ينهمر، يسيح ويتمدد ثم يمتـزج بروحية بكائنـا وخـشونتنا المفاجئـة تـضـرب الأرض بأقـدامنا وشـعاراتنا تـستنزف التربـة التـي تحملنـا. كنـا نحـس أن الأرض، الـتراب، الحـصى، يتعاطف معنا. ولم لا يتعاطف، أليست الأرض عربية. ألـسنا حـراس هـذه الأرض..

راحيل حينما قلت لها أني انتميت إلى الطلائع، اهتزت وشـعرت أنهـا أبعد الآن من أي وقت.

- قالت هل تعلم أنك انتميت إلى منظمة فاشية.
- فاشية؟، أية فاشية، ليست فاشية، نحن نريد تحرير فلسطين.
- يكذبون عليكم. قالت. كلهم يقولون نريد تحرير فلسطين، لكنها كذبة كبيرة. منظمة الطلائع تشبه فتوة هتلر. تشبه منظمة الشبيبة النازية.

كرهت هذه الكلمات. لم نكن فاشية. كنا نريد تحرير فلسطين والحزب يبني شبابه.

- لا، أنتم النازية وحزبكم نازي.

كرهت، تبخرت في هذه الكلمة. نازية. هل يعقل أننا نازية. لا، ليس صحيحاً ما تقوله. تركت بيتها وعدت إلى التدريبات. كنت أقضي وقت مـا بعد المدرسة في الاجتماعـات الحزبيـة. بعـد الاجتماعـات كنـت أذهـب إلى تدريبات الطلائع. كنت أنجز كل شيء بدقة متناهية.

كلمات راحيل بالرغم من أنها كانت عقيمة إلا أني أخذت أفكر فيها. كانت تتردد في ذهني مثل ضربات ناقوس صغير. جرس معلـق في رقبتـي.

لكني كنت أبعد هذا الصوت. ابتعد عنهـا وأغـرق في أتـون الحـزب. قـال المسؤول في أحد الاجتماعات. هل يوجـد في عـائلاتكم أعـضاء في الحـزب الشيوعي.

وجدت أن هذه فرصة قوية لأحطم زوج راحيل، انتقم منه. لكنـي لم أستطع التفوه. قلت للمسؤول نعم. إنه أبي الذي مات قبل استلام الحـزب للسلطة. بهـر المسؤول واعترفـت ذهنيـاً أن زوجهـا كـان يقـيم الحفـلات الـصاخبة في المنـزل وبعـد الحفلـة يتقيـأ الرفـاق الـسكارى عـلى الأرائـك والسجاد وتقوم راحيل بتنظيف كل شيء. سمعت من المسؤول، أن الحزب الشيوعي يستخدم النساء لكسب الشباب. شعرت بتنمل أطرافي وهاجمتني مشاعر مضطربة وقاسية.

أحسست بصوت ذهني عميق يقول لي : لقـد تـم اسـتخدام راحيـل للكسب. يا لله كدت أجن. تعليمات المسؤول والخبر الذي نقله لنا محذراً من الوقـوع في المـصيدة الـشيوعية، جعلنـي أحـترق، أتلظـى. أعـرف القـواد زوجها. أعرف كل همساته ووضاعته. كان مستعداً لعمل أي شيء من أجل حزبهم. أخذت زياراتي لراحيل تتسم باضطراب وحقد مقدس دفين. كنت أشبه بالمخبول، متحولاً إلى شيء شرس. شيء مجنـون. جنـون التمـرد أخـذ يزداد في دمي. لم أعد أنام بشكل جيد. أخذت الهـواجس تقتلنـي، تـدمرني، تجعلني هباء منثوراً.

كنت أتصور راحيـل وهـي تنـام في أحـضان الرجـال وفي حفلاتهـم الطويلة والصاخبة من أجل كسبهم. أردت أن أموت أكثر مـن مـرة لكـن الموت كان يبتعد. فكرت أن أطعن زوجهـا بـسكين وأنهـي الأمـر. الفكـرة أخذت تتسلط على ذهني لكن حين أشاهد راحيل أفقد رجولتي.

لقـاءاتي براحيـل هـي عبـارة عـن صـخب وعبـث وصراع وتهكـم واهتزاز. كنت ألتهب حينما أشاهدها وهي تقرأ رأس المال. أشـعر أنهـا قـد رحلت بعيداً عني. هـل سأسـتعيدها؟. لم أكـن أعـرف لكـن الحـل هـو في

طلاقها من القواد زوجها. قلت لها الفكرة. دهشت ورفضت. الآن هي أم ولديها أطفال. لكن يجب عليها أن تعالج الوضع. كانت عنيفة وصلبة رغم هدوءها الشاحب. في بعض الأحيان تكون ناعمة جداً وهي تكرر طلبها لي بأن أترك حزب البعث وأنتمي لهم. قالت إذا انتميت للحزب الشيوعي فإنها سوف تساعدني لأسافر إلى الاتحاد السوفيتي لإكمل دراستي هناك. شعرت أني أكرهها أكثر. كان يجب أن أغير شيئاً، لكنني جبان جداً ولا أستطيع غرز السكين في ظهر زوجها.

البؤس الحاصل مع راحيل واليأس جعلني أكثر اندفاعاً في الحزب. أخذنا ننفذ خطة للكسب الحزبي. الشيوعيون أكثر حركة منا. كانوا مثقفين للغاية أو يستخدمون مصطلحات لا أفهمها. الانتصار على شيوعي في نقاش كان يعني شيء كبيراً. أخذنا نحمل عصيّا وننتظرهم. كانوا يمنحونا فرصة ضربهم وتهشيمهم. وزعوا في إحدى المرات جريدتهم في المدرسة. استطعنا بسرعة جمع النسخ وضرب الفتى الذي حمل الجرائد. أذكر أننا لاحقناه خارج المدرسة واستطعنا الإمساك به خلف سكة القطار. كان الحقير مرعوباً ويهتز.

ناولته أنا الضربة الأولى وشعرت أني كلما ضربته بقسوة أكثر أمنح نفسي انتصاراً أوسع. أخذ الدم يسيل من فمه وأنفه. كنت على وشك أن أجعله يخرى في بنطلونه. لم أعرف إن كان الشاب من منطقتنا أم من منطقة أخرى. بعد أن أوسعناه ضرباً تركناه مثل كلب يلعق جراحه. كانت هذه المهمة الأولى لي. شعرت بعد ضرب هذا القواد أني أكثر تماسكاً وطردت إلى الأبد التردد الحاصل في جسدي عند رؤية شيوعي.

كنا نحسبهم أغبياء لكنهم لم يكونوا هكذا. هم من أشعل الحرب. كانوا يكسبون الطلاب بسرعة كبيرة. لم نستطع مجاراتهم، لكننا نمتلك القوة. كل بعثي منا يحمل في روحه خلاصة الأمة وعنفوانها وجبروتها وطغيانها. كل شيوعي بالنسبة لي هو عبارة عن قواد يعمل على استباحة المحرمات، من أجل

الكسب الحزبي ومن أجل أن يكبر حزب فهد وباسم وماركس ولينين. كانوا ملعونين. مبهرجين بالغفلة. قوتنا الجهنمية كانت تلاحقهم. تهز عروشهم واستلاباتهم. كرهناهم لأنهم أقوى منا. لأنهم بغايا الحب المغدور والمسفوح على حافات وجعنا. كانوا بالنسبة لي أشياء ميتة ومبهرة. أضواء قوية من بعيد، حين تقترب منها تفاجئ بالبعوض والذباب ووحيد القرن والسحالي واليرقانات الدودية. كومة من الأحشاء والجيف التي تزكم الأنوف.

كانت راحيل تقول لي إن العرب ليسوا أمة، فأنفجر بالحقد. كيف هذا، يا الله وكأنها كانت تكفر بأجمل وأرق وأعذب المقدسات. هل صحيح أننا لسنا بأمة؟ وكل هذا التاريخ والرجال والتماثل والحروب وقهر الشعوب وجعلها مسلمة. الرعاع هم وحدهم الأمة والسوفيات وحدهم أمة. وحتى شعوب جزر الباهاما والسفرديم والغوي وكل الشعوب الأخرى بمن فيهم شعوب الهملايا والتوتو والهوتو و الهنود الحمر وشعوب قفقاسيا وجزر الارخبيلات الجميلة وهنود المونتانا والنيتف والبيض والإسبان والأكراد، أمة. أما نحن فلا، يا للشناعة.

كرهت راحيل. كانت تنفيني، تقصيني، تدفعني إلى الركن المجهول لبقايا الشعوب آكلة اللحم البشري. كنت أتقوقع إلى صدفتي فيما هي تباشر ضرب هذه الصدفة بمعول النظرية من أجل أن أنتحر إلى الأبد. أنا شوفيني، فاشيستي، هتلري، منشفي. كل اسم للعروبة يعني شوفيني. نحن الوحيدون في العالم الشوفينيون فيما الشعوب الأخرى التي تحب قوميتها، ليست بشوفينية وليست بنازية.

شعرت أني مع عروبتي مساكين هذا العالم النجس الذي يريد نتف ريشنا وسلخ جلودنا وأن نظهر للعالم عرياً. كلهم يريدون قتلنا واستباحتنا مثل هنود الداكوتا ومثل الغجر. يا ليسوع المقدس ويآلامه المسكينة. وأنا المسكين الوحيد في هذا العالم الذي يحمل شموعه بيده من أجل أن يجد مكاناً في عالم الاضطراب والاستهتار.

كنت أشعر أنني مهضوم، مأكول مثل السمكة. مشتت، الجميع يريد التهامي وأنا بائس لا يملك في هذا العالم غير حبه للعراق وللبعث والعروبة. عروبتي هي إسقاطات برجوازية فقط، ولتكن برجوازية ولتكن شنيعة ولتكن قبيحة ولتكن عاراً لحاملها، أريد أن أحمل هذا العار، أريد أن أكون دينوس وأن أكون نيمو المسكين وأن أكون إله هندي تعبدني القبائل.

أردت أن أكون هبل ومناة وذو الشارة وكل الآلهة الأمومية في عهر الرجال. أنا عبد المصطلق وربيعة والأوس والخزرج ومحمد وعلي والوليد بن المغيرة وكل الدهاة من أمية بن الصلت حتى أمية القرشي. كلهم أجدادي وأنا أحن وأبك مقاتلهم وأبكي خرائياتهم وأبكي جبروتهم وبأسهم وبؤسهم.

أنا الوليد والجوشن وصاحب مفاتيح الجنائن المعلقة والأمم الغابرة وسروج خيل سرجون ونبوخذنصر واينانا وتموز وكل ناتج الأرض والسماء. كنت أشعر أني خلاصة كل شيء، خلاصة كل هذا التاريخ والأمومة والبهاء القدسي، وأنا أيضاً سفر ايوب وموسى وأنهار الخمر والميسر واللحوم الطازجة والعذارى ونساء الجنة.

لماذا تقتليني يا راحيل؟ ارجوك. كوني معي وتمتعي بكل البهاء الأسطوري لأجدادنا، لا تكوني عارية الجسد مثل الآخرين. لا تكوني مع البغاء السياسي والتدمير لذاتنا الملهوبة ظهورها بسياطكم اللاذعة وأنت تجلديني إلى الأبد بسوط القدرة وسوط التماثل التاريخي ودورة الزمن الحلزونية وخرائيات ماركس وانجلس ولينين وجواد القندرجي وفهد وباسم وباقي العصابة الأممية.

كنت أعجب بك، أعجب بفكرك ورزانتك وطهرك الأبدي والتاريخي. لكنك كنت تكرهينني وتبتعدين عني إلى مسافات شاسعة من الوجع والتراكم المفصلي وانحطاط الفكرة الإهبة. هؤلاء المبثوثون في تلابيب إغافاءاتنا السحرية يريدون منك أن تنزعي التاريخ والميثولوجيا

البابلية. أن تتركي اينانا وحيدة والآلهة الأم كلها تتركينها إلى الهباء الكوني.

أردتك معي في جنان الخلد. في جنة الفردوس والرضى والتماهي داخل أحبتنا. للأسف كل شيء اختلف وها أنا وإياك على طرفي نقيض ورغبة في تحطيم أحدنا للآخر. أنت حينما لا تبتسمين لي ولا تمحضيني حبك وأنا في ابتعادي الجهنمي عنك وارتعاشي حينما أعرف أنه ليس جسدك فقط أكلته الذئاب. لكن حتى عقلك وحلمك واحتلامات الآلهة التي تمحضنا الرضى والبقاء السرمدي.

لم يتبق شيء نتفق عليه، هي وأنا. كل واحد منا بدأ يشكل عالمه وأصدقائه وأحبته. هي وزوجها وحفلات الكسب الحزبي وأنا وفقري وجوعي وتهتكي وانديايحي وألم ممض يحز في قلبي ويجعلني متناثراً لولا الحزب الذي يجمع شتاتي وانصهاري ويعيد تركيب روحي من جديد.

الفصل الثالث عشر

عندما تستقيظ الزنابق فوق البحيرات الخشبية، عندما تمتلئ السماء بزهر النرجس واسماك حجرية، ساهجع إلى اليخوت الملتهبة من أجل أن امتص رضابك. ساروح غاديا وعارما ومملوءا بالبصاق احمل افتراضاتي. سأركع في الدينونة الجديدة أمام جسدك الملوث بمباضع الجنون واغرس في عصفورك راية اندحاري إلى الأبد. جنوني يبعثرني وحينما يرعشني عريك الوحشي، اتموضع ملتفا مثل افعى لاقبل كل اصبع من أصابعك الطويلة واعلنك اميرة الامطار.

زارتنا في بيت عبد الرحمن، الأخت الصغرى لعاطفة واسمها عزيزة. كنت جالساً في الصالة أتابع التلفاز حينما مسكت بنطلوني بشكل مفاجئ. ذهلت. كانت الصدمة قوية. لم ألتق في حياتي بامرأة شهوانية بمثل هذه القوة. قلت ماذا تريدين. وقادتني مثل معزة تائهة إلى خلف البيت ونزعت بنطلوني وأخذت تمص عضوي. لم أكن قد بلغت مبلغ الرجال. بالكاد كان حيائي قد انتفض وتمطى. شعرت في تلك اللحظة وهي تدفع به إلى فمها أني أود التبول وحينما قلت لها هذا سقطت في خيبة كبيرة.

تركتها وأنا مهزوز ثم رحت وتبولت في المغسلة. بعد انتهائي من التبول عدت مرة أخرى. كانت قد رفعت ثوبها ولم أشاهد أنها كانت

ترتدي لباساً. لم أستطع مشاهدة حيائها. كان مليئاً بشعر أسود كثيف للغاية. قالت لي قبله لكني لم أستطع إذ أن الشعر الكثيف كان يوخز فمي وكأنه أبر شيطانية. فيما كنت مستمراً في الحركة الترددية شعرت مرة أخرى أن مثانتي مملوءة بالبول. قلت لها هل أستطيع أن أتبول داخله، رفستني مثل كلب وقمت مرة أخرى إلى المغسلة وتبولت هناك فيما كانت ساقي ترتعش..

استمرت مغامراتي مع عزيزة فترة طويلة. أصبحت مدمناً ونائحاً مثل قبرات وهي تغادر أعشاشها من أجل نزواتها المتوحشة. كل يوم. كل ساعة. كل فرصة كنا نستغلها ونمارس اضطجاعاتنا المدوية خلف البيت وفي الخرابة المجاورة وفي الصالة الفارغة وفي البالكون والغرف والحمامات والمراحيض وفي غرفة نزع الملابس وخلف التنور وفي الحديقة وخلف البيت وقرب المدخنة وفي السطح الأول وفي السطح العالي وخلف برميل الزبالة وفي الخرابة المجاورة وخلف (تانكي) الماء في السطح وفي الظلمة وفي النور وفي المساء.

أصبحت لا أفكر إلا به ولا أعيش إلا من أجله. نسيت حياتي والحزب والاتحاد الوطني ومنظمة الطلائع ودروس الثورة العربية. كنت انام فيه واتموضع في خندقه وهو مثل الزرزور النائح والقبرة الحزينة والحبارى العالية والبلابل المجروحة واليوكالبتوس في ارتعاشاته والجهنميات في تكلكلها. كان قندلفت حياتي وسيد المبجلين وهيام المحبين وسؤدد المبتلين وتوحد الصوفي وسفن الابحار وآلهة قريش وجنون الحاقة وبؤرة التمرد وجنهم المغرمين وجنان الخلد المبين وروعة الناظرين ولهفة المحبين وزجاج السكارى وخمر المتعبين وعيون المها وحزن الثكالى وبكاء الداخلين إلى جهنم العظيمة.

كنت أتلهف له مثل طفل،مثل أم، مثل حلمة ثدي تريد من الآخرين امتصاصها ولهفتها وجوعها وعريها وخالها وارتعاشها. كنت أرتجف أمامه

وهو مثل إله العواصف يدفعني إلى بؤرة الريح والرعدة الخفية والشاهول الذي به تقام البنايات وتستقر البروج وتقام الموائد ويفرش السماط ويأكل الجوعى ويلبس العراة وتتجمل الملوك ويتحرر العبيد وتعزف الغانيات وتنساب الألحان وتضيع الشهقة وتتفجر الشفطة.

كنت أدفن رأسي فيه وكان عطره يجتاحني اجتياحاً ويدمرني تدميراً ويفلشني تفليشاً. أقف أمامه وأنا عاري الجبهة ومتحطم الفكرة ونائح السكرة. خفيفاً، مقرفصاً، خائفاً، هلعاً، نادماً، مشغولاً، بإفرازاته وانقباضاته وانتحالاته. كان جنوناً صرفاً وأغاني حزينة وبعداً ميتافيزيقياً وأنواراً متلألأة وموجات مترجرجة. أتذوقه فيصيبني الدهاء والنكران والبغاء والتصحر والتماسي. بين تلاله تنام البرقات الكونية وتعوي كلاب العتمة وتنساب الذئاب وتتوهج الجمرات ويصنع البدوي قهوته على ناره والصياد يصيد بسهامه والغريق يتشبث بظهره والبحار يركب سفنه.

بعد رحيل عزيزة بسبب تقدم شرطي للزواج منها شعرت بخراب روحي كبير، وبالرغم من أن الانشغالات الكبيرة بها قد انقضت إلا أني أحسست أني أسير وموضوع في سجن كبير.

في إحدى المرات جاءت عزيزة لزيارة أختها زيارة سريعة. كنت أنا في كوخنا ومددت يدي لا أراديا إلى حيائي وبمجرد تحريكه واللعب معه صعدت إلى روحي شهقة قوية ومخيفة ومنذ ذلك الوقت ادركت أني قد دخلت ملاعب البالغين وانبثق شعر الإبط والعانة وأحسست بعد ممارستي العادة السرية لأول مرة أني مدمر تماماً. لم أعد أستطيع الحركة والتفكير في أي شيء سوى عزيزة. كنت أحلم بها كل يوم تقريباً وكانت الكوابيس تمخر بحري كما تمخر السفن أعالي البحار وتحطم الجليد والثلوج.

في المدرسة يحصل غالباً أن أذهب إلى خلف المراحيض وأمارس الاستمناء وإذا كان هناك ثمة أحد قبلي، أذهب إلى مقر الاتحاد الوطني وأخرج الجالسين وأبدأ بالحلم بعزيزة وإفراغ جسدي من البسم القاتل. كل

شيء تبدل منذ تلك اللحظة الملعونة لرؤيتها. في الشارع أخذت أنظر للنساء على أنهن مشروع للمضاجعة وكنت حينما أعود إلى البيت أمارس العادة السرية حالماً بالنساء اللاتي شاهدتهن.

كان جنون يضرب وجهي وجسدي ولم أكن قادراً على إيقافه. كان يهدر معربداً وجباراً في صوته ونداء الجنون يرعبني بدعواته الجهنمية والميتافيزيقية. أخذت مع تفجر الرغبة الجنسية أدخن وبدأت أشتري علب السجائر باستمرار وأذهب للتدخين في السطح ثم أمارس العادة هناك مرة وثانية وثالثة وحتى ينبثق الدم.

أخذت أفكر بالجنون الذي وصلته وبعد ذلك أردت أن أعود لزيارة هادية من أجل أن أمارس الحب معها لكنها لم تقبل اذ تعرفت على مطيرجي في المنطقة وأخذت تزوره باستمرار. تركت هادية ومع الجوع الجنسي المتفحم، أخذت أراقب نساء الجيران من السطح العالي وهن يغسلن الطارمات وأمارس أمام هذه المشاهد الاستمناء بجنون وحيوانية.

النساء والفتيات اللاتي يستخدمن الباصات كان لهن نصيب من مراقبتي أيضاً، إذ كنت أختبيء تحت السلالم أراقبهن وهن يصعدن سلم الباص. كنت أشاهد مشاهد معقدة وملتوية وروحي تخفق باضطراب لمرأى السراويل الداخلية والأفخاذ. مع مرور الوقت أصبحت لدي قائمة بالأماكن التي أستطيع فيها الحصول على لقطات عري. نساء الجيران، غسل الطارمة، الباص ثم النساء اللاتي يصعدن سيارة الأجرة. في الباص غالباً ما أجلس بجانب امرأة أتوسل اهتزازات الباص التي تمنحني لوعة وحرمان وبهرجة وضياع وتمرد ورعونة الملامسة المخيفة حيث تتسلل حرارة الجسد الأنثوي إلى جسمي. غالباً ما يكون كوع اليد هو الذي يصطدم بالفتاة وفي أحيان كثيرة كنت أحاول فزعاً وخائفاً ومتردداً أن ألصق ربلة ساقي بساقها.

حتى في الصيف اللاهب ونحن نُسلق في أزيد من 50 درجة مئوية

كنت أتحسس الدفء المنطلق من المرأة المجاورة لي. ابن عبد الرحمن الصغير، أخذني إلى بيت لممارسة الجنس مع قحبة لكنني فشلت واكتفيت بالإصغاء لقصة حياتها ومجيئها من المغرب إلى بغداد لأجل إعالة أطفالها. خرجت من البيت وصعدت باصاً وجلست قرب امرأة بعباءة سوداء كانت على ما يبدو من باعة الكرفس في علاوي الحلة. كانت رائحتها زنخة وزفرة السمك تفوح من عباءتها. وضعت المرأة سلة الكرفس بين ساقيها مما جعل فخذها يلتصق بفخذي.

كانت الفصل شتاءاً وشعرت على الفور بسخونة تتسرب إلى فخذي ثم إلى باقي جسدي. دفعت بساقي أكثر إلى ساقها وأصبحت المنطقة التي تلامسها هي أعلى الفخذ مع ربلة الساق. لم تتكلم، الدفء أصبح أكبر ووسعت مساحة الالتصاق وأخذت أعاني من انتصاب أسطوري. انتبهت المرأة فجأة وصرخت بوجهي

ثم تناولت نعالها الأسود وضربتني به. هبطت من الباص. مشيت في الشارع البارد وعظامي ترتعش وصدغي تتفجر منه النيران. توقفت في محطة باص ثانية بانتظار حافلة تقلني إلى البيت. حينما جاء الباص تدافع الناس إلى الصعود والتصقت بامرأة كانت أمامي. دفعت فخذي بين ساقيها. نظرت المرأة نظرة مخيفة في عيني فسحبت ساقي ونزلت من الباص.

قررت السير إلى البيت دون استخدام باص. لكن الآلام المنطلقة من أسفل بطني كانت تعربد. قررت الدخول إلى مقهى والاستمناء. وجدت مقهى حسن عجمي أمامي وبعد الاستمناء في المرحاض المضاء بمصباح أربعين واط. خرجت وأنا منهك وحالة من الذهان تضرب عقلي. شربت شاياً فيما كنت أنظر إلى الشارع بنوع من التيهان، لمحت كلبة تسير مع كلب فقررت اللحاق بهما. دفعت ثمن الشاي وانزلقت إلى الشارع.

الحيدر خانة تعج بالمارة. تسلل الكلب إلى بيت خربة وبدأ يمارسان

السفاد. اشتعلت الغصص في رقبتي وعادت إلي أوجاع أسفل البطن ومرة أخرى شعرت بالتهيج. وجدت مرحاضا عموميا فذهبت ومارست الاستمناء حيث قذفت على الحائط إذ لم أكن أحمل ورق (كلينكس).

عدت إلى البيت وأنا أشبه بالمسرنم. تناولت طعامي بحيوانية كبيرة وأخذت جدتي تنظر إلي باستغراب. بعد الانتهاء من تناول الطعام قررت أن أصعد إلى السطح العالي لمراقبة مَن مِن نساء الشارع تغسل الطارمة. فيما كنت أصعد السلم تناهى إلى سمعي صوت عاطفة وهي تقول. لا، ليس الآن يا عمي، احترم ابنك. دورتي الشهرية. الآن.. لا. لا. وغرق الصوت في التردد.

كان صوت الرجل غير مسموع لكنني استطعت التقاط كلمات متناثرة. كان يطلب منها أن توليه الدبر. انقطع صوت الكلام وبدأت نحنحة وشهيق واستغاثات وآهات طويلة. تسللت بهدوء وكأني قطة ورحت أحاول النظر من ثقب المفتاح. المنظر كان رهيباً. اكتشفت أن الرجل كان عبد الرحمن وعاطفة تنظر إلى السقف فيما هو يمسك شعرها الطويل ويسحبه إليه وكأنما يمتطي حمار.

في المتوسطة تعرفت على فتى يدعى انهار. كان إنساناً شرساً، أردت أن أجعله عضواً في اللجنة الاتحادية. اشترط هو أن يكون نائبي. وافقت وأنا أفكر بأن أجعله حارسي الشخصي وذراعي الأيمن لضرب الشيوعيين.

بدأ انهار يفرض حضوره في اللجنة الاتحادية ومنذ اليوم الذي جعلته نائباً أخذ مدير المتوسطة يحسب لنا حساباً. كنت آخذ انهاراً معي للاجتماع وكان المديريتقلص وينظر كل لحظة إلى انهار.. في اليوم السابق للسابع عشر من تموز، بتنا كأعضاء في الاتحاد الوطني داخل المدرسة من أجل التهيؤ للاحتفال في اليوم التالي.

بعد انتصاف الليل جاء انهار بقنينة عرق وأمام توسل الرفاق، احتسينا القنينة وفجأة أخذنا نضحك بحيوانية كبيرة وشعرنا أننا نطير

ونحلق في سماوات دانتي. أخذ أعضاء اللجنة يرقصون وشعرنا أن كل القيود الحزبية تتحطم وانطلق من داخلنا شيطان رهيب. صعدنا سطح المدرسة وأخذنا نراقب النساء في البيوت المجاورة، وعبر الظلمة أخذنا نمارس الاستمناء. بعد الانتهاء من الاستمناء والفوضى والخراب والرقص جمعنا كل القناني الموجودة في المدرسة ومع التيه والتعتعة صرنا نقذفها باتجاه البيوت المجاورة.

عم الهرج وخرج الناس، وفجأة اقتحمت سيارات النجدة المدرسة. في الاضطراب الكبير والصراخ واللعنات والشتائم والتقيؤ والظلام تمكنا من اجتياز سياجات المدرسة وهربنا في الشوارع وأصوات الشرطة وصافرات الانذار تلعلع خلفنا.

بعد انتهاء عملية الكسب الجماعي تمكنا من أن نجعل كل الطلبة الذين انتموا إلى الحزب يوقعون وثيقة تقول إنه إذأ ارتبط أي واحد منهم بحزب غير حزب البعث يكون مصيره الإعدام. انتبهنا إلى أن الرفيق المسؤول الذي أصبح فيما بعد القواد الخاص بعدي، يصر على وجود وثيقة الاعتراف والإعدام ويعتبر أنها الأهم من ضمن الوثائق المطلوبة.

من لم ينتم للحزب كان مشكوكاً فيه، مشكوكاً في ولائه للامة وخائن وعميل، بهذه الصيغة كان الرفيق المسؤول يقول وهو يضرب الطاولة بقبضته وكنا نرتعد وهو ينظرلنا بتلك النظرات التي لم أزل أتذكرها وكانت مرعبة وقاسية جداً وتسبر أغوارنا وتقلب أحشائنا واحداً بعد الاخروتمزقها وتنثرها على طول غرفة الاجتماعات.

كان المسؤول أسن منا. يأتي من المدرسة الإعدادية ويشرف على تنظيم الحزب في المتوسطة وعلى الاتحاد الوطني لكن الإشراف على الاتحاد أصبح فيما بعد من مسؤولية شخص آخر يقيم في الكاظمية ضمن مكتب سكرتارية الاتحاد الوطني.

أخذت بعد فصل المسؤوليات اجتمع مع مسؤولي في الكاظمية. الاجتماعات الأولى كانت بصحبة الرفيقات مسؤولات الاتحاد الوطني في المتوسطات. أحببت تلك الاجتماعات، جعلتني أبدو مشرقاً وأعتني بملابسي بشكل كبير. اشتريت أول قنينة عطر في حياتي من علاوي الحلة ورحت أضع الكثير بحيث أن المسؤول نبهني إلى أنه يجب أن أقلل من العطر وإلا سيموت.

كانت تواجهني مشكلة عويصة وهي كيفية الحصول على ملابس مناسبة- كل ملابسي كانت من البالة- و كنت أشعر بالعار من حذائي أيضاً الذي كان مليئاً بالرقع وأماكن الخياطة المتتالية. لم يستمر الحال على ما هو عليه وتم فصل الرفيقات عنا. شكل هذا بالنسبة لي صدمة كبيرةومؤلمة حيث تحولت اجتماعاتنا إلى اجتماعات ذكورية صرفة وبائسة ومملة. كنت اكره هذه الاجتماعات وفي أحيان كثيرة كان الزملاء والرفاق يطلقون فساء خفيفا لكنه فساء فظيع خارج من بيضة مسلوقة فاسدة.

انمار الذي توثقت علاقتي به علمني طرق جديدة للاستمناء. الأولى أن نأتي ببطيخة (رقية) ونثقبها. أما الثانية فهي أن نشق مخدة مصنوعة من الاسفنج ونضع فيها الزيت وكان هذا شيئاً مهولا اذ تشعر بالدف فعلاً ويداهمك إحساس الخدر والتوهج والاشتعال. كنت أسير مثل معتوه جنسي، مثل كلبة تريد السفاد وكنت مستعدا لمضاجعة أي شيء.

فكرت بالقطط وأخذت ابحث عن واحدة من أجل استمالتها. في البداية نجحت واستطعت استمالة قطة عابرة وبعد شهور من اطعامها وحينما تمكنت من امساكها تبين أنها ذكر وليست أنثى. الجوع الجنسي كان يدمرني ويحدث لدي انتصاب لمشاهدة أي شيء، طائر يركب انثاه، كلب ينزو على كلبة، حمار يمر بدور السفاد. مع الوقت أصبح الاستمناء غير نافع.

انتبهت فجأة إلى وجود عاطفة في المنزل. ابتدأ كل شيء حينما دخلت

البيت وشاهدتها تنظف المنزل وتضع أطراف دشداشتها في لباسها الداخلي. في ذلك اليوم الملعون اكتشفت أفخاذها البيضاء الضخمة والطويلة. دمرني هذا المشهد السماوي. حرقني بنار مبهمة وغريبة. صرت أحلم بعاطفة باستمرار وأقذف دائماً حينما تلمسني أصابعها الطويلة وأتشمم عطرها الرهيب وهو يضوع في أرجاء البيت.

في إحدى المرات اكتشفت لباسها الداخلي موضوعا تحت كومة ملابسها في الحمام. كانت ملابس وسخة معدة للغسل. شاهدت الافرازات المهبلية على اللباس وفي لحظات شعرت برهبة الموقف، انحنيت وقبلت اللباس في المنطقة صفر. كان شيئاً أفعله لأول مرة لكنني لا أعرف لماذا انحنيت و قبلته. كنت أدخل الحمام دائماً في الوقت الذي تخرج منه وأجلس هناك، في البخار اقرأ تعاويذي وسحري وأقرأ تراتيل الألم الممض الذي ينهشني. مع اللباس صرت أعرف دورتها الشهرية وأعرف دورات التخصيب وأعرف أيضاً الأيام التي تكون فيها حزينة أو فرحة.

كل شيء كان موجوداً في اللباس وحتى الاحتلامات الليلية كانت مدونة بقوة وكأني أقرأ في كتاب المدراشا هذا التاريخ الأسطوري لمسيرة أنثى في بيتنا. أحببت الإناث. أحببت المرأة والأنثى والانوثة والانثيانية والجنسانية. صرت مع مرور الوقت خبيرا بتقلصات الرحم والمهبل والولوج والخروج. كنت اجمع مادتي العلمية من لباسها الذي كان عالماً متكاملاً من الابنوس والعطور والروائح والابخرة والمياه والافرازات والامخطة واللزوجة والعهر والعصبية والانثيال والخيبة والالم والوجع والخراء والبول والدم، الدم الذي كانت نقاطه الارجوانية تنبعث في سمائي مثل نجوم سداسية وخماسية وكنت أنا تحت النجوم اهجو وارقص رقصات الغجري وهو يسير في الطرقات والقرى يبيع خواتمه ويقرأ الطالع للعجائز والزوجات والعانسات والارامل.

بمرور الوقت أصبحت مدمنا على شم اللباس. كانت تغيره كل

عشرة أيام وكانت هذه فترة كافية لأن تكون الرائحة فعالة وجذرية وملتصقة. رأسي وعيني وانفي كلها أصبحت عبارة عن مجسات، كنت ادخل الحمام مثل صرصار ابحث بلوامسي وشعيراتي عن بقاياها وكنت اجدها في الماء الوسخ وفي رغوة الصابون وفي ليفة الاستحمام وفي الصابون وفي حجر القدم وفي المياه المنثورة في ارجاء الحمام.

خطرت في بالي فكرة التلصص على عاطفة أثناء استحمامها وعندما هممت بتنفيذ الفكرة اكتشفني زوجها وانهال علي ضرباً. حينما كان زوجها يضربني كنت أفكر أن أشي باغتصاب الأب لعاطفة لكن قوة غريبة منعتني. بعد هذه الحادثة أخذت عاطفة تضع كيساً من البلاستك الأسود على نافذة الحمام وأصبح النظر إلى الداخل مستحيلاً.

تركت هذه الطريقة وفي فترة البحث عن طريقة جديدة اكتشفت أن الأخ الأوسط كان يضاجع عاطفة أيضاً في غرفتها حينما يكون زوجها مسافراً إلى الشام حيث يعمل سائقاً لشاحنة. تكررت المرات التي ضاجع فيها الاخ الاوسط عاطفة ولم أستطع في كل مرة من مشاهدة أي شيء. عدم المشاهدة هذا مع سماع أصوات التنهدات كان يدمرني وصرت أحلم بعاطفة كل يوم تقريباً حيث أمارس الجنس معها حلميا.

في إحدى المرات كانت تجلس في المطبخ وزوجها ممدد قربها. لا أعرف كيف لمحت وجودي خلف الستارة الفاصلة بيننا. أخذت تتمعج وتنحني على سروال بيجامة زوجها وتقرب فمها بحركات داعرة. كنت أنا أنظر واضرب الحائط واغمش بأصابعي وجهي وفمي وعاطفة تمعن في اذلالي واخصائي بأن تفتح ازرار دشداشتها وتنحني وينهمر الثدي مثل زوبعة ثقيلة وقاتلة.

في بعض الأحيان كانت تفتعل الحديث معي. تقول تعال إلى غرفتي لتساعدني في حمل بعض الأشياء. كنت ادخل غرفتها مثل المجنون. في بعض الأحيان كانت تشتكي من أن زوجها لا يمارس معها الجنس كثيراً. كان عنينا إلى

حد ما. وكنت اتحطم وأنا أسمع احاديثها الملتهبة لكن جبنا كبيراً كان يسكت لساني ويغلق فمي. كنت أرى ملابسها الداخلية على الأرض، منثورة، مبهرجة، تشبه بهلولا يلبس ملابس المسرح أو السيرك ويستعرض ألعابه أمامي.

لم أكن أستطيع الهروب منها. اسرتني مثل عنكبوت. أخذت أشعر بعبودية هائلة لها. اقبل لباسها الداخلي أمامها وكانت تضحك وحينها اغادر غرفتها اذهب إلى المرحاض للاستمناء أمام الصراصير والبق والذباب المتطاير.. أردت أن أقول لها إني كنت اتجسس عليها دائماً، لكنها لم تسمح لي بالمزيد من الكلام. كانت تعرف أني اكذب واني اؤلف الاحاديث والقصص وكانت تضحك في سرها لهذه الاحتلامات النهارية والغيبية المتراصة مثل احجار قوية مفتتة. لم أعرف كيف يمكنني الحصول عليها. رغم أنه ليس بيني وبينه إلا قماش الدشداشة الشفيف.

كنت أشعر أني بحاجة ماسة وفورية وجنونية لتقبيله. أردت أن المس طهره الناري، المس غفواته ونهاراته ولياليه وابعاده ومساحاته ومسافاته وغيومه وامطاره.

- متى سوف أراه؟ يا الله، فقط قولي لي. أقبل يدك، أغوص في غائطك. أغتسل ببولك. فقط أريد أن أراه.

وتنهض بعصبية. تهددني بأنها سوف تقول كل هذا لجدتي ولزوجها. انهار واتوسلها من جديد أن تسكت.

كانت تسلية مرعبة تمارسها على روحي. أصبحت أسير وراءها مثل كلب، مثل جرو، مثل عبد مستعد لتنفيذ كل شيء. العبودية التي وضعت نفسي فيها كانت قاسية. كانت تطلب مني أن اتجسس على عبد الرحمن وكل افراد العائلة. أي كلمة تقال عنها كنت انقلها لها على الفور وكانت تمنحني لقاء هذا رؤية لباسها الداخلي أو أن ابقى في غرفتها من أجل مشاهدة المجلات الجنسية التي يجلبها زوجها.

مع مرور الوقت أخذت أشعر أني شبه مجنون وان هذا الجنون يتسرب إلى جسدي دون أن اتمكن من منعه. ثمة غصات أخرى تصعد إلى فمي، في كثير من الأحيان أكون غير قادر على منعها. لم أعد أشاهد أي شيء. أية امرأة لم تعد تثير اهتمامي، فقط عاطفة التي تحولت إلى ملاك مدمر ينشر الخراب في كل حياتي.

في العطلة الصيفية سجلت في معهد لتقوية معلوماتي في الرياضيات، كانت في الصف الدراسي اربع اناث، واحدة أخذت تظهر ميلا لي وحينما كنت اعلق بعض البوسترات على الحائط لمساندة المقاومة الفلسطينية كانت تقف خلفي مباشرة وتضغط جسدها على جسدي. لم أشعر باي ميل نحوها. أخذت تكتب لي الشعر. أحد الاصدقاء في الصف انتبه إلى ميل هذه الفتاة ثم انتبه إلى أني لا اعيرها اهتماما.

بعد أيام قالت لي أنها تريد أن نخرج سوية إلى الزوراء. في البداية رفضت لكن صديقي في الصف قال لي أني اخطأت واذا لم أكن اريدها فهو يريدها. خرجنا إلى الزوراء بعد انتهاء الدروس. كانت درجة الحرارة تقترب من الخمسين والفتاة تلبس بنطلونا جلديا. وصلنا الزوراء وأخذنا نتمشى في الحدائق وحينما أقتربنا من مكان بين الأشجار، سحبتني الفتاة وقبلتني. اعترضت على القبلة لكنها قبضت بأصابعها على موتي. صديقي الذي كان يراقب لنا الطريق. ترك الحراسة وأخذ ينظر مثل المخبول. لم أستطع التواصل مع الفتاة. كنت خائفا من أن تحبل أو أن تكون حبلى وتريد توريطي.

طلبت من صديقي أن يأتي وأخذت مكانه في المراقبة. بسرعة أخذ صاحبي ينزع عنها بنطلونها الجلدي ثم بطحها على الأرض، أخذت تتلوى وهو أيضاً ثم أخذا يتعرقان بجنون وأنا الهث مثل كلب. لم أستطع الانتظارأكثر وشعرت أن أعصابي تكاد تتحطم. لو أنتظرت ربع أو نصف ساعة أخرى لتحولت إلى حيوان وهاجمت الفتاة لاغتصابها. لم أعرف

تفاصيل ما حدث بعد هروبي إلا في اليوم التالي حين التقيت صديقي وحدثني عن الفتاة وقال إنها كانت عبارة عن جيفة متنقلة وتعاني من التهابات كثيرة واراني منديل بعد أن تشممته اصبت بالغثيان.

اقامة علاقة مع فتاة أصبحت بالنسبة لي شيئاً مستحيلا. جدتي المسكينة لم تفهم ثوراتي الداخلية وتمردي واحباطي. في كثير من الحالات أكون متوترا، عصبيا واهاجم جدتي بشكل شنيع وبعد الانحطاط الفكري والثورة الداخلية أمارس العادة السرية وأشعر بعدها باحباط كبير وقلق. منذ اليوم الأول الذي قذفت فيه، أخذت طاقتي تهرب مني وساقي ترتعش وحتى ذهني أصبح مشوشاً وغير قادر على التركيز.

في الصف غالباً ما أكون ساهما اطارد أحلامي الموبوؤة بالجنس والأصوات وعاطفة. كان الاستاذ يشرح لكن بالرغم من محاولاتي لم أستطيع تذكر كلمة واحدة. في الاتحاد وفي الاجتماعات كنت مشلولا، مباحا، أشبه بجذع شجرة بائس ومنخور ولم أعد أشعر بالحماسة والتدفق لانجاز مهامي. العطش يدمرني واليأس يلوك روحي مثل ماكنة ضخمة تقذف بنفاياتها إلى العالم.

كنت أرى عضوها في كل شيء، في الطعام وفي البيبسي كولا وفي البرد والصيف وأمام الباصات وفوق الأشجار وفوق الغيوم وبين اسنان القطط. أكثر من مرة فكرت بالانتحار. كنت اتألم بشناعة ورغبة الموت تمتصني واناشيد كلكامش والجنائن المعلقة والبوابات البابلية والمعابد السومرية تشحن في آخر امصال الروح. لكن الكهنة لم يعرفوا الألم الذي ارزح تحته. الألم المتجبر والمتولد من مشاهداتي لها وهي تفرج الساق ويهبط الكون ويتلألأ على وجهه العرجوني..

اكتشفت أثناء مراقباتي الدقيقة لعاطفة أنها كانت تنام مع الجميع. في المرة الأولى كانت مع الأب وبعد ذلك مع الاخوان وكل واحد فيهم كان يعتقد أنها تنام معه فقط. كنت اضحك في داخلي وأنا أشاهد تملق الاخوة لها

ومحاولاتهم الجهنمية في اقناعها. فقط الاب، عبد الرحمن، لم يحاول اقناعها وانما اغتصبها بقوة الرهبة وخشيتها من الطلاق والعودة مرة أخرى إلى بيت أبيها حيث الجوع والفقر والضرب والكثير من التفاصيل المبهمة.

كان الاخ الاصغر يضاجعها في غرفته والاخر يسافحها في الحديقة والثالث يأخذها بحجة المستشفى والمرض فينام معها خارج البيت. في كثير من الأحيان وبعد أن نامت مع الجميع، تقترب مني. تبكي وتشرح لي كيف اغتصبوها واحدا بعد الاخر. هي لا تستطيع أن تتكلم خاصة بعد أن هددها الاب.. استسلمت لهم كلهم، كانت تقول.

- عائلة تستحق الاعدام والموت الف مرة. أردت أن أقول لك أنه مهما كانت المرأة جنسية وشهوانية فإن في داخلها جرس موسيقي، هذا الجرس هو الضمير الامثل الذي يدعوها إلى الحشمة. أردت أن يكون لي زوج واحد وبيت واحد وفراش واحد، لكني فشلت .

كنت اصغي لها. استمع لأشياءها وهي تنز من بين اسنانها واللعاب العزيز يتطاير وينحشر في زوايا فمها. كنت حزينا ويائسا وقلقا لكن في داخلي كانت الشهوة تنهمر، تتساقط. كنت اصل في بعض الأحيان إلى الاقتناع بكلامها. كانت تسحرني وتبدو أمامي بريئة. فتتراجع صورة المرأة الداعرة من ذهني وفي لحظة معينة، في لحظة مأساوية تتحطم صورة البراءة وأعود أنا إلى اللهاث خلفها.

كنت أريد أن تمنحني فرصة واحدة، فرصة صغيرة. أشعر بالانهيار من كلامها ويحدث دائماً لدي انتصاب قذر يشبه تفجر قنبلة نووية أو مئات الاطنان من الديناميت. كنت اهرب أثناء حديثها الطويل والسائل مثل اللعاب إلى المرحاض. أبكي بقوة واسأل الله الصبر والجبروت والحكمة. ماذا لو مسكت فينوسها الان. كنت أفكر هكذا لكني كنت اخاف أن تقول هذا لزوجها ومن ثم يطردوننا من البيت، من الزريبة ولن أعود أشاهد الفئران والصراصير.

كنت متمسكا بكوخنا ولم أكن أريد أن نخرج من هذه الغرفة اللعينة في أي حال. خروجنا وطردنا من هذه الغرفة يعني لي تشردا جديدا في زمهرير البرد الصحراوي وعودة الطائر إلى صحن العباس أو النوم في صحن الأمام الكاظم واستجداء الخبز وبقايا الطعام. تسول جديد وحياة بائتة وغريبة وملوثة بخراء البشر الذين يمنحونا فضلات اطعمتهم. كنت اتخيل البرد وادعوا الله أن يساعدني. أن لا يتركني نهبا للعواصف ولكلمات عاطفة وهي تنغرز في جسمي مثل سيف صدأ للغاية.

كنت ادعو الله وامزق رقبتي باظافري وكنت أشعر بالراحة العميقة حينما ينزف الدم. في بعض الأحيان كنت اشعل اعواد الثقاب واطفأه في جلد يدي وفي بطني. بمرور الوقت امتلأ جسمي ببثور ويرقات بحرية واخاديد ويدوت منهكا ومدمرا وأنا أسير في الشارع خائر القوى وغير قادر على التفكير الواضح.

كنت إذا أردت أن اتناول طعاما اذهب إلى القدر وحينما ارفع الغطاء أكون قد نسيت لماذا فتحت القدر. العادة السرية كانت دمارا آخاذا بالنسبة لي. كانت تجعلني ابدو تافها. مجرد مراهق منحوس ومفلس وغير قادر على ايجاد شيء من أجل افراغ السم الذي يسري في تلافيف العقل المصاب بالغرغرينا واللوثة الجنونية. في بعض الأحيان كنت اتصور أني سوف اجن. أو أنا مجنون حقيقة.

أخذت أجد لذة كبيرة في تعذيب نفسي، تدميرها، تحطيمها لأنها لم تعد ايجابية ولم تعد قادرة على الاستمرار مثل الاخرين. كان اصدقائي يجدون بنات دائماً. دائماً كان باستطاعتهم أن يجدوا شيئاً هشا، مضطربا، مرتعشا يسكبون فيه السم القاتل وبقايا التستيرون. حتى لو كان هذا مع كلبة أو أنثى حمار. كنت أحسدهم لانهم ايجابيون وليسوا مثلي دخلت عاطفة في تلابيب وحشايا وادغال عقلي المهترئ.

ذهبت إلى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني. عاطفة طلبت أن اسأل

المشايخ عن توبتها الداخلية ومضاجعاتها اليومية مع الاخرين. وصلت إلى المسجد والحضرة المنارة بالطنافس والثريات والنجف. في البداية لم أستطع التعرف على رجل دين. سألت كناسا قادني إلى غرفة وبعد أن طرق بابا، وجدت أمامي رجلا صغيرا مليئا بالنور. قال الكناس : اسأل الشيخ، وجه اسئلتك له حيث الروح المقدسة والبدائل النورانية محمولة على سجادة التودد.

شعرت في اللحظة الأولى بالخوف والتردد ومع الابخرة العاتية القادمة من بلاد السند والهند ونهر الميكونج.وجه الشيخ ابتسامته لي. لم أستطع الحديث وبادرني هو من خلال النور الضعيف لكن المنتشر في ارجاء الغرفة. لم أنت حزين. مسك كفي وقرأ عظامي عظما عظما.

- قال، إن الشيوخ يحزنون لعدم وجودك هنا باستمرار.
- تلعثمت وقلت بصعوبة. أنا ياشيخ؟.

ابتسم ابتسامة جميلة ومطمئنة.

- أنت روح فياضة وقلقة. تعال لي امنحك الامان والخرقة واخلصك من الاضطراب.
- قلت مشكلتي ياشيخ كبيرة.
- اجاب، لا، ليست كبيرة لكنك حائر. اوجاعك ستنتهي هنا.

احنيت رأسي خشوعا. وجه الشيخ كان يحمل اثار القوة والجبروت والصمدانية.

- وحدة الوجود تتجسد فيك. لماذا تترك روحك تضطرب.
- قلت، لا أعرف، لكني ضائع.
- أين تضيع والله موجود. إنه يرسل لك السلام.
- أنا، قلت باندهاش.

- أنت، نعم، أنت الذي أنتظره منذ سنوات، ألا تعرف هذا.
- لا لم يقل لي أحد هذا الشيء.
- هز الشيخ راسه اسفا. أنا أنتظرك منذ اعوام طويلة، أنت الملهم الذي سيغير العالم باوامر الأرواح الصوفية التي تتطلع اليك.

أردت أن أنهض وأنا مرتعب فأمسك الشيخ بحافة بنطلوني وقال:

- لا تذهب. لا تذهب. لقد حلمت بك منذ عام تقريباً. روح سيدي ومولاي الشيخ عبد القادر الكيلاني ارتني صورتك. أنت من ستهبط عليه الحكمة والنور الازلي وتمنح الصابرين والمتعبين الامل.

سحبت ساقي بسرعة وعرفت في لحظة أنها خدعة لاجل أن أكون صبيه وخادمه.

الفصل الرابع عشر

في تلك الليلة المبهمة أخذتني عاطفة إلى صدرها، أحسست بالكائنات بين نهديها، ثدييها. رعونتها العرجاء والشعوب التي تمتص حياتها تسير على صدر عاطفة وهي تلهث بالدعاء إلى كبير الآلهة. امنحنا أيها الكبير المواجيد والصبر والحرقة والتهاب المثانة والسفلس والتراخوما والحروب القذرة والجميلة. الحروب التي لا تنام ولا تخمد والتي نكون فيها الضحايا المبجلة والعزيزة والمسافرة على ضفاف الأنهر السرمدية.

في حضن عاطفة وقريبا من رائحة عوراتها النورانية والبابلية، اعدت اكتشاف العالم من جديد.

أعدت بلورة ارائي وخذلاني وعوزي المناعي وابتهالاتي إلى ربي الذي حمل رسالته إلي. هكذا من أجل أن اخوض حربا وحشية أخرى ومن أجل إقناع العالم والاناث على وجه التحديد. أن اغتصابهن لا يعني نهاية العالم مثلما أن عيش الفقير على قطعة من الخبز والفضلات لا تعني نهاية العالم..

بعد أن غادرت حضن عاطفة ارتميت على فراشي. كنت لم أزل اتصبب عرقا فخرجت إلى خارج الكوخ من أجل أن اصطدم بالهواء البارد. كنت ممسوساً بفكرة غريبة، وفكرت أن أبداً المشوار النبوئي بأن ادعوا

الاخرين إلى العهد الجديد. كنت اكره الرجال، اعتبرهم أشياء خرائية وفائضة عن الحاجة ولا لزوم لها. إنهم الرقم الأول في معادلة الحروب والقتل.

المرأة هي الاصل والجزء الاهم من هذا الكون. المرأة هي التي خلقت في البدء ومنها خرج الرجال إلى هذا العالم. كرهت رجولة الرجال، كرهت قذارتهم وبغضهم والاعيبهم وحروبهم وخستهم وجبروتهم وتسلطهم.

فكرت أن أميت الرجال واجعلهم عرضة للدمار في عالمي الجديد الذي يوشك أن ينبثق. الهواء البارد في الخارج والمثلج منحني استرخاءا كبيراً، استرخاءا طويلاً وأعصاب تتقهقر إلى الوراء دائماً. كنت ادرك منذ الطفولة أني شيء متميز.

الاخرون لا يفهموني على نحو صحيح. لا أعرف من الذي كان على خطأ، هم ام أنا ام الجميع. منذ الطفولة كنت أشعر أني شيء مختلف. موت الاب. عودة راحيل ودفنها الغريب، جدتي وانينها المتواصل لفقدانها ابنها. بائعة الحليب أو راعية الأبقار. النار التي تلتهم الأجساد، اهلها الفوضويون والاغبياء. العادات الاجتماعية القذرة. حرق النساء وقتلهن بسبب اغراء بسيط من الرجال. زواج راحيل وفقدانها الأبدي. نومها مع زوجها وبدء تكوين أطفال جدد.

أشعر أن العالم فوضوي لكن من الفوضى تشرق الأحلام الجميلة بتغيير العالم ودفعه باتجاه السلام والحب واللاموت. امنت منذ الصغر بأن هناك اخطاء فظيعة يجب تصحيحها لكني لم املك الدليل والطريق والقوة والجبروت ولم أستطع مسك الزمن والدقائق. لو قدر لي لمس الزمن لغيرت الكثير من الأشياء.. لكن من سيقول لهذا العالم، قف أنت على خطأ.

فكرة الله أخذتني طويلاً. استغرقت فيها كثيراً. عاطفة والجوع الجنسي حولني إلى متصوف، تائه حيواني في طرقات العالم والبحار. كنت

أهذي في الليالي البـاردة وفي درجـات الحـرارة المرتفعـة والتـي تـذيبنا مـع العرق. أين المتاهة. أين ابواب الجحـيم الـذي أغرقتنـي فيـه انوثـة عاطفـة فتوهمت أني اله قادم من ممالك الآلهة الـسرمدية حيـث مـدن اريـدو وبابـل وننخر ساج وبورسيبا وملاحم واساطير ماتعة.

يا للسماء. أصبحت أحلامي ادوات لعلاج المسألة المستعـصية. مـاذا تساوي خطيئة صغيرة أمام رب هذا الكون الهائل وغير المنظـور والمترامـي والمبهر واللانهائي. لم أعد اؤمن بالرذيلة التي تقترفهـا المـرأة. الرذيلـة فقـط للرجال. ودائماً كان لدي شك كبير في غائية الرجولـة، في رعونـة الرجـال. كلهم مشوهون ومدانون ومليئون بالتعاسة والقوة والحروب.

كنت أحب الهي الخاص. الهي الـذي يلهمنـي حبـي لعاطفـة ولكـل النساء وتقديسهن وسوءاتهن في مأساة العالم.. بعد تلـك الليلـة الغريبـة في حضن عاطفة، أصبحت أسير في الشوارع كثيرا. أترك المدرسة وانـساب في شارع الرشيد أو ادخل مكتبة حسين الفلفلي أو مكتبة ابي داود.

في أحيان كثيرة كنت ادخل المقهى البرازيلي وأجلس قـرب الواجهـة اتأمل الناس ثم اشرب قهوتي المرة دائماً وأنا أفكر بتلك الليلة الغريبة. كنـت اعيش حالة الهذيان النبوئي والغرق في الوحول والبحار والسفر عبر المـدن المظلمة. كان العالم أمامي مثل كرة هائلة الحجم وأنا أسير في طرقات العـالم اكرز بالملكوت.

كنت اتخيل نفسي مشردا لكن مملوءا بالرغبة في اصلاح العالم. لا أستطيع تحمل البؤس منذ هذه اللحظة. لا أستطيع الطيران، صحيح. لكني ادب مثـل حشرة صغيرة على وجه الأرض من أجل أن امزق الـتراب وادخـل الهـواء إلى الاعـماق. كنـت بحاجـة إلى الاوكـسجين والتنتريـوك والاسـفنيك وكـرات النفتالين وحامض الكبريتيك المركز وثاني اوكسيد الكاربون واكاسيد الحديـد واكاسيد الزنك والخارصين وكل المعادن والادوية في هذا العـالم. كنـت احمـل بلسما إلى العالم. لكن البشرية كانت تطردني.

فكرت أن أبدأ دعوتي من حيث بؤرة الفقر في هذا العالم. زرت بيوت الفضل والحيدرخانة وباب الشيخ. تكلمت إلى القحاب الجميلات والقبيحات. اكلت الخبز في الدرابين. نمت على اسكفة البيوت المتهدمة في بلد كان يجوع كثيراً رغم الشروة المخبوءة والمترامية في مساحات الوجد المتأصل في الروح. جدتي كانت تبكي للحال الذي أنا فيه وكنت امسح على رأسها واقول لها سوف تشاهدين ابن ابنك وهو يتقدم العالم والبشرية إلى ملكوت الرب الجديد، هل شاهدت الملكوت يا جدتي الحبيبة وتومئ برأسها علامة النكران والرفض.

اطرق برأسي إلى الأرض ومثل بوذا ومثل زرادشت ومثل انبياء العهد القديم اقوم بتلاوة الديباجة والمتن والمقدمة والنهاية. كل شيء مباح في حضرة جدتي، كل شيء كان خفيا وأنا أسرد لجدتي رحلتي الملائكية إلى الملكوت العلوي حيث الناموس وارميا وحيث وضعنا على أول الطريق نحو الجنون والاضطراب والدكتاتورية وتسلط الرجال.

وتقرأ جدتي على رأسي تعاويذها وتقول لي لنذهب إلى ملا كمر ليطرد عنك الشياطين وتبكي بحرقة، بوجع. كنت اتسلل من يدها كما الماء والرمل والريح، ثنائية الذوبان في سبيكة الوقت النزيف، الالتهاب، التمحور، الانثاء، الدوخان، الهزء، البكتريا المتولدة من الغائط، الدود الوحشي وهو يأكل اجسامنا، العبث. كما كرات البلياردو التي تتناثر فجأة وبصورة مدوية حين تمسها الصواعق وجذور الجهنميات المتواصلة في الفضاء الكوني.. كنت اهتز، ارتجف، انثال، اذوب، ثم اتكون من جديد وأنا اعيد تخيل المشهد الكلاني القادم من التواء الذات حول ساق النبوءة.

أجل كنت خائفاً من النبوءة الجديدة، لكن عاطفة كانت تشجعني، تلهمني الصبر والقوة والبأس والتمرد. شيئها العظيم والسماوي كان يمنحني كلما اضعف وابدو اشد هزالاً، قوة كونية وملائكية. كنت أريد أن اغزو العالم بروحي وتعاليمي الجديدة. اكرز في البرية واكل الجراد والثريد

والعصيدة ومحروق اصبعه ومرقة الهواء وتكة اللحم والجوع والباجة والمبار والكوارع والزيت والزعتر وجبنة الماعز ولبن المخيض وبقلاوة جواد الشكرجي وزلابية المراياتي والخاصكي.

كنت أحلم بأني اشرب العرق وسكر اللذة يداهمني فاصرخ في كثير من المرات وحدي وتهرع جدتي وتشاهدني وأنا على هذا الحال فتجلس قربي وتضع حنكها بالم إلى كفها. كنت اذوب واتلاشى كلما جاءني...... ولكن لم يكن لدي كتبة يدونون ما أحلم به. فكان...... يضيع والكلمات تتناثر في الغرفة. أحببت العرق وشراب الزنزانو ودواء السعال المدعو توسيرام. أحببت كل هذه المجموعة بالاضافة إلى الويسكي والبيرة الشهية وكنت آخذ النقود التي تجمعها جدتي من أجل أن اسكر.

كنت احزن في كثير من المرات من البؤس الذي أنا فيه. كرهت أخذ النقود من جدتي لكني كنت مضطراً. أريد أن اشرب واشرب واسكر واتقيأ على الجدران وابول في الشوارع واغزو شارع المشجر وابي نواس واكل الفستق المحمص هناك ومن ثم اكل الكباب والتكة في مطعم عابر ثم اتقيء كل شيء. كنت حينما اسكر ابكي الزمن الماضي، ابكي الأزمنة كلها من البداية حتى النهاية واريد أن اقتل زوج راحيل.

في إحدى المرات سكرت حتى الثمالة واستأجرت تاكسي وذهبت إلى منزل راحيل وكانت السماء تعربد والبرق يتفجر وتسللت إلى الطارمة الخارجية وقطعت النور عن المنزل ليس من أجل شيء لكن انتقاما من زوج راحيل. انتقاما جبارا وكثيراً من المرات أردت أن احرقهم كلهم. أن اوقد النار في المنزل خلال إحدى زياراتي واتلذذ بمنظر زوجها وهو يحترق. في تلك الأيام كان جنوني عارما. كانت راحيل قد رزقت بطفل ثان وقل اهتمامها بي. لا بل إن اهتمامها وصل إلى الحضيض. لذلك أردت احراقهم كلهم دفعة واحدة والى الأبد.

ليست هذه أفكارا شيطانية وهي أيضاً ليست أفكارا من أجل

الانتقام، إنها أفكار من أجل الحياة، من أجل مقاومة الاستلاب الروحي المحض والمدمر الذي جعلني زوج راحيل اعيشه مثل هاجس طويل السلسلة ومعلق إلى الكون الرحب والضيق في أن واحد. كنت اثور بين فترة وأخرى. أشعر بالتحطم من زواج راحيل، من الفقدان الملهم والذي كان يجعلني مثل السحلية أو الكلب العق جراحاتي. كنت اتخيل احراقهم. ذبحهم. تحطيمهم، اخصائهم وتحديدا تعقيم زوجها على الطريقة النازية ولعق دمه.

كنت مصاصا كبيراً للدماء وألتذ بدم زوجها وأنا اكل اعضاءه التناسلية واخصيه وافتق في الهواء فتوق الانتقام المتجمد والكائن في الحقول النرجسية للبعد الكوني. كنت كثيراً من المرات اصاب بالهذيان. بالتوحد. أجلس في كوخنا واشرب العرق وامتص تراكيب العظام الداخلية. امتص الزرنيخ والكالسيوم والمخيخ والغدد.

كنت اسكر لأن الجنون يحطمني وأنا أشاهد راحيل قد تركتني اهوى إلى مستنقع الحضيض. كانت تحتضن ابنها دائماً، أما انا، ابن الكلب، فكانت ترمي لي العظام المقشرة من اللحم. عظام جافة ومعلبة ومكيسة بورق معدني يجرح فمي حينما أحاول التهامه. لكنني كنت التهم هذه العظام، امتص النخاع محاولا ايجاد منفذ فسيولوجي للوصول إلى روحها. كنت اتدهور دائماً، وبعد كل زيارة لبيتها أعود إلى جدتي محطما.

شربت العرق والويسكي والبيرة وأنا لم أزل صغيرا. أردت الانتقام منها ومن زوجها. لا أعرف من كنت اكره على وجه التحديد. لكنني كنت اكره الجميع باستثناء عاطفة. غالباً ماكنت اقسو في كلامي مع جدتي. اعتبرها المسؤول الأول عما أنا فيه من انهيار وتباعد ضوئي وانطفاء روحي وتشعشع شبحي واستلاب هيضي. كانت امعائي تتمرد. وأنا اجوع وأنا اكل وأنا أسير وأنا اتماثل إلى النوم.

أردت الوحدة دائماً، الوحدة لا تقتلني إنما تذبحني بعنف قاتل

ومتشح بالسواد. دخلت عالم النور من الباب الجانبي أو الخلفي. أخذت اجمع كتب السحر وبالرغم من تصميمي على قتل زوج راحيل إلا أني كنت سلبيا للغاية. انهزاميا. رعديدا واحببت كل النساء إلا راحيل. الوحيدة التي كانت تمحضني الموت وتزرقه في عقلي جرعة بعد أخرى، وسلمة بعد سلمة كنت اصعد إلى الكون برجل عرجاء وعقل مشوش وكنت أنظر إلى الاخرين نظرات الانهزام والعوز والغيرة والانسحاق والتمرد ثم... الموت.

أردت في إحدى المرات أن اقتل. أمسكت بمسدس الحزب. وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى راحيل وزوجها رأيتهما يقبلان بعضهما البعض. أردت اطلاق الرصاص، لكنني لم أستطع. شعرت بالجبن مرة أخرى والبؤس والانهزام. كنت انهزاميا كبيراً، جبانا رعديدا وخائر القوى. بعد فشلي في اطلاق النار انهرت وأردت الانتحار، لكنني فشلت ايضا. لماذا فشلت؟، لماذا لم أستطع أن افعل شيئاً؟. لم أكن ادري، كنت سلبيا للغاية وحتى مع النساء. بصعوبة بالغة تعرفت على فتيات لكني لم أستطع أن انام مع واحدة، لم أستطع حتى مسك اليد أو التقبيل.

خططت للانتقام من زوج راحيل واعددت الخطط، لكنني فشلت أيضاً في التنفيذ. لم أستطع أن أمد يدي واعبث بهذا العالم. فشلت في المدرسة والحزب والاستجداء. هناك قوة جبارة تدفعني إلى التوحد والفشل وممارسة العادة السرية كل يوم تقريباً وأحياناً أكثر من مرة في اليوم الواحد. التستيرون كان هو الآخر يتمرد علي وتلك الغدد الصم في جسمي تتضخم دائماً وباتجاه الخارج. كنت أشعر أني أشبه بشبح، أشبه برجل القش في الحقول اشرب النبيذ واقتات على عائلة الزنبقيات التي تنمو مثل السرخسيات ومثل الغربان المتوحدة في الهزيع الأخير للشمس.

الانطفاء كان مهيمنا على روحي. المرات القليلة التي ازورفيها راحيل كانت دائماً مليئة بالمشاكل. كنت دائماً اثير موضوعا بائسا عن زوجها

وتتهمني هي بأني اكرهه ثم تبكي حينها انفعل وابدأ بسبه وشتمه وتهديده بأن اشي به إلى الحزب. كنت فعلاً اكرهه لا بل أريد مص دمه ونفشه باتجاه النفايات المتراكمة في العالم.

كان زوجها شيوعيا نجسا ونتيجة لهذا كرهت هذا الحزب، أصبحت الشيوعية شيئا خرافيا يقتلني كل يوم لكن حينها اتصلت بي راحيل في أحد الأيام وطلبت مني الحضور سريعا، لبيت النداء وجئت إلى منزلهم، كانت ترتجف ووجهها تعلوه صفرة. قالت إنها تريد التخلص من المكتبة الحزبية الخاصة بالحزب الشيوعي باسرع وقت وليس هناك من ينقذها إلا انا.

في البدء ترددت. كان زوجها خارج المنزل. شعرت أنها تكذب. الوقت يمضي بسرعة، هكذا كانت تقول وهي تتقيأ من الخوف والنظر من خلال الستائر إلى خارج المنزل. جمعنا الكتب في صناديق كرتونية واكياس ثم تركتها على امل ايجاد حل، قبل أن أخرج قالت إن علي أن اسرع، ربما سيأتي البوليس السري حيث هناك حملة لاعتقال الشيوعيين. قلت لها أني نصحتها مرارا بترك هذا الحزب القذر. قالت الوقت ليس وقت نقاشات وانها ربما تتعرض إلى الاعتقال.

تركت المنزل خائفا وقلقا. سرت في الشارع، في الظلمة الداكنة والبرد والعاصفة والرياح والوجود والهباء الكلي والاندهاش والرغبة في الانتقام. لأول مرة منذ زواجها شعرت بالتعاطف معها. شعرت بأشياء عميقة تضطرب في بحيرة هائمة وملائكية. لكن زوجها كان يدمرني. مجرد التفكير فيه كان يمنحني رغبة القتل والانتقام والموت.

شعرت بالرغم من قلقي على راحيل باني اعيش اجمل وارق واعذب انتقام في هذا العالم. لأول مرة كنت في بيت راحيل دون وجوده القذر. أقتربت من عينها، من وجهها، تنسمت العطر المترجرج والفائح من بين خصلات شعرها. عندما اتذكر زوجها، تتصاعد في نفسي بسرعة رغبة الانتقام التي تعذبني. أردت بصدق أن اقبلها وحينها أقترب من اذنها، من

بهاء اللحم الذي تكونت فيه، البيت الازلي لتكويني الفسيولوجي، من الرحم العميق والمتشاكل في ذاتي والمتداخل في تكويني الملائكي، انهار وأبكي الزمن والخرائب والومضات والبرد وهزيع الشمس ونورانية وجهها المطفأ.

الرياح كانت تحرك جوعي المتوحش والذئبي في التهام العالم، عالمها. كنت أريد أن التهم كل بقاياها واهضمها في داخلي. استيقظت في تلك الليلة مرعوبا من كابوس كان يدور دورات متصلة وفي نهاية الكابوس كنت اموت خنقا. لم أستطع النوم أكثر. لم أستطع الاسترسال في النوم بين الفئران العابثة في الغرفة وجدتي تنام على الأرض محاطة بالوجع وأصوات الفئران وهي تقرض طعامنا وملابسنا فيما زوج راحيل يسافر كل عام من أجل المتعة في اوروبا ويأكل في ارقى المطاعم ويستلب جسد راحيل.

في الصباح ذهبت سريعا إلى مكتب جبهة النضال الشعبي الفلسطيني في الكرادة. كنت مشوشاً ومتعبا من كوابيس الليلة الماضية. في المكتب وجدت صديقي شريف العضو في الجبهة والذي تعرفت عليه في وقت سابق أثناء زيارتي لمكتبهم. قرأت مزاميري على شريف. فكر هو بسرعة وقال إن الحزب الشيوعي يتعرض الآن لضربة قاضية. اقترحت عليه نقل الكتب إلى مكتبتهم. وافق على الفور وأخذنا سيارة الجبهة الفولكسفاجن وتهنا في شوارع بغداد.

وصلنا إلى حي العدل حيث بيت راحيل ودخلت البيت بسرعة. كانت راحيل ترتعد وقالت إنه بعد أخذ الكتب ستسافر إلى بعقوبة من أجل الاختباء. استغرق نقل الكتب وقتا طويلاً. كانت مكتبة ضخمة والسيارة صغيرة، لكننا أستطعنا نقل الكتب في ليلة واحدة. بعد الانتهاء من الكتب عدت إلى بيت راحيل. كانت قلقة ومرتبكة وكلامها يتبعثر في كل الاتجاهات. قالت إنه يستحسن أن أخرج الان. سألتها عن زوجها فقالت إنها لا تعلم به.

وضعت العباءة على رأسها ثم خرجت من المنزل وقالت احتفظ بالمفاتيح. تأملت المفاتيح، جلست في المطبخ واعددت لي استكانة شاي. بعد شرب الشاي شعرت بفضول أن ادخل مخدع راحيل. دخلت الغرفة لأول مرة وتأملت السرير. هجمت ومزقت الوسائد ودمرت السرير ثم أخذت اصرخ بقوة متحشرجة وكأني اموت.

كنت ذئبا جريحا. شعرت بغصة قاتلة ترتفع إلى بلعومي. بصقت على السرير وأنا ارتعش ثم بدأت بتفتيش الغرفة وانتهاك قدسيتها التي كرهتها. تأملت ملابس راحيل. تأملت قطع الملابس الداخلية وكلما اتذكر أن زوجها كان ينظر إلى جسدها أشعر بحنق قاتل ورغبة في قتله. لو كنت أعرف مكانه ربما سوف ابلغ عنه وانهي حياته. كان سارق عظيم حطم أحلامي وامالي وحياتي.

سرت في البيت تحت هاجس الانتقام. حطمتني رؤية ملابسه الداخلية المرتبة في الخزانة. حقدت فجأة على احذيته وربطات عنقه وكتبه. كنت أشعر أنه كان ندا لي ويلتهم طعامي ويجعلني جائعا ابديا. كانت لي جدة منحتني اقصى ما تستطيع، لكن ارتباطي براحيل رغم عدم وجودها الدائم في حياتي، كان أكثر قوة. أخرجت قنينة بيرة من الثلاجة وشربتها بسرعة كبيرة. لم تنفع البيرة ولا حالة السكر في أن تجعلني أشعر بالسعادة. أخذت أشعر أني بحاجة جدية للبكاء. كنت أريد أن أخرج الألم من روحي. الوجع.

رؤية غرفة النوم كان تأثيرها قاتلا وموزعا على كل جسمي. شعرت بالاكتئاب أكثر بعد شرب قنينة البيرة. بحثت في المنزل عن عرق اذ أني أعرف أن زوجها كان سكيرا كبيراً لكني لم اجد. شربت قنينة بيرة أخرى وتمددت على الأرض والوان الطيف الشمسي تتسرب من النافذة وتأخذني بعيداً إلى المدن الضبابية..

استيقظت في وقت متأخر وغادرت المنزل، بعد خروجي وفيما أنا

أقترب من نهاية الشارع جاءت مفرزة من رجال مدنيين مدججين بالمسدسات واقتحموا البيت بعد تحطيم بوابته الخارجية. شعرت بالرهبة لكن ليس القلق. سرت في تلك الليلة طويلاً دون أن اشغل نفسي بشيء محدد. وأنا أسير في الشارع كانت تصفعني تيارات الهواء البارد. لم أشعر برغبة في الذهاب إلى الكوخ. قررت أن اذهب إلى الباب الشرقي واكمل سهرتي برؤية فيلم سينمائي ثم الذهاب إلى محلات بيع الكتب ورؤية الاصدارت الجديدة. في الطريق انتبهت إلى أن جريدة طريق الشعب اختفت من واجهات المكتبات وباعة الجرائد. سألت أحد الباعة فقال إنها لم تصدر هذا اليوم. مررت وأنا أسير باتجاه سينما النصر على مكتبة الرواد- المكتبة الخاصة بالحزب الشيوعي- ووجدتها مغلقة أيضاً. لم اهتم كثيراً للامر وكانت راحيل هي فقط ما يشغل فكري. فكرة الاختباء في بساتين بعقوبة كانت مقنعة ومطمئنة.

في اليوم التالي ابلغنا المسؤول الحزبي أن الحزب الشيوعي ارتكب العديد من المخالفات وانه خرق الاتفاقيات الموقعة. كنت أشعر أنه يكذب لكن ما اثار اهتمامي بخصوص الحزب الشيوعي هو منافسته لحزبنا على الكسب الحزبي وتوسع قاعدته الجماهيرية. مسؤولي الحزبي كان يخدعنا. عرفت هذا لأن راحيل كانت تعطيني كل نشراتهم الداخلية وكانت كلها تدعوا إلى صيانة الجبهة والعمل من أجل ترصينها.

كانت هذه المرة الأولى التي أشعر بأن الحزب كان يخدعني. شكل هذا الكذب نوعا من عدم الثقة بيننا. أخذت أنظر إلى الامور من منظار آخر. سابقا كنت أسير مثل المسرنم خلف تعليمات الحزب، لكن الآن يتوجب علي عدم تصديق كل شيء. اختفى من مدرستنا بعض التلاميذ. لا أعرف أن كانوا قد هربوا ام حدث شيء آخر. كان الشيوعيون على أية حال يهربون مثل الذباب. لم يقاوموا واظهروا أنهم جبناء مثلما قالت عنهم جدتي في وقت سابق..

مرت فترة طويلة لم أسمع فيها اخبارا عن راحيل. كنت اتخيلها وهي نائمة وملتفة حول نفسها في بساتين بعقوبة. اتخيل عصافير الدوري والفخاتي وهديل الحمام وهو ينساب عميقا إلى روحها. شغلتني فكرة سربها الي أحد الاصدقاء من أن الشيوعيين ربما كانوا يخططون لانقلاب عسكري بمشورة سوفييتية وهو الأمر الذي دفع البعثيين إلى الاسراع بتصفيتهم.

مساكين، كانوا مساكين في الفكرة والنتيجة. الشيوعيون اجبن من أن يفكروا بمثل هذا الشيء. كنت أعرفهم من خلال راحيل ومن خلال زوجها المتصابي السكير والنهلستي. زوجها الذي خطف راحيل فجأة كما يخطف الغراب حبة من السكر أو القمح. هو ليس ذئبا إنما ثعلب ماكر استطاع الالتفاف على راحيل ونزعها من الغصن زهرة برية والقاها في هذا الاتون. الشيوعيون اناس يحملون ثقافة غريبة وهم مثل الافاعي، نعم هم كذلك و إنسانيتهم ميتة وهم دائماً خاسرون في كل الحياة.

كنت أعرف الشيوعيين ولكن ليس الشيوعيين العراقيين. الشيوعيون العرب يحملون للامة العربية دائماً التقدير ويعترفون بأن العرب امة. الشيوعيون العراقيون دائماً يمارسون نفي الاخر، وقتله بدافع غريب وليس مفهوما. اتذكر نوفل ورسائل الحزب الشيوعي التي كان ينقلها للسفارة السوفيتية، كانت الاوامر توجه للشيوعيون مثلما يوجه ضابط اوامره إلى جندي. طالما انتم أيها الكلاب لا تستطيعون أن تتبولوا إلا باوامر موسكو فلماذا أذن تغرون الشباب وتدجوهم في الحرب السرية بين الكبار. أين عراقيتكم وعروبتكم وبؤسكم وحياتكم.

كرهي للحزب الشيوعي العراقي كان غريبا. كنت أحب جبهة النضال الشعبي الفلسطيني واحب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين واحب الحزب الشيوعي اللبناني وكل الاحزاب الشيوعية العربية إلا الحزب الشيوعي العراقي الذي كان عدوا للعروبة. كرهت الحزب الشيوعي لأنه ضد إنسانيتي ولانه حزب وصولي ونرجسي وغبي. الصغار فيه ضحايا

والكبار شاذون جنسيا. أول ما يفعله الشيوعي العراقي هو اسقاط اخلاقيات البيت.

هكذا كنا نشاهد نساء الحزب الشيوعي، أكثر تحررا في بيئة محافظة للغاية. كن سهلات الاصطياد. الحزب الشيوعي كان يدربهن على الانفلات الجنسي. شاهدت العديد منهن وهن بين ايدي الرفاق في حفلاتهم الخاصة.

راحيل لم تكن واحدة منهن طبعاً. ليس بسبب العلاقة الخاصة التي بيني وبينها إنما لأن راحيل قديسة ومسحة القداسة كانت تجلل وجهها وطهر يدها وعينيها. كنت اريدها أن تلعن هذا الحزب، أن تلعن زوجها الذي أعادها إلى الحزب الشيوعي من أجل اقامة الحفلات الحزبية الداعرة في بيتهم. كنت أشعر بالخوف على راحيل، أشعر بالانقباض والتحطم كلما أشاهد الرفيقات وهن في احضان الرفاق.

كان زوج راحيل واحد من اكبر الوصوليين في العالم. إنسان غريب يعيش على افرازات النساء، ايا كانت هذه الافرازات، معنوية أو مالية.. في إحدى المرات المتوترة مع راحيل طالبتها بأن تتركه. كنت قد بلغت السادسة عشرة من العمر. أصبحت اعمل وامتلك رجولتي الخاصة شعرت أني أستطيع أن اتحداها. لم أكن أريد أن تتلوث بصورة الحزب الاخلاقية. لم أكن أريد أن تكون مباحة للقيادة السياسية لحزبهم. كنت اتدمر في كل مقابلة معها. شيئان كنت أريد اقتلاعهما من حياتها، زوجها والشيوعية. كنت اريدها معي أن تتعرف على شيوعيين اخرين في منظمات المقاومة الفلسطينية. لكن هذا لم يحصل. كانت تكره المقاومة الفلسطينية. كانت تعتبرهم تجار قضية وكنت اثور بوجهها، انفعل، اذ كيف لها أن تتكلم عن طهر الثورة الفلسطينية.

مرت أيام طويلة ولم تظهر راحيل. أخذت اقضي أيامي متسكعا في شارع الرشيد. أحببت الحواري الداخلية والطرقات الجانبية لذلك الشارع.

شعرت أني أسير في هذا المكان لأول ولاخر مرة ثم سيأتي الطوفان. كنت أشاهد في نومي أحلام غريبة، بدايات لكوابيس سوف تأتي حتما. الأحلام كانت مرة ومتعبة. لم تكن كوابيس بالمعنى المتعارف عليه، إنها نبؤات.

لم أستطع العودة إلى الدراسة. تراكمت الغيابات وارسلوا لجدتي طلبا لحضور اجتماع مع المعلمين. لم تستطع جدتي أن تجد سببا واحدا لغيابي. لكني كنت اثور بوجهها كلما نوهت إلى غيابي. كانت تشعر أنها تفقدني جزءا جزءا ولم تعرف الذي يدور في ذهني، لأني أنا شخصيا لم أعرف ماذا كان يدور في الذهن.

سرت في شارع الرشيد. سرت في الزمن الغريب، الجامح، المليء بالبول في الطرقات الضيقة لمنطقة الحيدرخانة التي كانت تعجبني أصوات القحاب فيها وأنا اتنسمها مثل الهواء ومثل رائحة النرجس والدفلة والرازقي. لم أستطع الدخول إلى بيوت القحاب لكني كنت اذوب في طرقاتهم واحاديثهم وعربدتهم الصوتية بعد كل ممارسة جنسية.

احياء بغداد الهائمة أخذت تستهويني. كنت أسير في شارع المتنبي وأنظر إلى المكتبات التي أحببتها بشكل جنوني وعشق غريب. مررت على قبور المتصوفة وبكيت عند ضريح الجنيد البغدادي. كانت روحي تتشكل من غاز غريب ملوث بمزابل العالم وكنت بحاجة قصوى لاغسل الدرن عن وجهي وعن روحي وابدو من جديد الإنسان ذو الوجه المبتسم.

اضعت الروح في الطرقات، اضعت الروح في خانات بغداد والصفافير وخان دلة. أخذت أجلس طويلاً في مقهى البرازيلي. وتحديدا أمام الواجهة الزجاجية القذرة دائماً. كنت ابدو كمن يحسب حبات المطر لكني لم أكن أعد جهنميات ذلك الماء المتساقط من السماء إنما كنت أفكر بأحلامي وابحر في تلك الأحلام وتكويناتها الغريبة.

كنت أشاهد في نومي راحيل بدل قرص الشمس والى جانبها ارميا وقضاة العهد القديم. في حلم آخر كانت راحيل تهبط من السماء بهدوء ثم

تهوي فجأة إلى الأرض حيث تبتلعها أسود وحشية وغريبة. أسود بوجوه غربان واجساد من الثعالب وقوائم مأخوذة من الثيران. مررت في ترحالاتي المتعددة على ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني. دخلت الضريح، جلست قرب الشباك. غنيت بعض أغان الوجد ثم غرقت في اغاني المتصوفة وتعابيرهم القدسية.

راحيل لم تظهر حتى الآن. قلت هذا لسيدي وقرة عيني الشيخ عبد القادر. كنت الحديد والفضة والستائر النورانية الخضراء. صليت في محراب الزمن وتركت خلفي البهاء والالم. لكن الألم لم يغادرني إنما حولني إلى تائه وأنا استشرف بشر الحافي واسير على طرقاته المليئة بالجمر. قالوا هناك يجلس أحد البدلاء، في الزاوية الهندية حيث روائح الاطعمة القادمة من مطبخ الخيرات. مسكت طاسي ووقفت في طابور طويل.

بعض من حساء الشيخ يمكن له أن يزيل الألم والوحدة والذوبان في الملكوت. من أيام طويلة لم أعد اتلقى الايحاءات. انقطعت الاخبار وماتت الصلة مع السماء. كنت أشعر أني مع الشيخ عبد القادر سوف اسافر في أزمنة بيض وطقوس التصوف الغريب. أين الزمن. يقول أحد المتصوفة.

- وأين بكاؤك من أدعية المتوهجين بالنار السماوية والربانية.

سيدي هل ملكت قلبي وأنا لم أزل أحبو في سماوية الاله. ويقول المتصوف.

- افتح الحقيقة بعين التوسل وبقلب الرجاء.

لكن رجائي ضائع وخبزي منثور وبهائي يموت.

- لا تقل هذا وأنت على سجادة التأمل وبساط المعرفة ونزوع العين وانفلاش القلب وتيهان الروح.

لم أمسك روحي عن التيهان. ويقول الصوت.

- أترك للمعرفة اشتقاق الحاضر ومن الحاضر اشتقاق التيه ومن التيه امضي بنور التوحد. اهز رأسي وجلا.

يقشعر بدني ارتجافا، اتيه في المغمور وانتمي إلى المحسوس وارتعش في حضرة الكلانية. بهاء الموت كان يغلفني، يفصلني عن العالم والبشر. أصبحت بعد زيارة ضريح سيدي وقرة عيني الشيخ عبد القادر وضريح الجنيد البغدادي وبشر الحافي والشيخ معروف الكرخي.أكثر تيها. أكثر انغماسا في غيوم الوقت وفي سلعة الاتجار وفي نفس العين وبؤرة الأحلام.

منذ أن غادرت راحيل تكور الوقت على الزمن وبدأت النجوم تتساقط. في إحدى المرات كنت أمارس العادة السرية في السطح قرب سرير عاطفة، سقطت نجمة سحرية. مسكت النجمة ووضعتها على راحة يدي، فجأة اختطف بوم من غابة قريبة، سحر التألق ونجمة الوقت وملاعقي الخشبية. أين تضيع الأشارات المرسلة من السماء. أين اله ايلياء بعد أن زرع في روحي روعة كتابه الجديد الذي وعدنا العالم به والبشرية تنتظر باكية أمام مطبخ الأحلام..

الفصل الخامس عشر

فجأة بدأت الحرب مع ايران.

كنت أسير في الباب الشرقي عندما صرخت صافرات الانذار بوحشية وهجمت طائرات مخيفة على القصر الجمهوري. الناس في الشوارع تتراكض والطائرات تنهال علينا بنيران القنابل. ماذا حدث؟ ماالذي يدور؟. أين نذهب؟. لم نكن نعرف. كنا في كل مكان. في الهواء والريح واطعمة النار وانفجارات القنابل والسواد ووميض النار المفاجئ.

ركضت إلى موقف الباصات. الهلع على الوجوه. الهلع على الابواب. هاهو يهوه يسوق النار إلى عيوننا وافئدتنا. كنا خائفين ونحن ننحشر في الباصات. الاضواء مطفأة. الباص يسير بثقل شديد. أثناء السير كان يقفز الكثير من الناس ويتعلقون به. الزحام الشديد يخنقني. رجال في الشوارع يصرخون بنا. سيروا بسرعة، بسرعة.

سائق الباص لا يرى شيئا. عرقه ينز. أطفال في الباص يبكون والدهشة تصبغ وجوهنا بسواد كالح. كنا متراصين مثل كلمات كثيرة في ورقة صغيرة. لم أعد أحس بالشخص الملاصق لي. ذاب الناس في بعضهم. تراتيل كانت تنطلق من كل مكان. قراءات دينية وادعية تتسلل خجلا إلى الاذان.

صمت غريب ثم انفجارات تحطم قلوبنا. من نافذة الباص ومن بين الأجساد المتكومة على بعضها أردت رؤية العالم. قصف الايرانيون بنايات عديدة. الباص بدأ يسير سريعا والبنايات المحروقة تهرب إلى الخلف بعجلة واضحة. شعرت بالاختناق ورغبة في التقيوء. روائح العرق كانت قاتمة وثقيلة. كنا نتماهى في بعضنا و من خلال جزء من نافذة شاهدت كلاب تعوي وتجري باتجاه غير محدد. الأشجار على جانب الطريق كانت ترتعش. رياح مجهولة تنقل لنا أصوات الانفلاقات الجوية. اوامر عسكرية وصراخ أطفال ينقطع فجأة كما يبدأ فجأة.

بين كل انفجار وآخر، كنت أشاهد الهلع المتفجر على الوجوه والانوف اللامعة والعيون الهاربة باتجاه المجهول. لم أعرف كم قضينا من الوقت ونحن ننحشر في الباص. الملامسات الرقيقة والقلقة لاجسادنا باجساد النساء كانت تتحول إلى هوس غريب وتطفيء قليلاً من الارتباك.

بجانبي على المقعد كانت تجلس فتاة. حاولت أن اذوب في تفاصيلها الانثوية الطاغية. أتأمل وجه الفتاة في الظلمة الكالحة والرمادية والعميقة أخذ يمنحني صلاة وهمية وتوجه حقيقي إلى المجهول. كنت أفكر إذا ما اصاب الباص انفجار ما، فكيف ساتصرف؟. سيارات الشرطة تمر بجانبنا بسرعات كبيرة ثم تذوب في الظلمة الكدرة والنهائية.

أخذت أتأمل أنف الفتاة وانعكاسات الاضواء البعيدة على وجهها. كانت رقيقة للغاية. التفكير فيها منحني نوعا من الاسترخاء اللذيذ. وصلت منطقتنا. انسللت من بين الأجساد المتلاصقة واللكزات والاذرع والانوف والانفاس. منطقتنا كانت بعيدة عن الانفجارات، منحني هذا مساحة للتفكير. لا أفهم الحرب. أخذت أسير في الشارع المظلم. رجال الحزب- البعث- كانوا ينتشرون في منطقتنا أيضاً. الانفجارات كانت بعيدة. تأملت وجوه الرجال. كانت قلقة لكنها تنطوي على قوة. وحدي كنت أشعر بالاهتزاز والخوف من هذا القلق- الحرب. كنت مرتبكا ومشوشاً.

عيون عاطفة كانت تتساءل بارتعاد عما يجري. جلست أمامها وعلى ضوء فانوس صغير حكيت لها حكايات الحرب الخارجة من الكتب. رجال يهتزون في مخيلتي وبنادق متهورة تطلق الرصاص في كل الاتجاهات. الكهرباء مقطوعة ومن خلال مذياع صغير كنا نتماهى فيه ونحن ننتظر بهشاشة ذهنية آخر الاخبار. ما الذي يدور في العالم. ضجيج متصل وصوت المذياع ينقلنا إلى اماكن مختلفة من الوجع.

بعد العديد من وجبات الاخبار شعرت بالاحباط. شعرت بعدم الفهم. قالت عاطفة وانحناءات لحمها تتقلص أمامي. لم أعد أفهم. وقلت لها وأنا ايضا. لا أعرف لماذا شعرت بحزن عميق وبلبلة وتيهان. لم أستطع أن انام أول ليلة في الحرب. المقايسات والازاحات للمشاعر كانت تضطرب وتتيه في كل مكان.

جاء أحد الرفاق وطلب مني أن التحق بمقر الفرقة الحزبية للبعث. لبست على عجل وخرجت. في الفرقة الحزبية سلمونا الاسلحة. شكلونا على هيئة دوريات ومجاميع وحراسات مناوبة. قالوا إن خلايا حزب الدعوة والحزب الشيوعي بدأت تهاجم بعض مقرات الحزب في حي العامل. القلق كان يجاور عيوننا المحمرة بفعل السهر.

خرجنا إلى الشوارع بأسلحتنا. دوريات الامن التابعة للمخابرات كانت تهاجم بعض البيوت المشبوهة التابعة لحزب الدعوة. سمعنا ونحن في متاهة الظلام العديد من الاطلاقات النارية من اتجاهات مختلفة..

بعد ليال متتالية من السهر والارتباك والدهشة والتقلص والارتجاف والبصاق والانسحاق والضياع والتوبة والرعشة. أخذنا نتعود على هاجس الحرب. القوات العراقية بدأت بدخول عبادان وسربيل زهاب والمحمرة. ضباط الجيش والجنود كانوا يتفاخرون في الشوارع. بعد أيام قليلة من الحرب تم القضاء على خلايا الشيوعيين وحزب الدعوة.

عندما عدت للبيت بعد نوبات الحراسة والسهر المتواصل، وجدت أحد أبناء عبد الرحمن يضاجع عاطفة. ارتعشوا حينما شاهدوني أمامهم ببندقيتي وجسدي المحطم من القلق والانسحاق. أحسست بالتقيوء وأنا أرى العري فيما عاطفة تلفعت بعباءة سوداء. انسحبت بهدوء وذهبت إلى الكوخ وأمام جدتي النائمة بنصف عين غرقت في متاهات الأحلام والرصاص والافخاذ والتراتيل والباصات المحملة بالبشر والصراخ والدوريات ورجال الدين واطلاق رصاص وصراخ وعويل وافواه تخرج منها ارانب وعصافير تنتحر عند ابواب مستشفى اليرموك.

استيقظت فجأة وكنت الهث وحرارتي مرتفعة. جدتي تنظر من مكانها دون أن تنهض. أردت النوم مرة أخرى لكني لم أستطع. بقيت قلقا حتى الفجر ثم ذهبت إلى المدرسة. في الطريق كنت أسير متثاقلا وأنا أشعر بالانسحاق والرغبة في النوم. وصلت المدرسة. تمددت على أريكة في غرفة الاتحاد. استدعاني المدير. في غرفة الادارة وقفت مرتبكا.

- قال المدير أنت مفصول.

شعرت بتقلص معدتي وداهمتني رغبة في التقيوء. صفعني المدير بقوة وشعرت أنه ينتقم مني. خسرت الحرب. وجهي يتفجر من الحرارة والدماء. نزف انفي وتساقطت قطرات الدم على الأرض. هربت سريعا باتجاه المغاسل ممسكا بانفي ورافعا رأسي إلى الاعلى. في المغاسل وضعت رأسي تحت حنفية الماء. بللت شعري كله ووجهي وبعد دقائق توقف النزيف، لكني كنت منهارا تماما وثمة شيء بدأ يتكون داخلي دون أن أعرفه.

شاهدت في تلك الغيبوبة اللحظية عن الواقع، أني اقع من شاهق واتحطم على احجار سوداء وكتل صخرية، ثم شاهدت مدنا بحرية وسفنا متأكلة وصدأ يصبغ وجوها إنسانية متعبة. في تلك اللحظة الملتقطة من الزمن الذي اغمضت فيه عيني تراءت أمامي غربان تائهة في اراض غريبة

وسبخة ودماء وبرك مائية يغرق فيها الجنود إلى هاماتهم وتبتلعهم الأرض وتبقى الصرخات فقط فوق الرؤوس تائهة..

الفصل من المدرسة كان شيئاً مدويا. تحاملت على نفسي وسرت ببطء. كنت أريد أن اطلق النار على الجميع ثم انتحر. وصلت الكوخ وأخرجت الكلاشنكوف. وجهت الفوهة إلى رأسي واصبعي على الزناد. كنت أفكر باللحظة الشعرية للزمن الباهي والمضطرب والمغموس بالتوسلات. أحس نفسي تتوسلني ببكاء ودموع وانثيال وتطلب مني أن ارفع اصبعي عن الزناد. كنت في اللحظة القاسية جداً بين هذا العالم وعالم آخر سوف يأتي سريعا بعد أن اضغط.

كان هناك انفصال للضمير والنفس والروح. ثلاثة أشياء تتصارع من أجل الحياة أو الموت. تفو عليكم يا بناء الكلب. جنون في كل مكان وجنون يتسلل إلى رأسي. كنت أحس باضطراب مفاجئ، بوهن. بانحطاط لقدراتي العقلية ولم أعد احزر من الذي يتبول في مراحيض المدرسة، الطلاب، المدير، السوقة، العصافير، التنانين ووحوش قادمة من أزمنة سحيقة. لا أعرف ولن احزر.

في متاهة الزمن والاغتصاب والنجاسة من هذا العالم، أنزلت البندقية، بجبن، كما في كل مرة وخرجت من الكوخ. قررت أن لا أعود. لكن أين يمكنني الذهاب في هذه الحرب والتفاهة والمارشات العسكرية والاوامر ونزوات رجال الامن ودوريات الشرطة العسكرية. كنت اختنق، في هذا الوطن الذي تحول كل شيء فيه إلى اغتصاب. العالم ينهار على رأسي. رأسي المسكين وهو يتحمل هذا الصخب المدوي للعالم. ابصق عليهم. لم أعرف إلى أين اتوجه. جلست على سكة القطار المواجهة للبيت وأنا العق أوراق الفصل البائس والانحلال والتعكز على حالتي النفسية وفقدان راحيل الضائعة في الزمن.

راحيل اورثتني بهاء الجنون الشفاف والمدلهم واورثتني أيضاً روائح

الاقدام والتقيوء والبراز في البنطلون. أردت أن ابول على نفسي في الحرب وان اجعل الغائط في بنطلوني واسير في الشارع وأنا افوح برائحة قذرة. رائحة مزيجية من الياس والضراط والبراز والصفاقة.وبول الحمير وغائط الإنسانية الأسود والإسهالات. مررت على كل بيوت المنطقة وتحديدا على بيت فقير وقلت أخرج أيها القواد الشيوعي فلقد فصلوني من المدرسة وكان الأب في الحديقة.

بصق على وجهي حينما شاهدني. كنت أريد أن أضاجعهم كلهم. كل نسائهم ورجالهم وبناتهم وقواديهم. اتثعلب وانزو على دجاج البيوت العامرة والمكتنزة بالمال. القطط والكلاب البرية تفر من أمامي لأني ابن كلب قذر يضع ذيله بين ساقه ويتبول على الأشجار والاحجار والسماء. أخذت أفكر على نحو مشوش بقرار فصلي لكن الارتعاش في فمي منعني من أن اصرخ واتفوه بالكثير من السباب والشتم. أحسست فجأة بحالة اكتئاب شديد وجلست في الشارع.

لماذا جبنت أيها الجبان ولم تطلق الرصاص. كان مخزن البندقية معبئا، مملوءا بالرصاص. لكني فشلت. تخاذلت، يبدو أني لم أزل أريد أن احيا، لا إنما كنت خائفا جداً من أن يضعوني في التراب وتوجه الي أسئلة منكر ونكير واساق إلى جهنم مثل خروف. ولم إلى جهنم؟، ولم إلى النار اصلا، ولم أكن أعرف الجواب لكن هذه هي الحقيقة بالرغم من أني نبوءة جديدة في طريقها إلى العالم.

يا للدهشة عندما تعرف أن تصوغ العالم وفق نظريتك الجديدة. لقد شبعنا حروبا وصلوات وادعية وقراءات وتفصيد للدم والدمع. لماذ لا يثور هذا العالم؟ لماذا لا يرفع صوته ويطالب بنبؤات جديدة. لماذا لا ننتحر جميعا ونترك هذا الصخب الحياتي. في اللحظة الدونية لملامستي زناد البندقية. فكرت بأشياء كثيرة. فكرت بابنوسة عاطفة الذي لم امتصها وفكرت في هادية التي أخرجت لي شنيئها، فكرت على نحو مجنون بياسمين وامها

والروضة والمعلمة ثم الحزب. كل حياتي كانت تمر أشبه بفيلم سينمائي قياس 23 ملم.

بعد مسير طويل وتسلق باصات سريعة ومكدسة بالبشر وصلت إلى شارع الرشيد. دلفت إلى مقهى البرازيلي. أخذت اعدادا من الجرائد ورحت احتسي القهوة واقرأ بنهم. شعرت أني تحررت إلى الأبد من المدرسة ونظام الحضور والمواظبة. كان شعور الحرية شعوراً لذيذاً وعميق ومؤثر.

درت على كل مكتبات الباب الشرقي. وفيما أنا أسير واقرأ العناوين داهمتني فجأة نوبة بكاء وإحساس بالضيق وان امعائي تتقلص. أردت الهروب لكني لم أعرف إلى أين يجب أن يكون اتجاهي. هرعت إلى النهر وبكيت هناك في وحدة قاتلة. لم أشعر بالخوف من الحرب لكن ما كان يهمني أني سأتيه إلى الأبد في دوامة قاتلة وان الحياة تتسرب من يدي وأنا على وشك أن ادخل عالما جديدا هو عالم الجيش والاوامر والحروب. ساغدو مجرد رقم بين مئات الالاف. سأذهب إلى الحرب مثل تائه، مثل مجنون. ستنتهي الحياة بمجرد أن تدخل الحياة العسكرية.

لم يمنحني النهر بجريانه المتهادي أي نوع من الصبر بل على العكس دخلت في نوبة بكاءقاسية وشعرت أني اخطأت حينما لم اطلق الرصاص على رأسي وانهي هذا الصخب الدوار والتيهان والوضاعة والبؤس والارتحال والكبت الجنسي وممارستي العادة السرية التي لم أعد أستطيع الفرار منها. شاهدت وأنا ابكي، قحبة تسير قريبا مني وكان الفرح والحبور واضح على وجهها. أردت أن اطلب منها أن نمارس الجنس حتى ولو كان هذا في مراحيض، لكني لم أستطع التكلم. نهضت وسرت في الوحدة القاتلة والتحطم الذي اعاني منه.

استطعت بصمود جبار أن اكبت بكائي المقدس لكن الدموع كانت تنهمر دون قيد. أخذت ابحث في ساحة النصر عن طبيب نفساني وعندما اهتديت إلى وأحد انهرت أمامه، تبعثرت ولم أستطع أن اتكلم بشكل

واضح. أخرج الطبيب على عجل دواء من خزانة صغيرة بجانبه وناولني مجموعة من الاقراص وبعد دقائق شعرت بأني أحسن حالا.

تكلمت أمام الطبيب كثيراً جداً. كان وجهه القاسي الذي لا نأمة فيه ولا مشاعر يصغي الي دون أن يتحدث وفي النهاية زودني بأدوية مجانية وطلب مني أن ازوره في مستشفى الكرامة. خرجت من الطبيب وأنا أشعر براحة عميقة. الدواء الذي تناولته جعل فمي مرتخيا وكأني كلب بودل يبحث في القمامة عما يأكله. شعرت بالاسف على نفسي، بالحزن العميق والمتراخي لما صرت له.

وصلت الكوخ وتناولت الدواء ثم نمت بعمق لعشرين ساعة متواصلة. حينما استيقظت كنت أشبه بسحلية أو عضاءة علقوها من ذيلها إلى نار بطيئة. لم أشعر أني بحاجة إلى غسل وجهي. بقيت ذلك اليوم والأيام التي تليه دون غسل واستحمام حتى شعرت أني عبارة عن جيفة متنقلة.

بعد أيام قضيتها في الغرفة دون أن أخرج. توجهت إلى المستشفى حيث قابلت طبيبي هناك. أخذني هذا بدوره إلى اطباء صغار في السن راحوا يمطرونني بأسئلة كثيرة ومتنوعة وسخيفة وبعد الانتهاء من كل هذا اللغو. ادخلوني إلى صالة المرضى حيث جاء معين ورمى لي بشراشف ودشداشة. ارتديت الدشداشة أمام المرضى ثم جلست على السرير المخصص لي. من السرير أخذت أشاهد المرضى.

كانت اعدادهم هائلة. كل نصف ساعة يجيئون بمجموعة جديدة. إلى جانبي كان جندي مصاب بالصرع وأمامي شاب يعمل في التصنيع العسكري ضربوه بالكيبلات من أجل زيادة الانتاج. مريض آخر جيء به من مديرية الامن العام، ينهض كل ساعة بشكل مفاجئ ويهرج ويقفز على الأسرة من فوق المرضى وتنتهي الحفلة دائماً بحقنة ونوم طويل. بعد الغداء المتكون من صراصير وسحالي وأشياء غير مفهومة، جاءوا ببعض المرضى وهم نائمون والقوهم مثل اكياس الزبالة على الأسرة. عرفت من المريض

المجاور لي أنهم وجبة الصباح التي عملوا لها كوي كهربائي.

كان احدهم يتقيأ ورائحته تنتشر في الصالة. بعد الغداء اعطيت اربعة حبات أخرى من التافرانيل ودخلت في غيبوبة طويلة لم اصح منها إلا عند منتصف الليل. كانت الصالة باردة وزغب جلدي يبرز على السطح. حاولت مرة أخرى أن انام لكني لم أستطع، أخيرا قررت أن احصل على غطاء باي ثمن. خرجت من الصالة إلى الممر الخالي. كانت الاضاءة ضعيفة وعند غرفة الاطباء وجدت ستارة سميكة معلقة فانتزعتها ووضعتها تحت ابطي وفيما كنت في طريقي إلى القاعة سمعت صوتا نسائيا قادما من الاتجاه المعاكس.

توقفت وكان الصوت يقترب أكثر. اثر الدواء الذي تناولته بعد الظهيرة لم يزل مؤثرا وكنت أشاهد في بعض الأحيان افاعي طويلة أو حيات صغيرة تسير على الحيطان وتلحس شعر عانتي. اقترب الصوت النسائي أكثر. اختبأت خلف طاولة الاستعلامات. سمعت أحد الفراشين المناوبين وهو يمسك إحدى المريضات ويجرها مثل معزة إلى داخل غرفة ثانية خاصة بالمناوبين.

كانت المرأة تضحك ضحكات هستيرية ولم تكن تسير إنما تقفز. بعد أن دخل المعين الغرفة وبطح المريضة على طاولة، فررت بسرعة وفي ذهني فقط الطريقة الحيوانية التي كان يغتصب بها المعين المريضة، ضحكات وأصوات لا أعرف من أين تأتي وكلها تقول لي، أن في لباسك توجد فئران وسحالي من نوع ابو بريص. نزعت ملابسي بسرعة وكنت ارتعش واهتز من البرد ثم تلفلفت بالستارة ونمت وأنا أشاهد أحلاما مذهلة وادخل في ممرات متتالية، كل ممر ادخله كان فيه ولدان وجواري وجرذان وبقايا اسنان بشرية واعضاء تناسلية لها عيون واذان وعقول تفكر.

سمعت أصوات المعينين وهم يبحثون بجنون عن الستائر. تلفلفت بشكل اقوى وحينما اكتشفوها معي جاءوا بحقنة وزرقوني بها وشعرت أني

أسير على صفيحة ملساء من الزبدة واختفت الأصوات وتحول العالم إلى شيء مثل لعبة بهلوان ومصارعة ثيران بلا صوت.

استسلمت إلى الخدر ثم حملوني إلى صالة العمليات وهناك وضعوا على رأسي اسلاك كهربائية وموصلات متشابكة ثم استيقظت وأنا أنظر بذهول إلى الصالة والمرضى والبهاء الكوني والمطر المتناثر على النافذة. في البدء لم أعرف المكان الذي أجلس فيه وتخيلت أني لم أزل أحلم وقمت في الحلم بالتحديق في وجوه المرضى وتحديدا في وجه الشاب الذي أمامي. كنت أشعر أني أعرف هذا الشاب. في اليوم التالي تذكرت أنه الشخص الذي يعمل في التصنيع العسكري.

تعرفت على المريض الذي على جانبي الايمن. هو من بدأ الحديث. سالني عن نوع الحالة التي اعاني منها. فيما كنت أنظر له بدهشة كانت ملائكة تحيطني من كل جانب. أردت أن أقول له أن يطفيء المصباح لكنه ذاب فجأة في بركة من مياه ملونة. قلت للمريض الذي بجانبي، أريد أن أخرج، أشعر أني بحاجة إلى السير في الشوارع. قال إنه تراوده ذات الفكرة. اتفقنا على الهروب لمدة ساعات على أن نعود مساءا.

في اليوم التالي وقبل وصول الادوية والفطور، استطعنا الخروج إلى الحديقة الجانبية ومنها إلى الحديقة الكبرى مرورا بقسم الطوارئ ومن هناك إلى الشارع. انزلقنا إلى الطريق ووصلنا علاوي الحلة. قال الزميل فلنذهب إلى أحد اقاربه الذي يملك مطعم صغير. لم اعترض. كنت أريد فقط أن اتنفس هواءا مليئا بالوساخة ورائحة الدجاج والنفايات.

بقينا ساعات طويلة ندور دون نتيجة. الغينا الفكرة وشعرنا بالجوع ونحن نسير خائفين. طلب منا أحد اصحاب المحال أن نرفع دشاديشنا ونخرج عوراتنا مقابل وجبة طعام. فعلها زميلي فانهال عليه القطيع البشري ضرباً وتنكيلاً. استطعت بصعوبة تخليصه وسحبه إلى الخطوط الخلفية التي تقع خلف سينما زبيدة. كان وجه صاحبي متورما وأردت أن

نعود إلى المستشفى لكننا تهنا. لم أعرف ماذا نفعل. تشوشي العظيم كان يؤرقني.

بحثت بأصابع طويلة ومراوغة عن شظايا خشب. كنت أريد أن اوقد نيران الآلهة المطفأة لكن عيني كانت تذوب في برك المياه المغسولة ببحار الوقت. سرنا أنا وزميلي مثل اقزام في مملكة الرجال الجبابرة. عيوننا ملتهبة واثار الدزنتري تلهب مؤخراتنا العجفاء. في الليل، الدهشة عميقة، تخرج من الظلمة صراصير الوهج الروحي وتدب في الارجاء. سرنا سوية في شوارع علاوي الحلة، الليل موحش وأصوات البشر والشاحنات العسكرية والاوامر وفرق الانضباط العسكري تداهمنا من كل مكان.

توقفنا أمام محل كبير لصنع (الباجة) رائحة اللحم المسلوق والنارنج كانت تحيطنا من كل مكان ومن قدور السلق كانت تخرج الجراء والافاعي واليرقات البحرية تعلن انتهاء العرض السينمائي. دخلنا من فتحة الفئران إلى المطعم. كل الذين كانوا هناك هم من السكارى. احدهم كان يمتص رأس خروف مسلوق فيما آخر يخرج عيون الذبائح ويلتهمها دفعة واحدة. شعرت في ذلك المكان باني مع عراة في غابة متهدمة لكن الجوع كان يحفزني أن أمد أصابعي. أنا وصاحبي توسلنا بدشاديشنا اللذيذة عطايا السكارى.

أحدهم رمى لنا بعظم كبير مقشود اللحم. نبحنا ثم هجمنا نلحس الأرض والسمن والزفر وبهاء الأرض الموحلة والقذرة. صاحب المطعم وبعد أن توسلنا الجميع العظام والجماجم ولحمة رأس مسلوقة بماء النارنج، ضربنا وسحلنا مثل رئيس وزراء منبوذ إلى الشارع ثم هز بوجوهنا قبضته الكبيرة.

مرة أخرى نحن في الشارع وفي البرد لكن المدهش اننا لم نشعر بالبرد.. بعد مسير طويل القت دورية مشتركة القبض علينا. كانوا مجموعة مدهشة من الامن الخاص والحرس الخاص والمخابرات والامن العام وامن بغداد والحرس الجمهوري والانضباط العسكري. ضربونا باعقاب

المسدسات والبنادق. لم نكن نعرف ما نقول وسقط صاحبي صريع نوبة من الهيستيريا وأراد أن يقتل نفسه لكن الدورية كانت حريصة على حياتنا.

وضعونا في سجن اقيم على عجل حيث المطر يتساقط علينا من السقف المصنوع من سعف النخيل اليابس والهش. صاحبي أخذ يتبول على نفسه، وامتلأ المكان بالبول. من حسن الحظ أن الأرض ترابية، لكن الأرض لم تقبل البول فكان يفيض ويتجمهر ويندفع اناس من اماكن مرتفعة يصفقون لنا ونحن في الباحة الخلفية مع الماعز ومواء قطط تنداح في الظلمة.

بعد ساعات جاءت شاحنة، حملت صاحبي وهو يتقيأ ووضعته في الخلف ثم تسلقت سلالم طويلة وتبين أنها نهاية السماء والقشعريرة والبرد والملاحظات العابرة وضحك الجنود المتراص مثل علب قصديرية.

بعد زمن لا أعرف قياساته توقفت الشاحنة وأنزلونا بضربات ولكمات قوية. صاحبي كان يجهش بالبكاء وأنا كنت اراقب كل شيء مثل صقر وأحاول أن احتفظ بكل شيء في الذاكرة. بعد وجبة الضرب المبرح وضحكات الجنود. سحلونا إلى ضابط سألنا بعجرفة مبالغ فيها وكأنما يكلم كلاب تبول تحتها، لماذا لم نحمل هويات وبطاقات تعريف. لم نعرف بماذا نجيب وفضلنا الصمت. بعد أيام قضيناها في سجن التسفيرات.

حولوا صاحبي إلى الجيش الشعبي وأنا تم سوقي إلى الجيش. كنت مبهورا ولم أستطع التفكير باي شيء. دائماً كنت أشاهد عصافير وبلابل تغرد وكانت هناك فخاتي تطير وتتمرغ في سماء الله. كنت اضحك في كثير من الأحيان وفي أحيان أخرى كان يسيطر علي حزن شديد وأشعر أني محطم تماما.

في الطابور كان العرفاء يضربوني ببساطيلهم وعصيهم من أجل أن اركض لكني كنت اغادر ازمنتهم. اغادر نحو تلال ارجوانية وحقول ذرة خضراء وحمام يطير مجنحا وشاهقا. كنت اغيب في لا وعي كبير. لا أحس

بالعالم الذي يجري خلفي مثل ساعة بعقارب كبيرة وحين افيق من الترحالات والنوبة الجنونية وعدم الاكتراث، اتألم من الضربات التي وجهت لوجهي وظهري. بعد ذلك انقل مثل جثة إلى قاعة المنام وهناك أشاهد جنودا يكوون اذرعهم بأعقاب السجائر واخرين يتناولون حبوبا مهلوسة.

اعطاني الجنود بعد أن أصبحنا اصدقاء بعض الحبوب. ابتلعتها على عجل وكانت رائعة وملهمة. أحسست أني اطير بعيداً واغادر العالم إلى غير رجعة. كانت الحبوب تجعلني اهذر بكلام لا على التعيين. وفي قاعة النوم كان أحد الجنود يغتصبنا لمرات متتالية ولم يستطع أحد ما من الاعتراض. في لحظة غريبة بكيت فجأة وكأنما اختفى تأثير الحبوب المهلوسة. كل شيء كان فجائيا وكارثيا وملونا بلون التراب والسبخ والأرض البائرة التي تبتلع الجنود.

بقيت في معسكر التدريب اسبوعين ثم منحوني اجازة عرضية ولمدة يومين فقط. في البداية فكرت أن لا اذهب إلى جدتي. سرت في شارع الرشيد بملابسي العسكرية. كنت أغرق في البسطال وفي الملابس الكبيرة القياس.

بعد دورات يائسة في الشوارع. قررت أن أعود إلى جدتي التي لم تعرف أين اختفيت كل هذا الوقت. سرت من علاوي الحلة إلى البيت سيرا على الاقدام وحينما وصلت الكوخ، وجدت عبد الرحمن مات حرقا ولم يعرف أحد من الذي سكب عليه النفط واشعل عود الثقاب في فراشه وجسمه. لم اهتم بالأمر. سرت في المنزل أشبه بالمسرنم متجها إلى الكوخ حيث وجدت عمي مصابا بالبروستاتا وبسبب عدم قدرته على التبول ادخلوا انبوبا بلاستيكيا في احليله مربوطا إلى كيس يتجمع فيه البول.

كانت جدتي في وضع بائس تماما ورائحة بول عمي تملأ المكان وتجعل التنفس مستحيلا بسبب اليوريا والميثان ومجموعة أخرى من الافرازات

العرقية والجنسية. لم أستطع في هذا الجو الخانق أن اتناول الطعام. قالت جدتي إن علي أن آخذ عمي إلى المستشفى. لكن هناك هجوم ايراني جديد على الحدود. لم انفذ ما طلبته جدتي. عمي يتألم وأنا ادخن سيجارتي وأنظر له. كنت أعرف أنه سيموت عاجلا أو اجلا، فما فائدة العلاج اذن.

كنت سلبيا وفي روحي ثمة بؤس عميق. بؤس من التفاهة التي نغرق فيها دون أن نكون قادرين على التخلص منها. لم أعرف من حرق عبد الرحمن لكن عاطفة قالت إن زوجها مسجون الآن كونه حاول تهريب أشياء بسيطة إلى خارج العراق. سألت عن أبناء عبد الرحمن الاخرين. قالت عاطفة وهي تصب لي شايا في استكانة تفوح منها رائحةالسمك. الاخ الاصغر لزوجها تم سوقه إلى الجيش الشعبي والاخر مصاب بالسفلس والاخر تم قطع ايره بشظية ايرانية. لم اعلق على اجاباتها.

قالت بعد أن رفعت استكانة الشاي الفارغة. الله انتقم منهم جميعا، لكنها حزينة ولم يعد لديها المال الكافي لإخراج زوجها. قلت ما الذي ستفعله.؟ اجابت، سوف تسافر إلى بعض اقربائها في تكريت للحصول على واسطة لاخراجه من السجن.

سافرت عاطفة في ليلة ماطرة. بعد أيام عادت بوجه متورم ونظرات تائهة في تكريت حيث مكامن القوة الدهماء والرعود الشيطانية. طلبت من الاقرباء أن يساعدوها. اشترط أحد الاقرباء من الذين يعملون في حماية صدام أن يضاجعها. وافقت واغتصبوها أكثر من مرة. بعد أن تناوب عليها سبعة رجال ضربوها باحذيتهم وبالحجارة والقبضات.

استطاعت الهرب من تكريت والعودة إلى بغداد. كانت ترتعش وقررت في ذلك اليوم أن تكون قحبة. بكيت على حظ عاطفة. أصبحت تخرج كل يوم إلى الاسواق من أجل اصطياد الزبائن وكنت أنا اساعدها بأن اعقم اعضائها بعد كل ممارسة للحب. في بعض الأحيان كنت اقف على الباب الخارجي واقبض النقود ناسياً حروبنا المبجلة مع ايران والمعوقين

والاسرى والمشوهين والتائهين والمكتئبين والارامل والايتام والمفقودين والماجدات واعضاء الحزب ورفاق الحزب الشيوعي.

وعندما قررت أن أخرج إلى الشارع بعد أن هربت من الجيش. جاء مختار المحلة وقال تعال أيها القواد من أجل استلام جثة راحيل من الامن العام. طالبوني قبل أن آخذ الجثة بدفع ثمن الرصاصات وان لا افتح التابوت.

مرارة فظيعة في فمي. فتحت التابوت ونظرت إلى الجثة. اثار الكدمات والتعذيب كانت فظيعة. الجسد كله كان عارياً ومثقباً بالرصاص. حملت التابوت و كنت أشبه بقابيل وهابيل واشبه الاساطير وأنا امسد النعش بكل لوامسي. لم اصدق موتها، أخذتها إلى الكوخ وأمام جدتي التي نهبتها العاصفة والتأويلات الدينية فتحت التابوت وقبلت الرأس الذي وضعته على ساقي وبكيت السفن العائمة في البحار العليا وصوت اليرقات وهي تمسد السكون في حضرة الابونوس السحري.

قامت جدتي وأمام انبهاري وعدم فهمي للعالم بايقاد شمعة وبخوراً هندياً ملأ المكان بالدخان والرائحة. أردت أن ادهن جسد راحيل بالكافور والمسك والعنبر، مثل ملك متوج غادر الممالك البعيدة واليابسة وطار فوق صفحة الماء لكني لم أجد الدهن ولا الزيت ولا العطوز الفواحة.

لحست الجثة ولعقتها من قمة الرأس إلى القدمين والأصابع والتشوهات والمرارة. شاهدت وأنا انحني على جثتها. اقفاص عصافير وطيور هجينة وملاحم سوداوية وجنودا يموتون ورؤوسا تتطاير ومحنا قادمة مثل قطع الليل. أحسست إلى الأبد بأني انقطعت عن العالم ومن خلال الحديقة الخلفية لبيت عبد الرحمن ومن تحت سوائل عاطفة وطيور مدارية، حلمت لأول مرة واقفاً بين الزهور الذابلة المضروبة بحامض الفسفوريك والخرافات وقبة سيدي وقرة عيني الشيخ عبد القادر.

سرت في شوارع بغداد، من اليرموك حتى الحيدرخانة مرورا بعلاوي الحلة والجرذان والجيف والجثث المتعفنة.. قبلت يد الملاك ونكشت الشعر ووضعت الكحل ولبست الخيش وتنكبت الخرقة ثم،، أخذت اصرخ واضحك للجنون الذي يغرق العالم وأنا ادعو من غرفة التسفيرات حيث الجنود يضحكون ببلاهة قبل التوجه إلى الجبهة، إلى العهد الجديد القادم حيث الناموس الحديث وحيث لا لعنة هناك ولا موت ولا نساء يقتلن ولا انتقامات ولا جنون ولا اكتئابات ولا انخفاض الهرمونات ولا نفاد التستيرون ولا صراصير تأكل الاقدام ولا براغيث تنتشر في الفضاء، وفي النهاية لا بكاء ولا قيامة ولا حروب ولا أموات ولا اعتقالات ولا احزاب ولا نقص بالسيروتونين ولا عاهرات و لا أحزان ولا مفقودين ولا أرامل ولا اغتصابات ولا شرطة ولا كلاب مسعورة ولا روائح اقدام جائفة وفم ولا أسنان تتسوس ولا قمل عانة ولا حكات شرجية.

تبولت على الجميع، تبولت مثل حصان على زوج راحيل وعلى الحزب الشيوعي وحزب البعث وحزب الدعوة. ثم قام الرفاق في السلاح مندهشين و ضربوني باعقاب البنادق وكعوب المسدسات وفي اللحظة الكونية لانهيار عظامي وتيبس فمي وانبعاج وجهي وتمزق لساني، انهرت على النقالة وفتحت عيني وأنا أشاهد الاطباء و(النيرسات) والاسلاك الكهربائية واللغة الإنكليزية كلها تلتف حول رأسي أشبه بيسوع جديد قتلته الفئة الباغية.

NOV 6- 2006

هاملتون- اونتاريو

المؤلف في سطور

- مواليد بغداد 1962
- انتمى إلى الحركات القومية في العراق عام 1972
- انتمى إلى جبهة النضال الشعبي الفلسطيني وسافر إلى بيروت عام 1979 وعمـل محرراً في مجلة النضال الشعبي
- ابتدأ النشر الادبي في مجلة النضال الشعبي الفلسطيني وبعض المجلات العراقية
- في العام 1982 دخل الجامعة التكنولوجية لدراسة هندسة المعادن.
- في العام 1982 تم القاء القبض على والدته وتـم اعـدامها بتهمـة الانـتماء إلى الحـزب الشيوعي العراقي
- بدأ النشر الادبي في مجلة صوت الطلبة ومجلة الطليعة الادبية
- ترك دراسة الجامعة في مراحلها الأخيرة بعد تعرضه لازمات نفسية قاتلـة وضـغوط مـن البعثيين في الجامعة
- شارك في الحرب العراقية الايرانية كجندي وعمل في جبهة الفاو– المملحة
- تسرح من الخدمة العسكرية ودرس الصحافة.
- عام 1992 انتمى إلى اتحاد الادباء في العراق
- العام 1993 نشر مجموعته القصصية الأولى تحت ظل المطر
- العام 1994 عمل مراسلا صحافيا لمجلة فلسطين الثورة من بغداد
- نشر وكتب في العديد من المجلات والجرائد العراقية والعربية.
- في العام 1994 تم استثنائه من التعيين في الجرائد العراقية اسوة بالادباء الاخرين بحجـة أنه غير موال للحزب والثورة في العراق ولم يكتب عن قادسية صدام وام المعارك
- في العام 1994 لوحق من قبل الاجهزة الامنية لكتابته قصة عن الحصار ونشرها في مجلـة الناقد البيروتية
- العام 1994 فازت إحدى قصصه القصيرة في مسابقة راديـو فرنـسا الـدولي وترجمـة إلى اللغة الفرنسية والالمانية والايطالية.
- العام 1995 وأمام اشتداد الحصار الاقتصادي على العراق وتضييق الحكومة العراقية على الحريات، سافر إلى عمان– الاردن حيث عمل عتالا وحمالا وكناسا في المركز الثقافي الملكي
- نهاية عام 1995 عمل مصححا في جريدة المجد الاردنية وكاتبا لعمود شهري

- عام 1996 انتقل للعمل في مؤسسة انترميديا للاعلام وعمل سكرتيرا للتحرير ونشر العديد من الاعمال الادبية في الجرائد الاردنية و المجلات والجرائد العربية الصادرة في لندن والخليج العربي
- نهاية 1996 رجع إلى بغداد واسس مكتبا صحافيا وراسل العديد من الجرائد العربية
- هرب اواخر عام 1996 إلى شمال العراق مع عائلته وعمل محرراً في جريدة الاتحاد التابعة لحزب جلال الطالباني وبعد دخول قوات الحكومة إلى اربيل بمعية مسعود بارزاني تعرض لمحاولة اغتيال.
- في اواخر العام 1998 ترك مدينة زاخو بعد المضايقات المكثفة من حزب مسعود بارزاني وسافر إلى تركيا
- في اواسط عام 1999 تم حصول موافقة الحكومة الكندية للدخول إلى كندا والاستقرار فيها
- انتمى إلى اتحاد الادباء في العراق 1992
- أصبح عضوا في اتحاد الكتاب العرب عام 1994
- منح الجنسية الكندية عام 2003
- منح عضوية اتحاد الكتاب الكنديين عام 2005
- فاز بجائزة ناجي نعمان للابداع 2007

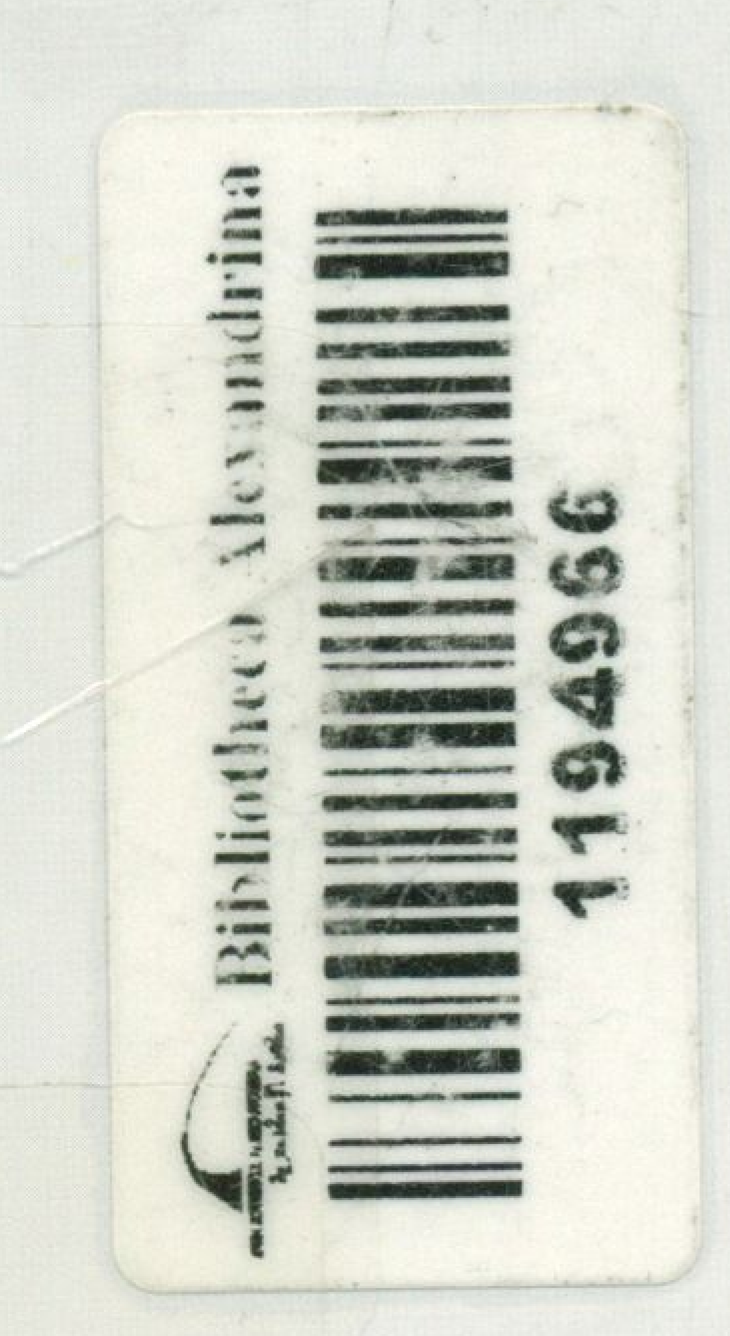
العنوان الالكتروني
Salah352@sasahotmail.com
Salah12_ca@yahoo.ca
salah352@hotmail.com

اصدارات للمؤلف

- تحت ظل المطر 1996 قصص قصيرة- طبعة خاصة
- مكان لممارسة الحلم 2002 قصص قصيرة- دار المغترب العربي- تورنتو
- تحت سماء الكلاب 2005 رواية- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- تم منعها من التوزيع في الدول العربية

أوراق الزمن الداعر

الجيل الروائي الذي خرج من حروب وحصارات العراق هو جيل الجنون بامتياز . هذه الرواية تغرق في ميكانيزميات الماضي المؤسس لهذه الحروب ، وان كانت كلمة الاضطهاد والسلب هي تعبير عريض عن حالة الانسان العراقي في ظل كل الانظمة السياسية التي مرت عليه بدءا من ماقبل التاريخ . فأن البحث في المقدس الذي يولد هذه الميكانيزميات هو نوع من التيه الذي يتساءل بطل هذه الرواية عنه ويبحث في المجهول لاكتشافه . هناك علاقة سرمدية بين الارث السياسي العراقي وبين الناتج الاخلاقي لهذه العلاقة ، وان كان بطل هذه الرواية يعاني من توحداته العميقة ، فأن المجتمع يدفعه الى تطوير فكرة المخلص - الجليلة - في الجذر العراقي وهذه الفكرة رغم قساوتها تعني ان البحث عن الامل يبقى اجمل الامنيات واعزها . بطل هذه الرواية يبحث في تأسيس علاقة افتداء كبيرة وهو يستعير من الموروث العراقي متمثلا في اساطير الاولين نوعا من المعادل النفسي ، لكنه في النهاية يكتشف ان فكرة الافتداء وعودة الفادي ماهي الافكرة مجنونة . هكذا تتكون في هذه الرواية رؤية للجنون وهو ليس شخصيا انما شاملا في لحظة التأمل الكوني بان الزمن والالهة والاساطير لم تكن في يوم ما الا هاجس البحث عن العدالة التي لم تستطع ان تعيد تركيب مكوناتها في ظل هاجس فكرة التسلط الانساني واستلاب العراقي على مر الدهور .





بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥
Email: dar_altanweer@hotmail.com
dar_altanweer@yahoo.com

توزيع دار الفارابي

